مريد البرغوثي

ولدتُ هُناك، ولدتُ هُنا

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

مريد البرغوثي

ولدتُ هناك
ولدتُ هنا

٢٠٠٨ First Published in February
.Copyright # Riad El-Rayyes Books S.A.R.L
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyesbooks.com
٥-٢٣٠-٢١-٩٩٥٣ ISBN
All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: لارا بلعة
الطبعة الأولى: شباط/فبراير ٢٠٠٨

الفصل الأول السائق محمود

ها نحن نصل سالمين إلى أريحا كما وَعَد. ما زلتُ لا أستوعب كيف تمكنّا من ذلك. ربما هو الحَظّ، أو الهواتفُ النقالة أو دهاء القرويّين والرُّعاة، أو ربما، وهذا هو الأرجح، أنّ القَدَرَ لم يسمح بعد للفلسطينيين أن يموتوا بسبب حوادث الطُّرُق، لكنّ ما يشغل بالي في الحقيقة هو السائق محمود.

أقف بانتظاره تحت مظلة باب الفندق في رام الله. يصل في موعده تقريباً. هذا ليس غريباً على «سفريات درويش» المعروفة بالدقة، يترك محرك التكسي دائراً وينزل تحت المطر الخفيف باتجاهي:

ـــ السيد برغوثي؟

يتناول حقيبة السفر الصغيرة عن الأرض (حقيبتي دائماً صغيرة هنا بسبب الحواجز) يسرع ليخترع لها مكاناً في صندوق السيارة. جَيِّدٌ أنه لم يُحمّلها على ظهر السيارة كالحقائب الأخرى، وجَيِّدٌ أنه جمع ركابه الستة أولاً، لن نضيع وقتاً آخر في البحث عن عناوينهم في تلال رام الله ومنخفضاتها، أجلس في السيارة الصفراء. أقول لنفسي هذه بداية طيبة لليوم.

ينطلق بنا إلى أريحا دون أن ينطق بكلمة، كأنه يخفي سراً ويبحث عن توقيت مناسب لإفشائه. واضح أنه قرر تجنب «حاجز قلنديا». ماسحات الزجاج لا تجدي نفعاً في إزاحة وطأة الضباب الذي اتخذ لون التوتياء، وتخسر سباقها مع المطر الآخذ في الاشتداد. السيارات قليلة في الشارع والمارّون أقل.

نخرج من حدود رام الله.

يبدو كل شيء عاديّاً إلى أن يتلقّى مكالمة على هاتفه النقّال، ينهيها في ثوانٍ، ثم يزيد سرعته بشكل ملحوظ. بعد بضعة كيلومترات يخرج عن الطريق العام. يدخل قرية أراها للمرة الأولى، لا أعرف اسمها، وأخجل أن أسأل عن اسمها، ينحني شارعها الوحيد الضيق، ثم يتعرج بين البيوت، قبل أن نخرج منه ثانيةً إلى الشارع الرئيسي المرصوف.

ـــ صباح الخير عليكم جميعاً، إسمي محمود، هذي آخر سيارة للجسر اليوم، إسرائيل أبلغت الديبلوماسيين الأجانب أن الاجتياح سيتمّ الليلة أو غداً وطلبت منهم أن يدبّروا أنفسهم. أولاد الحرام، المهم عندهم الأجانب، إحنا مش بشر. الجيش مستنفر، الطرق مغلقة، الحواجز الطيارة في كل مكان. الطقس سيّئ كما ترون، لكن لا بد أن نصل الجسر بعون الله. قهوة؟ صُبّ للجميع يا حاج، كبير القوم خادمهم. اتفضلوا القهوة.

لا يبدو على الركاب اضطرابٌ استثنائيّ من خبر الاجتياح الوشيك الذي أعلنه محمود، بل إن الراكب البدين الجالس أمامي في المقعد الأوسط علّق متهكماً:

ـــ كأنّ الفيلم ناقصه «أكشن»! يقتلوننا «بالفَرْد» يومياً، وبين فترة وأخرى يشتاقون لقتلنا «بالجُملة»، المهم أنهم اجتاحونا مائة مرّة بلا فائدة، أفلسوا. و«اللي بيجَرِّبْ المجَرَّبْ عَقْلُه مْخَرَّبْ». ما عندهم إلا الطحّ والقتل. كل مرة بهاجموا وبطخطخوا وبيقصفوا بالطيارات وبيروّحو. وبعدين؟

وقال جاره:

ـــ مسخرة! اللي بيشوف اجتياحاتهم لقرانا ومخيماتنا بحسِّبْهم خارجين لغزو الصين! مع أنه بإمكانهم اعتقال أي واحد منا أو ترحيله خارج البلاد أو حبسه أو قتله بلا دبابات وبلا مدرعات وبلا إف ١٦ حتى ياسر عرفات ذاته. مين بده يمنعهم؟
سكت لحظة ثم قال بهدوء كمن يحدّث نفسه:
ـــ لكن يا عمّي مشروعهم مش ماشي، دولة إسرائيلية على حسابنا مش زابطة معهم. وين بدهم يروحوا منا؟ بدهم يقتلونا كلنا؟ مشروعهم ورَّطهم ورطة ما إلها أول ولا آخر، هم عارفين إنهم في ورطة بتكبر سنة بعد سنة. معك حق والله إنهم أفلسوا.
أنا الذي أبتعدت لسنوات طويلة عن هؤلاء الناس من أبناء بلدي وعن تفاصيل حياتهم اليومية لا أستطيع أن أستخفّ بخطط شخص مرعب كشارون لاجتياح مدننا وقرانا بينما هم أنفسهم، أبناء هذه المدن والقرى الذين لم تُقْصِهِم المنافي، يحوّلون الأمر إلى مادة للتندّر. هل هو التعود؟ أم هي المكابرة؟ أم هي الثقة التي تُراكِمُها ثقافةُ الإقامة في التفاصيل؟ أم هو فعل المقاومة الذي يجسّدونه بمجرد بقائهم المادّي في المكان؟
أقرر أنا الآخر أن أقنع نفسي أن الأمر عاديّ. لا أتبرع بإبداء قلقي مما سيفعله مهندس مجزرة صبرا وشاتيلا عندما يطلق دباباته وجنوده الكثيفين المصفّحين كالدبابات في شوارعنا غداً أو بعد غد. وأقول في نفسي ليت قيادتنا المذعورة من إسرائيل تدرك ما يدركه هؤلاء الركاب من حقيقة المأزق الإسرائيلي.
يتناول السائق من تحت قدميه ترمس قهوة، يعطيه للشيخ الراكب بجواره ويزوده بعمود من أكواب من البلاستيك الصغيرة.
مع سكب الكوب الأول تتسابق رائحة القهوة مع رائحة الهال سباقاً ماكراً، يَصِل الهالُ أوّلاً بالطبع.
ـــ الله يهدّها على شارون يا رب، تفضل يا بني، انتبه، سخنة جداً، أعط الحاجّة، تفضلوا.
يَصِلُني الكوب من يد الفتاة الجالسة أمامي في المقعد الأوسط، ألمسه بحرص ، أنظر إليه، أرفعه إلى شفتيّ وأرشف رشفة أولى. هذه قهوة. ربما ينقصها فنجان أنيق لتغدو قهوة أخرى، لكنها قهوة في وقتها تماماً. يختلف الناس في سِرِّ القهوة وتختلف آراؤهم: الرائحة، اللون، المذاق، القوام، الخلطة، الهال، درجة التحميص، شكل الفنجان، وغير ذلك من الصفات. أما أنا فأرى أنه «التوقيت». أعظم ما في القهوة «التوقيت»، أن تجدها في يدك فور أن تتمناها. فمِن أَجْمَلِ أناقاتِ العَيْش، تلك اللحظةُ التي يتحول فيها «تَرَفٌ» صغيرٌ إلى «ضَرورَة». والقهوة يجب أن يقدّمها لك شخصٌ ما. القهوةُ كالوَرْد، فالورد يقدّمه لك سِواك، ولا أحدَ يقدّم ورداً لنفسه. وإن أعددتها لنفسك فأنت لحظتها في عزلة حرة بلا عاشق أو عزيز، غريبٌ في مكانك. وإن كان هذا اختياراً فأنت تدفع ثمن حريتك، وإن كان اضطراراً فأنت في حاجةٍ إلى جرس الباب. والقهوة ألوانها مذاقات وأذواق، الشقراء والغامقة والمحروقة والوسط، ومِن ملامح مَن يقدمها لك، وظروف تقديمها، تكتسب معانيها المختلفة. فقهوة التعارف الأول غير قهوة الصلح بعد الخصومة، وغير قهوةٍ يرفض الضيف احتساءها قبل تلبية ما جاء يطلبه. وقهوة الكتابة غير قهوة القراءة، وهي في السَّفَر غيرها في الإقامة، وفي الفندق غيرها في البيت، وقهوة الموقد غير قهوة الآلة. وهي من وَجْهٍ مَرِحٍ مليحٍ في المقهى غيرُها من وجْهٍ متجهمٍ منكود. وإن قال لك زائر الفجر وهو ينتزعك من عائلتك ويقتادك بِلُطْفٍ رسميّ وابتسامةٍ مسلّحة، نريدك على فنجان قهوة «عندنا» فهذا أحد أنواع الخطف أو القتل. فالغبيّ هو من يطمئن لقهوة الحكومة. وقهوة العرس غير قهوة العزاء حيث تفقد

«القهوة السادة» كل معانيها، يديرها على الجالسين المنكوبين ساقٍ منكوبٌ لا يعرف ضيوفه ولا يسألهم كيف يفضلونها، فلا الساقي هو الساقي ولا القهوة هي القهوة وفنجانها مخروطيّ بلا أُذُنٍ، لا يعنيك توقيتها ولا مذاقها وهي آخر ما يهمك في يوم كذلك اليوم، كأن اسمها سقط عنها إلى الأبد.
في هذا الصباح، يجيء عرض محمود بتقديم القهوة في وقته، فيُشيع فيّ، مع المطر النشيط في الخارج، بهجةً تتنافى مع الأخبار السيئة.
ـــ لكن بلاش التدخين الله يرضى عليكم، كلها ساعة ونصل.
ـــ أي ساعة يا حاج؟ قل ساعتين، ثلاث ساعات، أربع ساعات، قال لك الأخ قد نصل وقد لا نصل.
يبتسم محمود وهو يصحح العبارة واثقاً:
ـــ أنا قلت لا بد أن نصل.
وَلَدٌ في العشرينيات الأولى من عمره، عريض الجبين، على خدّه الأيسر شامة محيّرة لم أحدد منها موقفاً، عيناه الصغيرتان تجمعان السواد والبريق معاً، واثق كمصباح جديد، متحفز كمحام باغتته فكرة. حاسم الصوت بلا غلظة، نحيل حتى في ملابسه الشتائية، ملامحه جادة لكنها مرتاحة ومريحة، مطْمَئِنَّةٌ ومُطَمْئِنَة، ورغم صغر سنه يقود السيارة باكتراث المحترفين القدامى، الذي يشبه عدم الاكتراث.
بيني وبين السيدة المنقّبة في المقعد الخلفي يجلس فتى حزين، أقول لنفسي لا بد أن وراءه قصة. كل واحد في هذه الدنيا وراءه قصة، وأنا الذي لا أحب لأحد أن يسألني «مالك؟» لا أسأله عن حزنه، لكني في التفاتة عابرة نحوه، أجده يبتسم ابتسامة خبيثة فتقودني عيناه إلى منظر أدهشني، السيدة المنقبة ترفع بيدها اليسرى طرف برقعها وتمطّه إلى الأمام، مكونة بحركتها خرطوماً طويلاً من القماش الأسود السميك، تحته نفَق سرّيّ يتيح ليدها اليمنى أن تدسّ كوب القهوة من خلاله إلى فمها بسرعة مدروسة تنمّ عن خبرة في هذا المجال، ثم تسدل القماش الأسود ثانية لتغلق النفق الغذائي بنفس السرعة، قبل أن يتمكن أحد من رؤية ما تحاول إخفاءه. أتشاغل عن المنظر رغم جِدَّتِهِ بالنسبة لي، فلم يسبق لي في سنوات الغربة رؤية امرأة منقَّبة تتناول مشروباً أو طعاماً في مكان عام. لكني أسرق نظرة ثانية، فأجدها تعيد فتح نفقها الإجباري، تدسّ فيه كوب القهوة بالحذر المدروس ذاته، وتتناول رشفة أخرى. يبدو الأمر روتينياً بالنسبة لها.
في المقاعد الثلاثة الوسطى تجلس البنت الشابة ولا أرى منها إلا شعرها المعقود كذيل حصان وأذنيها الصغيرتين بلا أقراط، (أتذكّر صديقي الجميل «علي الشوك» ودهشته الممزوجة بالاستنكار من حاجة المرأة إلى أقراط تتدلّى من أذنيها) ورَجُلان لا بدّ أن أحدهما قصير القامة جداً، لأن حطته وعقاله غائصان في المقعد، أتخيله ولا أراه، والثاني هو الرجل البدين المرح الهيئة. قبل أن يقدّم القهوة لجاره الغائص يقول لمحمود مداعباً:
ـــ صاحبنا «خليلي». أعطيه قهوة ولاّ بلاش؟
كلنا نضحك، حتى السيدة ذات النقاب ضحكت عيناها بصوت عالٍ.
أقول لنفسي إذا فتح باب النكت على الخلايلة فلن يغلق. يبدو أن محمود يريد التحريض على المزيد منها لتطرية أجواء الرحلة فقال بخبث:
ـــ ما لهم الخلايلة؟

ثم أضاف مقلداً اللهجة المصرية:
ـــ الخلايلة أجدع ناس، والخليل بلد الرجال والله.
ـــ انت خليلي يا أخ محمود؟
ـــ كنت، وتعالجت.
يضحك الخليلي بصوت عالٍ ونحن نضحك معه مرة أخرى.
أضاف محمود جاداً هذه المرّة:
ـــ أنا من مخيّم الأمعري.
ـــ والنِّعِمْ. أجدع ناس.
يتندر المصريون على أهل الصعيد، والسوريون على أهل حمص، والأردنيون على أهل الطفيلة، واللبنانيون على «أبو العبد» والعنوان الدائم للتندر هو السذاجة أو الفَشْر. الفلسطينيون يتندّرون على أهل الخليل، والعنوان الدائم للتندر هو «يباس الرأس». يسأل الناس عادة عن آخر نكتة، لكن محمود سأل الراكب الخليلي سؤالاً غريباً فعلاً عن أول نكتة أطلقت ضد الخلايلة. قال الخليلي الغائص في مقعده:
ـــ والله لا أعرف لكن جدّي مثلاً كان يحكي عن الخليلي الذي سقط من الطابق السابع ولم يمت وقام صحيحاً معافى. قال له أحدهم «خذ مائة ليرة واعملها مرة ثانية»، فرفض الخليلي قائلاً: «ومين يضمن لي أني اسقط على راسي مرّة ثانية؟».
سأل محمود:
ـــ وما هي أسوأ نكته بالنسبة لأهل الخليل، أقصد النكتة التي لم تستطيعوا تقبّلها؟
ـــ لمّا المستوطن باروخ جولدشتاين أطلق النار على المصلّين في الحرم الإبراهيمي في الخليل وقتل ٢٩ خليلياً، قال واحد بعد عدة أيام من المجزرة، «كان من الممكن أن يكون عدد الضحايا أكثر بكثير لو أن باروخ لم يصوّب على رؤوسهم».
لم أكن قد سمعت بهذه النكتة من قبل رغم أن مجزرة الحرم الإبراهيمي وقعت عام ١٩٩٤. لم أضحك. المجازر لفرط ما تكررت أصبحت موضع تندر ضحاياها. وفي هذا الصراع غير المتكافئ مع الاحتلال المسلح بأحدث أسلحة العصر، يكره الفلسطيني الأعزل أن يبدو مثيراً للشفقة. يتسلح بالضحك، والسخرية حتى من الذات، والتهكّم على مأساته المتكررة دون ضوء قي آخر نفق الاحتلال. لم تعد السجون وأوامر منع التجول والإغلاقات المتكررة والاجتياحات مادة للشكوى المأساوية بين الناس. وأنا أحار فيما إذا كان التعوّد ضعفاً أم قوة. فإذا كان تعود الظلم ملمحاً من ملامح العبودية، فإنه في حالة وثوق صاحب الحق من حقه يصبح كَظْماً للغيظ ومراكمةً لعناصر قوّةٍ خفية. ومن علامات قوة المقهور السخريةُ من الأقوى، والاستعداد الصامت للرد في وقت ما، حتى وإن طال. أثناء هذا الصبر يمارس المقهور شهوة الحياة بكل الحواس.
لا أكذَبَ ممن يدّعي أن المقهور لا يفعل شيئاً بحياته وفي حياته إلا مقاومة القهر.
المقهور يتشبّث بأصغر المباهج المتاحة، إنه لا يفرّط بأي فرصة للحب والمرح ولهو الجسد ولهو الروح.
المقهور يسعى للظفر بالشهوات الغامضة والواضحة، مهما كانت نادرة، مهما عزّ عليه منالها، ومهما صعب إليها السّبيل.
طربتُ لحكاية جميلة فعلاً رواها لي في زيارة سابقة شاعرٌ شاب التقيته في مكتبة الشروق في رام

الله، عن فرحه العظيم عندما أعلنت مكبرات الصوت فجأة أمراً من الجيش الإسرائيلي بإغلاق بلدته إغلاقاً تاماً ومنع الدخول إليها أو الخروج منها، وأنه كان، في سره، ممتناً أعظم الامتنان للجيش ويكاد يرقص فرحاً تلك الليلة، لأن الفتاة التي يحبها وهي إحدى قريباته، كانت في زيارة لأسرته، وسوف تضطر إلى قضاء الليلة كلها عندهم بسبب الإغلاق ومنع التجول، دون أن تخشى اللوم من والديها. في اليوم التالي، عندما رفع منع التجول، وفتحت الحواجز، ابتهجت القرية طبعاً، وابتأس صديقي العاشق.
رغم ذلك أتمنى أن لا يستمر الخليلي في رواية النكت. تضحكني الطرفة التي تلد تلقائياً في سياق الحديث لأنها تدل على خفة الدم وسرعة البديهة أكثر من النكت المحفوظة. على أي حال ها هو يتوقف لحسن الحظ، ويسكت طوال الطريق.
تتسلق السيارة مرتفعاً خفيفاً ثم تستوي على الشارع المعبّد.
أفكر في تبادل الحديث مع الشاب الحزين بجواري وأعدل عن الفكرة بسرعة.
السائق محمود يبدو مرتاحاً الآن على الشارع السلس، يبحث في أزرار راديو السيارة، فجأة، يغلق الراديو ويلتقط هاتفه النقال:
ـــ طيب طيب شكراً.
يخفف السرعة دون أن يشرح لنا شيئاً.
ينظر يميناً ويساراً قبل أن يهبط عن الشارع إلى حقل مجاور ثم يستدير إلى الخلف.
لم تدم متعة الأسفلت أكثر من بضع دقائق.
يقطع مسافة قصيرة أخرى، ويشرح لنا الأمر:
ـــ أفلتْنا من حاجز طيار. لماذا تعبس يا حاج؟ تفاءلوا بالخير تجدوه. كل عقدة ولها حلاّل.
ـــ كله على الله يا ولدي.
ـــ هل سترجعنا إلى رام الله؟ أنا طيارتي الليلة وإذا ضاعت علي أفقد المنحة وتضيع عليّ الجامعة.
يقول الفتى الجالس بجواري بصوت مهذب، كأنه يحدّث نفسه رغم أنه يلمس بأصابعه كتف السائق ويستعد لسماع ما يطمئنه.
السائق يجيبه بصوت أبويّ رغم تقاربهما في العمر:
ـــ أنا عمري ما رجَّعت راكب مهما صار. بس ساعدوني إذا لزم الأمر. هذا كل ما أريده منكم. لا تخافوا. اضحك يا عمي وهوّن عليك. بدهم ايانا مشلولين ومرعوبين. هم مش عارفين إنا تعودنا. وانت يا صاحبي طيارتك لن تطير بدونك. أنا عمري ما رجَّعت راكب. اتكلوا على الله وعلَيّ. إن شاالله كله خير.
بعد دقائق يخرج مرة أخرى إلى طريقٍ ترابيّ.
لا أعرف هذه الطرق التي يسلكها محمود، ليس فقط لشحوب ذاكرتي الجغرافية في سنوات المنفى، فالحقيقة الحزينة المؤكدة الآن هي أنني لم أعد أعرف جغرافية بلادي، لكن السيارة في الحقيقة تخوض في الخلاء ولا علامة لوجود شوارع معبّدة أو إشارات مرور أو بشر، على مرمى البصر. إنها تسير في الحقول، ولا أدري كيف سيقودنا هذا إلى أريحا.
رُقَع مائية وحصى ونباتات برية متناثرة في ضباب أخذ يخف تدريجياً. على مرمى البصر أشجار زيتون ضخمة مُقْتَلَعة من قراميها، ملقاة كجثث مُهانة في العراء. أقول هذه الأشجار قتْلَى، وهذه

البرّيّة قبرها الجماعيّ المفتوح. وراء كل شجرة زيتون تقتلعها الجرّافات الإسرائيلية ثمة شجرة أنساب لفلاحين فلسطينيين تسقط عن الحائط. الزيتون في فلسطين ليس مجرد مِلْكية زراعية، إنه كرامة الناس، هو نشرة أخبارهم الشفهية، حديث مضافاتهم في ليالي السمر، بَنْكُهُم المركزيّ ساعةَ حساب الربح والخسارة، نجمُ موائدِهم، ورفيقُ لقمتهم. هو بطاقة الهوية التي لا تحتاج إلى أختام ولا صوراً ولا تنتهي صلاحيتها بموت صاحبها، تظل تدل عليه، تحفظ اسمه وتباركه مع كل حفيد جديد وكل موسم جديد. الزيتون هو الثمرةُ نفسها، الحبة الخضراء بكل درجات الأخضر، أو السوداء بكل درجات الأسود، أو ذات اللون العنّابيّ المصقول، لوزيّة أو مستطيلة أو بيضاوية أو كُرويّة، هو وصْفاتٌ وفنونٌ ومذاقات: الرصيص والمملوح والمكمور والمشطب والمحشو باللوز أو بالجزر أو بالفلفل الأحمر الحلو. الزيتون هو المكانة بين الناس وهو موهبتهم. موسم قطافه في الخريف الساحر يحوّل رجال القرية ونِساءَها وأطفالَها إلى شعراء ومُغَنّين وزجّالين، يرفعون بإيقاعاتهم العمل المرهق إلى مصاف النزهات البريّة والفرح الجَماعيّ. هو الزيت المعصور في القفف الليفيّة الهائلة الحجم، سائلاً حائر اللون بين الأخضر البَرّاق والذهبيّ الغامق، مِن قَطْفَةِ عصيره البِكْر يتبادلون أفصح الهدايا، وفي جِرارِه المصطَفَّة في أحواش الدور، يخزنون هدوءَ بالِهِم، والأساسَ الذي لا غنى عنه لقُوتهم كفاف يومهم، إن اعتلّ أحدهم فالزيت دواؤه أيضاً يدهنون به مواضع الألم فيسكن، (أو لا يسكن، لكنهم هكذا يظنّون). من أواخره يصنعون الصابون في أحواش البيوت، أو يوزّعونه على الدكاكين: «صابون الشكعة»، «صابون طوقان»، صابون «نابلسي حسن شاهين» وغيرها. من أخشاب أفرعه وعيدانه الناتجة عن التقليم الموسمي ينحتون التُّحَف والمُجسّمات الخشبيّة البديعة للمساجد والكنائس والصُّلْبان، ينحتون بكل إتقان لوحة العشاء الأخير والمذْوَد ومشهد ميلاد المسيح، وتماثيل صغيرة للسيدة مريم العذراء، يصنعون علب الأرابيسك بأحجامها المختلفة المكسوّة بأصداف البحر الميت، والعقود والمسابح، والخيول وقوافل الجِمال، ينحتونها في مَلاسَةِ العاج ولمعانه وصلابته المدهشة. ومن نَوى الزيتون المجروش يستخرجون «الجِفت» الناعم وقوداً لمواقدهم إلى جانب الفحم أو بدلاً منه، يشوون على ناره المطْمَئِنَّة حبّات الكستناء في مربعانيّة الشتاء، ويتركون بَكْرَج القهوة يغلي على مهله هادئاً، رائقاً، وسط انهيار جبال الرعد في الخارج ثم تكوُّنها من جديد، لتنهار من جديد، يسبقها البرق المتردد تارة، والحاسم تارة أخرى، بين مَكْر دعاباتهم وتندّرهم على أحوالهم القاسية، والتفنن في النميمة، ونظرات الغَزَل التي تمتزج فيها الجرأة بالحياء إذا ضمت السهرةُ ولداً وبنتاً في زيارات الأقارب أو الجيران. من لا يفضّل القهوة منهم له إبريق الشاي الأزرق وأوراق الميرمية بعطرها الجبليّ المدوّخ.

أقول هذه الأشجار قتلى. وهناك، في مكانين مختلفين، في اللحظة ذاتها، فلاح فارغ الكفَّيْن وجندي ممتلئ زهواً. هناك، في غرفة الليل ذاته، فلاّحٌ فلسطينيّ يحدّق في السقف، وجنديٌّ إسرائيليّ يحتفِلْ.

الرذاذ يتواصل.

الطريق يزداد وعورة.

أكتافنا تتلامس مع كل اهتزاز.

السيدة المنقبة تلتصق أكثر فأكثر بباب السيارة وقد جعلت حقيبة يدها عازلاً إضافياً بينها وبين جارها الشاب لتزداد اطمئناناً.

لم يتحدث أي منا في أي موضوع.
الكل مشغول بسلامة الوصول دون أن يبدو على أحد أنه مشغول بسلامة الوصول.
الأمر هكذا دائماً: كما يبرهن السكران سكره بإنكاره تماماً فإن إنكار الجماعة لخوفها هو برهان عليه.
فجأة يتوقف كل شيء.
الآن وقد غرزت السيارة في الطين، يوقف محمود المحرك على الفور لئلا يغوص الإطار أكثر فتتعقد الأمور.
ننزل لمعرفة ما الذي حدث.
يبدو الأمر بسيطاً والمشكلة يمكن حلها.
— دَفعة صغيرة يا جماعة.
نتجمع متراصين خلف السيارة، ندفعها معاً في محاولات متلاحقة قبل أن ننجح في زحزحتها، أقنع نفسي أن دوري فعال في دفع السيارة بينما أنا أعتمد على همة الآخرين الواضحة إذا ما قورنت بما أبديه من قوة. يدهشني عدم تقاعس الشيخ وعزم الشابة وتحمسها، هي وحدها التي تقوم بعملها بمرح طفولي وتشجعنا في الوقت نفسه بنداءاتها العالية:
— ياالله يا شباب، الهمّة يا شباب.
فيجيبها الشيخ، سعيداً بأن لفظ الشباب يشمله أيضاً:
— الله يديم شبابك يا بنت العم.
الرجل البدين يبدو أكثرنا تفانياً بسبب صعوبة ما يفعل، أما الريفي الغائص في مقعده فيثبت بالدليل القاطع أنه قصير جداً بالفعل. أكتم ضحكتي إذ أتذكر «صبحي الفار» ذلك الفلاح من دير غسانة، الذي عاد من بيادر القرية ليبشر رجال المضافة بوفرة محصول القمح تلك السنة وصاح بفرح زائد:
— محصول القمح السنة فيه البركة، ما شا الله عليه، طولي بالضبط.
فقال له «أبو عودة» صاحب اللسان الفصيح وملك النوادر في المضافة، ملمحاً إلى قصر قامة الرجل:
— الله يرمّل مَرَتَكْ يا صبحي يا ابن الفار، إذا كان طول القمح طولك يعني متنا من الجوع هذه السنة!
ينطلق محمود أمتاراً بالسيارة ويتوقف بانتظارنا. ننادي على السيدة المنقبة لتلحق بنا فقد كانت انتحت جانباً أثناء عملية الإنقاذ.
الطين عالق بملابسنا وأيدينا وأحذيتنا، محمود يُحضر من صندوق السيارة جالوناً صغيراً من الماء.
— تفضلوا بالدور، تفضلي يا أخت، اتفضل يا حاج، اتقضل يا أستاذ.
يسكب الماء بحساب ونحن واحداً بعد الآخر نغسل أيدينا. يقدم لنا قطعة قماش من داخل السيارة نستخدمها في محاولة لإزالة بعض ما علق بملابسنا من بقع طينية ونستهلك علبة مناديل ورقية في تجفيف وجوهنا.
ما زال الوقت نهاراً. لكن الحقيقة أن المشهد مسائيّ، بسبب كثافة الضباب في الوادي. لا بد أنّ نظر محمود أفضل من ٦/٦ ولا شك أن التزامه بقلة الكلام يساعده على تركيز قوته البصرية إلى

حدها الأقصى. ها هو يهمس أنه لمح دبابة إسرائيلية مختبئة وأن علينا التوقف قليلاً حتى نرى إن كانت ستمضي في سبيلها.
نتوقف فعلاً.
يقرر بعد دقائق أن الخطر زال.
نواصل طريقنا.
أقول لنفسي: يمكن للماشي أن يقطع هذا الوادي على قدميه، يمكن للخيول والبغال أن تتدبر أمرها لاجتياز هذه التعريجات الوعرة، لكن كيف تستطيع ذلك سيارة تكسي قديمة تحمل سبعة ركاب بحقائب سفرهم، يلاحقها الضباب والمطر وجيش «الدفاع» الإسرائيلي بكمائنه السرّية خلف الأشجار؟ أقول هذا الشاب الفلسطيني يحاول صنع معجزة صغيرة دون أن يدري، يمارس بطولة لا يعي أنها بطولة. هو سائقٌ موظف، يريد أن يتقن عمله الروتيني الذي يتقاضى منه مرتبه الشهري. الآن هو قائد هذه الرحلة ولا يريد أن يخذلنا. نحن الآن شعبه الكامل العدد المكون من شيخ وامرأتين، سافرة ومنقبة ورجل قصير القامة وآخر بدين وطالب جامعي وشاعر يدهشه ما يرى ولا يريد خدشه بالكلام.
سألت نفسي ماذا لو كنت مكانه؟
هل أستطيع أن أكون قائداً لهذه الرحلة؟
طبعاً لن أستطيع.
أنا كاتب. يعني أنا لا «أفعل» شيئاً. أليس هذا بائساً؟
أم أنني أسارع بلوم نفسي كعادتي كلما ساءت الأمور من حولي؟
كم مرة تمنيت لو أنني تعلمت صنعة ما، مهنة يدوية، أليس جميلاً أن يكون المرء ميكانيكياً، حداداً، مزارعاً، نجاراً، مهندساً، طبيباً أو حتى عامل بناء قوي العضلات يرتقي مع كل طابق إضافي إلى مرتبة أعلى، ويطل في النهاية على كسل المدينة من فوق، دون أي فضل من أحد، فهو الذي رفع إطلالته بعَرَق يديه، ورأى ما يراه الصقر، حتى وإن غادر مجده وطار منسياً بعد ليلة الافتتاح؟ رأتني أمي ذات يوم بَعيد، وعمري اثنا عشر عاماً ومعي أخي الأصغر مجيد نحمل فأسين نحاول أن ننكش حوض بصل أخضر في حاكورة البيت ونحن نلهث فقالت بابتسامة وهي تقف فوق درجات البيت:
ـــ ليس لكم والله يا أولادي إلا المدرسة، ستموتون جوعاً إذا حكم عليكم الزمان بأن تشتغلوا بأيديكم.
ثم هبطت الدرجات القليلة وأخذت مني الفأس وتناولت ضرباتها في الحاكورة ونحن نتفرج عليها. لا أدري بماذا أحس مجيد، أما أنا فأحسست بالغيرة والخجل. كنت في طفولتي أظن أني ضعيف العضلات لأني نحيل. سمعت أحدهم يقول إن البطاطا «بتنصِّح» فأخذت أبالغ في أكل البطاطا بكل أشكالها... ليشتد عضلي! وكلما سألتنا أمي سؤالها الصباحي ونحن نتجه إلى باب البيت في طريقنا إلى المدرسة:
ـــ ماذا أطبخ لكم اليوم؟
أدرت عنقي إلى الوراء وسبقت إخوتي صائحاً:
ـــ صينية بطاطا.
صدقتني مرة ومرتين ثم أصبحت تسخر مني، وأصبحتُ فريسةً سهلة لِتندُّر إخوتي. عندما نشرت

ديوان شِعري الأول أعجبني نحولي. كنت في نوبات غبائي (التي لم تطُل لحسن الحظ)، أستغرب «صحة» بابلو نيرودا لأنه يبدو مثل مُديري البنوك. كأنّ على الشاعر أن يبدو ذابل الجسم، نصف ميت، مخطوف اللون، كأنه ساقط في هُوَّة أو مسحوبٌ منها للتوّ! نحن الآن أمام «هُوَّة» حقيقية.
السائق يوقف المحرك.
ـــ انزلوا يا إخوان، سنرى ما يمكن فعله.
سننزل.
وسنرى:
نحن الآن على حافة قَطْع عرضيّ ممتد في الطريق، حوّلتْه الأمطار إلى خندق ضخم مرتجَل وموحِل، لا يمكن للسيارة اجتيازه إلا إذا حضر إله إغريقي من سماء الأساطير، قادر على تغيير المصائر، فيخرجنا من هذه الورطة الأرضية.
طريقنا الحالي اختلقه السائق اختلاقاً في هذا الوادي الرمادي، كان بإمكانه السيطرة عليه، نسبياً، ما دام طريقاً متصلاً، مهما تلوّى أو تعرّج أو ضاق، لكن الطريق انقطع الآن، لم يعد طريقاً. وهذا الخندق الغميق الممتد قادر فعلاً على ابتلاع عشرات السيارات.
قال الخليلي البدين:
والله لم ينحسكم غيري. أنا أصلاً منحوس. طول عمري منحوس. من بين ألف علبة حليب في السوبرماركت أختار واحدة وبالصدفة تطلع فاسدة!
حدثته عن «أبو وجيه» الذي كان حراثاً في بلدنا عندما رآه صديق له منهك القوى بعد حراثة حقل زيتون فسيح منفرداً وقال له:
بكرة بتهون يا عم أبو وجيه وبترتاح.
فأجابه قائلاً:
والله لو قامت القيامة ورحت على الجنة لن أرى الراحة. فلو أن في الجنة (أرض) تحتاج إلى حراثة لقال سبحانه قم يا أبو وجيه واحرثها، هل كنت تظنه سيطلب أن يحرثها له عبد الحليم حافظ؟
محمود لا يبدو عليه الاضطراب، بل يبدو واثقاً وهادئاً، كأن آلهة الإغريق هم أولاد عَمِّهِ اللَّزَمْ!
ما هي إلا دقائق حتى ظهرت من بين الأشجار على الجانب المقابل من الخندق رافعةٌ عملاقة صفراء اللون تلمع تحت الرذاذ، فيها شابان نحيلان يرتديان ملابس بسيطة، يشير أحدهما إلى محمود بأن يستعد لترتيبات الإنقاذ.
في المستقبل، بعد سنوات من هذه الواقعة سأجتاز سيراً على الأقدام خندقاً مماثلاً عند حاجز سُردا بصحبة ضيوفنا من الكتاب الأجانب، حيث يقتضي برنامجهم زيارة جامعة بير زيت، سينطلق موكب سياراتنا من رام الله ليتوقف عند حاجز سُردا في منتصف الطريق إلى الجامعة. الجيش الإسرائيلي كان قد دمر هذا الطريق الجبلي صانعاً فيه ما يشبه خندقاً بطول ٥٠٠ متر أو أكثر قليلاً، لا يمكن اجتيازه إلا سيراً على الأقدام وبشيء من الصعوبة. على تلةٍ بجانب الطريق يوجد منزل كبير لأحد الفلسطينيين احتله الجيش وطرد سكانه منه وحوله إلى نقطة عسكرية لمراقبة كل شيء يتحرك، وغرفة عمليات تقرر إغلاق الطريق في أي وقت تشاء، وغطى واجهة المنزل كلها بقماش عسكري أخضر مخرّم تظهر من فتحاته مواسير الرشاشات المصوبة على المارين من الحاجز. تتوقفت السيارات التي حملتنا من رام الله، وننزل منها لنقطع الخندق سيراً على الأقدام.

أواصل حديثاً عن المسرح مع وولي شوينكا ونحن نحاول تجنب التعثر وبجوارنا يواصل الآخرون نقاشاتهم الأدبية والسياسية وأجسامهم تدنو وتتباعد حسب وعورة الجرف: ساراماغو وجواتيسولو وبرايتنباخ وكونسولو وبي داو ومحمود درويش ينقلون الخطى بحذر المسنين داخل ذلك الجرف ويردّون تحيات المارّين بجوارهم من طلاب وأساتذة وباعة متجولين، فهذا الخندق الوعر هو الطريق الوحيد لجميع المسافرين بين رام الله وكل قرى الشمال وهذا هو الوضع منذ عام كامل.
يشدني وولي شوينكا جانباً ليفسح الطريق لشاب يحمل فلاحة مسنّة على ظهره، ويسير بها في حذر شديد وهي تردد:
— الله يغضب عليهم دنيا وآخرة.
ثم تعيد غطاء رأسها ممسكة طرفه بين أسنانها حتى لا ينحسر تماماً عن شعرها الأبيض. سيدة أجنبية متقدمة في السن تمشي بجوار حمار آخر، في خُرْجَيْه حقيبتا سفر تتأرجح من إحداهما بطاقة «ديلسي» تدل على ماركة الحقيبة الفخمة. لم تتخيل مصانع «ديلسي» أن تنقل الحمير حقائبها هنا. بعد أمتار قليلة نفسح الطريق لحمار آخر تركبه امرأة حامل، يقوده ولد عمره سبع سنوات أو أكثر قليلاً، واضح أنه يتدبر رزقه بتأجير الحمار على الحاجز، يتلفَّت حوله مندهشاً من الوجوه الأجنبية في هذه البقعة من العالم. ساراماغو، وهو يتأمل المشهد ويتلفت إلى التلال وبيوت القرويين الفلسطينيين، وبنادق الجيش الإسرائيلي مصوبة علينا من بعيد، يقول بصوته العميق البالغ الوقار ل«ليلى شهيد»، سفيرتنا لدى فرنسا:
— ليلى، هذا يذكّرني بمعسكرات الاعتقال، الشعب هنا يعيش في معسكر اعتقال، إنه معسكر اعتقال حقيقي. هذا ما أراه.
بعد اجتيازنا الخندق نصعد إلى الشارع العام، نركب سيارات أخرى أعدتها إدارة جامعة بير زيت لتكون بانتظارنا عند الطرف الآخر لنكمل طريقنا إلى الجامعة.
الوضع مختلف تماماً هذا الصباح.
نحن الآن أمام خندق مماثل لحاجز سُردا، لكننا في سيارة أجرة، تحمل على ظهرها حقائب سفر كبيرة ومتوسطة وصغيرة الحجم، وبداخلها سبعة ركاب، ولا بد لهذه السيارة ذاتها أن تجتاز بنا هذا الخندق. هي ذاتها التي ستحملنا إلى أريحا، لا بديل لذلك في هذه البرية النائية. لا سبيل للعودة ولا تكسيات تنتظر على الجانب الآخر من هذا الشق الأرضي.
ينتبه محمود إلى ضرورة إحكام ربط الحبال حول الحقائب لمنع سقوطها أو سقوط بعضها أثناء عملية الإنقاذ. يأتي بحبل إضافي طويل، يعقد طرفه بإطار ظهر السيارة، يلقي به إلى الناحية الأخرى، يشده، يكرر لفّه بمساعدة الفتى الحزين الذي أسرع لمساعدته. لا ينهي الربط إلا بعد أن يطمئن تماماً. يأمرنا بالعودة إلى مقاعدنا داخل السيارة، ليقوم المنقذان بعملهما. نجلس، وننتظر.
تجيء تعليمات محمود:
— اربطوا الأحزمة. لا تخافوا. سنركب المراجيح!
ويضحك تشجيعاً لنا ولنفسه.
يتخذ مقعده خلف المقود بعد أن يتأكد من أن الأبواب محكمة الإغلاق.
لحظة صمت كامل تشمل الجميع، لحظة صمت تشبه صمت الشمعة، لحظة صمت تشبه تمرير رسالة بريدية من تحت الباب.
الآن يبدأ الهدير.

أنا أراقب ما يحدث كالمشدوه:
الذراع الضخمة الطويلة للرافعة تعلو تدريجياً في الفضاء حتى تصل إلى الارتفاع الذي قدّره قائداها. مفاصلها المعدنية تحتك وتصطكّ وتئزّ بين الحين والآخر وهما ينزلانها بالتدريج نحونا، يميلان بها قليلاً نحو اليسار ثم قليلاً نحو اليمين ثم بحرص شديد إلى الأسفل حتى تلامس السيارة تقريباً، ثم تطبق عليها بأصابع حديدية هائلة تحيط بجسم السيارة كما تحيط أصابع الكف بحبة رمّان، ثم ترتفع بها وبنا إلى أعلى ببطء مدروس. نحن الآن بين السماء والأرض.
بقعة الهواء المعلّق التي نتأرجح فيها الآن هي غربتنا نحن السبعة عن هذه الأرض. إنها إرادتنا المعطلة، وهي محاولتنا المشوبة بالشجاعة والخوف معاً لفرض إرادتنا بالتحايل والمكر. فقاعة الهواء هذه هي الاحتلال الصلب ذاته. هي التشرد الفلسطيني في هواء بلاد الآخرين. نلجأ من أرضنا إلى هواء الدنيا. نحن نغرق في الأعالي. نغرق إلى فوق. رحم الله سلفادور دالي الذي لن تخطر له هذه الصورة بعد موته. وهذه البقعة الهوائية العبثية هي أسلوب محمود في أن لا يهزمه أي أمر أو يرغمه أيّ عائق على إعادتنا فاشلين. هنا يصبح الانخفاض أمنيةَ مَن يعلو كما عَلَوْنا في تلك اللحظة. بريئة جدتي وهي تدعو لي في طفولتي وشبابي، «روح يا مريد يا ابن سكينة بنتي الله يعلّي مراتبك» أو «الله يعلّي مقامك بين الناس»، لم يصبح لي مقام «عال» بين الناس يا جدتي ولم ترتفع مراتبي في بلادي إلا بفضل هذا الوحش المعدني الأخرس. ألكثرة ما دعوتِ لي بالعلوّ استجابت لك السماء هكذا ساخرة منك ومني؟ أريد أن يهبط بي مقامي يا جدتي، أن أنزل عن «سموّي» هذا، أن ألامس الطين والتراب مرة أخرى لأستردّ صفة المسافر العادي. الاحتلال هو لحظات الوحشة هذه بين أرض البشر وسمائهم.
نحدق من نوافذ السيارة إلى الأسفل. إلى تحت. نعم إلى تحت. حلمنا الآن يا جدتي يحاذي أقدامنا. إننا نحدّق في هذه الهاوية الآن والهاوية تحدّق فينا. صرير الرافعة وأزيز مفاصلها المعدنية يخفت ويعلو ونحن نبتعد عن الحافة المتروكة وندنو من الحافة المشتهاة في الجانب المقابل.
الرافعة تتراجع قليلاً إلى الخلف.
ذراعها الطائرة بنا في ضباب الوادي تحاول أن تنقلنا بحذر من حافة إلى حافة، تتراجع أكثر وتتوقف.
هكذا نصل.
تبتعد الأصابع المعدنية عن جسم السيارة، تتركها تلامس الأرض برفق.
الأرجوحة الميكانيكية تهبط بنا بسلام.
ننزل جميعاً وينضمّ إلينا الإلهان الإغريقيان.
يتعانق الجميع مع الجميع (باستثناء السيدة المنقبة التي انتحت جانباً بعيداً عن ازدحامنا العاطفي) نجد أنفسنا نصفق واقفين، كمن يحتفل بفوز عظيم.
ـــ شكراً يا شباب، الله يعطيكم العافية.
محمود يدير أكواب القهوة على الجميع، القهوة وتوقيتها مرة أخرى. خفَّتْ سخونتها بعض الشيء لكنها ظلت طيبة المذاق فقد أصبح لها الآن مذاق المكافأة على عمل متقن. أستمتع بسيجارتين أشعل ثانيتهما من الأولى وأشارك الخليلي ومحمود والمنقذين متعة حماية سجائرنا من الرذاذ.
الرجل المسن يبتعد عنا دون استئذان، يختفي وراء شجرة قريبة لدقائق قليلة، يعود بعدها ويده تغلق إبزيم حزامه الجلدي، معتذراً بحياء واضح عن تسببه في تأخيرنا:

ـــ لعنة الله على السكّري يا خال. لا تواخذوني يا جماعة، أخّرتكم.
يتمنى لنا المنقِذان الغامضان رحلة موفقة في باقي الطريق. يعيدان الرافعة إلى مخبئها وراء الأشجار، ربما بانتظار مهمة إنقاذ أخرى. أو تمهيداً لعودة سريعة إلى قريتهما حتى لا يكتشف الجنود أمرهما.
يدور المحرك من جديد.
تنطلق سيارتنا في الوادي.
بعد فترة من التقافز والاهتزاز يباغتنا حرير الإسفلت، ننظر إلى بعضنا في ارتياح وفرح كأننا حققنا أملاً. كأننا انتصرنا على أحد ما.
قد يكون الشعب الخاضع للاحتلال من أكثر الشعوب رهافة واستعداداً لإظهار مشاعر الفرح. وهذا مخالف تماماً لصورة الفظاظة والقسوة التي يرسمها له عدوه وأجهزة الإعلام الشغوفة بالتنميط. تحت الاحتلال تهتز مشاعر الإنسان بالسرور الحقيقي لمجرد حصوله على أنبوبة بوتاغاز، أو ربطة خبز، أو تصريح مرور، أو مقعد في الباص. يفرح لوجود حبة الضغط في الصيدلية، ولوصول سيارة الإسعاف قبل أن يموت مريض يخصّه، يسعده وصوله سالماً إلى البيت، تسعده عودة التيار الكهربائي، يطربه تمكنه من المشي على الشاطئ، يرقص لأتفه فوز في أي مجال حتى في لعب الورق. هذه الهشاشة الإنسانية في أرقّ صورها تتجلى بأبعاد أسطورية في صبره الطويل عندما يصبح الصبر وحده مخدّات ليّنة تحميه من الكابوس.
أنظر إلى الشارع المزفّت فيقفز إلى رأسي بيت واحد من قصيدة لمحمد مهدي الجواهري الذي عاش الدكتاتورية والاحتلال معاً في تاريخ بلده العراق:
يا دجلةَ الخَيْرِ قد هانَتْ مَطامِحُنا
حتى لأَدْنى طِماحٍ غيرُ مَضْمونِ
أي والله أيها الشاعر.
ألم يكن أقصى طموحنا في هذا الصباح المبارك الوصول إلى «الزفت»؟ إلى الأسفلت؟
هل تخيلتَ يوماً أن يكون «الزفت» طموحاً يا أبا فرات؟
هل تخيلتَ يوماً أن شارعاً معبداً بالزفت يصبح حلماً من أحلام الشعوب؟
عليك أن تتخيل يا أبا فرات.
لا بد أن تتخيل.
وإلا فما معنى الاحتلال؟
نحظى ببضعةِ كيلومتراتٍ ناعمةٍ على الطريق، نحظى بطموحنا، وتظهر في المدى أطراف أريحا. في المستقبل سيشرح لي أصدقاء وأقارب ممن تعودوا التنقل بين فلسطين والأردن عبر الجسر أن ما وقع لي في رحلتي الغريبة أمر متكرر ومألوف وخصوصاً حكاية الرافعة التي تنقذ السيارات العالقة. الإسرائيليون يعرفون أننا في أيام الإغلاقات نسلك طرقاً التفافية تجنباً لحواجزهم فصاروا يقطعونها بالديناميت وبالجرافات لتكوين قنوات وخنادق وجروف لا يمكن للسيارات اجتيازها. فما الذي حدث؟ اخترع القرويون والرعاة القريبون هذه الطريقة ليفيدوا ويستفيدوا. يستأجرون من إحدى الورش هذا الونش العملاق ذا الشوكة ويأخذون مائة شيكل من كل سيارة يقومون بإنقاذها. حقهم. تعبهم. المهم أن كل عقدة يضعها الاحتلال يخترع لها اليأس الفلسطيني حلاً.
يجيء صوت محمود:

— من هون لأريحا، لا جيش ولا حواجز ولا ونشات ولا مراجيح في الهوا. الحمد لله على السلامة يا جماعة.
الرجل المسن يقول ضاحكاً:
— والله وركّبتوني المراجيح على كَبَر يا اولاد. عمري ما تمرجحت إلا اليوم. كنت أدوخ من منظر دولاب الهوا وأستغرب كيف يركبه الصغار. صرنا فُرجة أي والله. الله يهدّها عليهم يا رب.
أردت أن أقص عليه كيف، في عاصفة عاتية، عَلِقَ «تميم» وصديقه «زيد» على قمة دولاب الهواء في مدينة ملاهي الأطفال في بودابست وكيف تم إنقاذهما، لكني لم أجد ذلك مناسباً لما نحن فيه، هذا ثانياً، أما أولاً، فلأنني تعودت أن ألتزم الصمت إذا كنت في سيارة أو حافلة أو طابور انتظار بين أناس لا أعرفهم، والمرء لا يعرف إلى أي جهة قد يرسله الحديث مع رفاق سفر غرباء. قد يكون سؤالك، أو جوابك عن سؤال، مُحرِجاً أو خطراً أو قد يستفز ذكرى مؤلمة. هكذا أقنعت نفسي منذ زمن بعيد. وفي ظروف الاحتلال قد تجد نفسك تعرف ما لا ينبغي أن تعرفه، ومن منا يدري أين يجرّه لسانه؟ قد تبدي إعجابك بالمقاومين والمطاردين في الجبال المطلوبين لإسرائيل وتحكي قصة واحد منهم تعرفه بحكم القرابة أو الصداقة أو الجيرة، ويكون محدثك أحد العملاء الذين جندتهم إسرائيل وهم للأسف بالآلاف، واشترطت إسرائيل (ووافق مفاوضونا الأذكياء) أنه ليس من حق القيادة الفلسطينية معاقبتهم أو مطاردتهم أو حتى محاكمتهم، هم يسرحون بيننا وبعضهم معروف للناس، وإنك قد تجد مجلس عزاء لشهيد بينما ابن خالته مثلاً أو ابن عمه أو صهره «العميل» يتلقى العزاء في قريبه «البطل» بحكم الروابط العائلية الريفية، ويكون حزن العميل على الفقيد أصيلاً أيضاً. حدث هذا بالفعل في دير غسانة كما أنه حدث ويحدث في سواها من القرى. المحاذير الأخرى عديدة كأن تفسد على نفسك وعلى غيرك الجو بنكتة لا تُضحِك، كما فعل الخليلي. وهذه الاحتمالات كلها لا تفسر ولا تبرر موقفي فهو لا يمكن تبريره. والمؤكد في كل الأحوال أن عزوفي عن الكلام يجعلني أبدو انعزالياً عن الناس وربما يتهمني البعض بالتعالي الذي لا يليق بشخص له قضية، ولا أملك دفاعاً عن هذا العيب ولا أبرره. عيب الإنسان الأكبر هو إنكار عيوبه، ودفاعه المستميت عنها. كما أن انعزاليتي تتسبب في خسران صداقات جميلة قد تنطوي عليها رفقة الأسفار في الظروف العادية. لكن الاحتلال لا يسمح أبداً ب«الظروف العادية». الاحتلال يفسد المسافات الطبيعية بين البشر كما يفسدها بين الأماكن.
أسرح متأملاً هذه الفكرة التي وردت بخاطري، وسأتأملها بعناية في وقت لاحق.
عندما يرتفع الإنسان عن الأرض فإن شيئاً من الوحشة والعزلة يخالط هذا السمو المفاجئ. هذا يحدث لأي سبب حتى ولو في أرجوحة أو في مصعد كهربائي أو طائرة؛ هكذا يلد تفكيري في وحشة السائق محمود المنتظرة وقلقي عليه.
هنا يولد في رأسي سؤال سيظل يشغلني لسنوات بعد ذلك: كيف سيعود محمود وحده إلى رام الله في هذه الظروف العجيبة؟
ألا يفكر في أنّ مخاطر هذه الطرقات الموحلة المحطمة ستكون بانتظار عودته إلى أهله بعد يوم عمل، كان يفترض أن يكون عادياً، ولم يكن عادياً على الإطلاق؟
هل سيعود اليوم؟
هل سيقضي ليلته في أريحا انتظاراً لصباح الغد؟
وماذا لو دام الإغلاق أياماً؟

أنا معجب باتزانه وحسن تدبيره، بل إن سلوكه وحيويته وشبابه وثقته تورطني الآن في نوبة تفاؤل بأن الفلسطينيين هم الأقوى في هذا الصراع الطويل مع الاحتلال. كل ما أريده الآن هو الاهتداء إلى وسيلة أشكر فيها هذا الفتى دون أن أجرح فعله بكلام يقلِّد الكلام.
في لحظة معانقته لي أقرر أن الصمت هو أفضل ما لديّ.
في أقل من ثانية أطرد فكرة عابرة بتقديم مال إضافي لهذا الشاب.
أتأمل مفارقة عجيبة: قد يدخل المرء بسهولة في مشاجرة مع خصم وقد ينزلق بلا تفكير إلى التلفظ بأبذأ الكلمات التي قد يندم عليها بعد حين، لكنه يجد صعوبة عند اختيار كلمة طيبة للثناء على صديق، فبعض الشكر يبخس الفضل أحياناً. وهذا ما أخشى ارتكابه الآن.
أنا أغار من عزمه وقدراته، وأنا معجب به إلى درجة االاعتزاز. ولا يمكنني أن أقول له ذلك لأن في العبارة مسحة من التعالي أو الأبوية أو التراتبية التي تلغي التساوي الإنساني. وهل يمكن أن أوصل له هذا الاعتزاز... بالبقشيش؟
وأنا قلق عليه.
أفكر أن أقول له «دير بالَكْ على حالَك» ولا أقولها.
هذه العبارة المحببة الحنون، هي أجمل ما يمكن للمرء أن يسمعه من شخص يعنيه عند الوداع. تقولها لي أمي كلما خرجت من البيت، كلما سافرت، كلما غبت في مهمة أو عمل. «دير بالك على حالك».
كيف أدير بالي على حالي يا أمي؟
إذا أراد حاكم عربي اعتقالي فهو بلا شك سيعتقلني.
إذا أراد شرطي ركل خاصرتي وكبدي بقدميه فهو بلا شك سيركلني.
إذا أرادت دولة عربية شقيقة محترمة «ذات سيادة» أن تمارس سيادتها ضد جسمي النحيل أو ضد كلماتي العادية لتطردني بحذائها المُسْتَوْرَد فإنها ستطردني.
وأريد أن أقول له «الله معك» فأضحك فوراً لطرفة لا تنسى حول مؤازرة الله للفلسطينيين بين تكرار «الشيخ قيصر» مؤذّن مسجد دير غسانة أن الله لا يقف معنا «لأننا ابتعدنا عن دينه»، وبين تعليق الحاجة «أم نبيل»، حول هزيمة العرب في عام ١٩٦٧ وانتصار إسرائيل على مصر وسورية والأردن في ستة أيام (هي في الحقيقة ست ساعات)، عندما صرخت بأعلى صوتها رافعة ذراعيها في وجه مراسل صحافي لا تعرف لغته، وهي تكاد تفقد عقلها:
ـــ لا نفعتنا صلاة ولا شفع لنا صوم يا بنيّي، سبحانه طلع لابس برنيطة وشورت، وناقصه يجدِّل السوالف.
ثم تدرك أن السخط ورَّطَها في عبارة شائكة تتناقض مع تديّنها الفطري فتتمتم قي سرها:
ـــ أستغفر الله العظيم، الواحد قرَّب يكفر.
لا أقول لمحمود شيئاً. أقول لنفسي: سأكتبه. سأكتب السائق محمود. سأسجل ما فعله بالضبط. كما فعله بالضبط. سأكتبه. هذا واجبي. أنا كاتبٌ وهذا عملي. قام هو بعمله، وذات يوم سأقوم أنا بعملي أيضاً. وها أنا أفعل.
نصل إلى استراحة أريحا.
ننزل حقائبنا، يدفع كل منا الأجرة لمحمود، مضافاً إليها نصيب كل منا من أجرة الرافعة المباركة.
حافلة الجسر واقفة بانتظار ركاب يملأون مقاعدها. نضع حقائبنا في الحجرات المخصصة لها

أسفل الحافلة.
نودع محمود.
يصافحنا متمنياً لنا رحلة طيبة إلى عمان.
أقف في طابور غير منتظم يتدافع فيه الناس، في انتظار ختم أوراقي.
في الطابور الطويل المجاور أرى السيدة المنقبة ترفع النقاب بتردد عن وجهها والشرطية الإسرائيلية تقول لها ارفعيه كله فتفعل. واضح أنها تريد للكاميرات الأمنية أو للضابط الجالس في الكابينة العليا خلف الزجاج المدخن أن يتعرف على وجه المسافرة بوضوح.
يتزاحم المنتظرون محاولين تخطي بعضهم وسط احتجاجات المتقدمين في الطابور على مضايقيهم. يعلو صوت رجل قصير القامة أصلع:
— يا جماعة صفّوا بالدور. عيب عليكم، خلينا نخلص.
ولكن لا حياة لمن تنادي.
يلاحظ الضابط الإسرائيلي الجلبة، فيقف ويصرخ في الجميع أن يقفوا صفاً واحداً.
يقفون صفاً واحداً على الفور.
من نقطة الشرطة الإسرائيلية على الجسر إلى نقطة الشرطة الأردنية، علينا تبديل الحافلات، حافلتنا توصلنا إلى أرض ترابية تتناثر عليها حقائبنا بشكل همجي غالباً ما يؤدي إلى تلف أجزاء منها أو تناثر محتوياتها، واتساخها الأكيد في كل الحالات خصوصاً في الأيام الماطرة، وعلينا النزول مسرعين متزاحمين بشكل مثير للاشمئزاز كقطيع آدميّ تصاعدت أنانية أفراده إلى حد تجاهلهم المسنين وثقيلي الحركة والمهذبين، ليعثر كل راكب على حقيبته الملقاة وسط كوم عشوائي، ليضعها بيديه في الحافلة الجديدة التي ستقطع مسافة قصيرة إلى نقطة الشرطة الأردنية.
يصيح شخص أُدرِكُ مِن لهجته أنه نابلسي:
— محمد، معك وضوء؟
— آ يابا، متوضّي الحمد لله.
— طيب يالله نخطف صلاة العصر.
— إنت سمعت الأدان يابا؟
— الله يقصف عمرك شو أهبل. هو في حدا بيأذّن هون؟ في إيدك ساعة قد ساعة الحيط والصلاة صار ميعادها.
بين الحقائب المتناثرة يقف النابلسي وابنه للصلاة فينضم إليهم عدد من الركّاب الذكور فنضطر جميعاً لانتظار انتهائهم من الصلاة، إنها ظاهرة جديدة، أقصد هذه «العلنية الإسلامية» في المجتمع.
نجلس في الحافلة الجديدة بانتظارهم ثم نمضي نحو نقطة الشرطة الأردنية. نصل. يصعد شرطي أردني، يجمع الهويات وجوازات السفر من كل الركاب ويغادر بعد أن يأمر سائق الحافلة بإبقاء الأبواب مغلقة علينا إلى حين تلقيه إذناً بفتحها من المسؤولين بالداخل.
في الصيف تصل حرارة الجو ورطوبته في هذه البقعة من العالم أقصى ذراها، وقد تصل الخمسين درجة مئوية، وإن كانت هيئات الأرصاد الجوية تبقيها في حدود الأربعينيات القصوى لسبب لا أعلمه. نحن الآن في الشتاء والانتظار لا يضير، لكن تكرر الانتظار كل حين هو المزعج. في هذا الانتظار أيضاً أدخل في صَدَفَتي.

أغدو وحيداً مع أصوات ومشاهد وعلامات استفهام وعلامات تعجّب تخصني.
كأنّ مخزناً هائلاً مهجوراً يفتح أبوابه لي، أو كأني أصبح مُتْحَفَ نفسي وزائره الوحيد وقد نام الحراس وأُغْلِقَت عليّ الأبواب.
ألوم أفعالي أو قِلَّتَها أو انعدامها أو انعدام جدواها، أواجه عيوبي كما يفعل بطلٌ مسرحيّ شجاع، أو أختلق لنفسي المبررات والأعذار المنافقة كأي جبان.
أصبح قاضياً صارماً لا يقبل التواطؤ مع الذات أو الحبيب أو القريب وفي نفس اللحظة أصبح القاضي المرتشي المتهاون الذي ينسحب من الصعوبة إيثاراً للراحة.
أفتح عينيّ الصغيرتين على ما استقرّ في جسدي من أمراض «المثقفين».
أقول لست إلا شاعراً فلماذا عليّ أن أنتظر على كل أنواع الحدود؟
لماذا لا أستطيع أن أتحمل ما تتحمله الجدات البدينات والحراثون الشباب بوجوههم النحاسية الوسيمة وما يتحمّله الأطفال الذين «تعودوا» على الاحتلال حتى ... أحرجوه؟
أسمع صوتاً بداخلي يعلن اشمئزازه من رخاوة بعض الشعراء والكتّاب وشكواهم الدائمة، أشعر أنني في النهاية شخص سيئ إذا قورنت بأصحاب التضحيات الصابرين.
أقول لنفسي: ما مِن كاتِبٍ يَسْتَحِقُّ مجداً بينما شَعبُه يتعذّب، حتى لو كان أفضلَ مَن يُعَبِّرُ عن هذا العَذابْ. قد يكرّمه الناس لأنهم يقدرون موهبته أو دوره، لكنه يخطئ لو شعر أن هذا حق مفروغ منه.
أقول ليتني كنت قطاراً. القطار لا ينتظر من لا ينتظره، أو مزارعاً فالمزارع لا ينتظر إلا المطر، وهذا أسهل من انتظار تحرك هذه الحافلة قبل أن أفقد صوابي.
أريد أن أصل إلى البيت.
أريد أن أنام.
يسمح لنا الشرطي الأردني بالنزول من الحافلة. نتجه إلى حاجز الجوازات ثم إلى حقائبنا ثم إلى الشارع.
عمّا قليل، يدخل الوقت في الغروب. سأكون في بيتنا في الشميساني قبل موعد نوم أمي.
عندما أجتاز الجسر وأدخل الأراضي الأردنية تحل في جسدي السكينة، أستعيد الشعور بأن الأمور عادية على الأقل، أصبح مسافراً مطمئناً أستطيع التلهي بمشاهدة الأشجار الراكضة بجانب السيارة وتأمّل حقول الموز وأزهار الدفلى والشوارع الخالية من نقاط التفتيش والحواجز وأبراج الحراسة.
تبدو الأردن للخارج من فلسطين المحتلة نِعمةً حقيقية. لا حواجز ولا توقيف ولا مستوطنين ولا دبابات. هنا تستطيع أن تقيس المسافات نفس القياس دائماً، تعرف كم دقيقة بقي لك لتصل من مكانك إلى أي مكان آخر. آخذ سيارة إلى عمان، أريد أن أخلو بنفسي. أريد أن أستعيد هذه الرحلة من بدايتها. أمامي نصف ساعة حتى أصل. أضع شريحة رقمي الأردني في هاتفي النقال وأتصل برضوى في القاهرة:
ـــ أخيراً أنا في طريقي إلى الشميساني.
ثم أتصل بالوالدة في عمان.
ـــ شو عندك عشا يامّه؟
في الصباح، يتناثر القتلى والجرحى بالمئات.
شاشات التلفزيون تتلون بالأحمر، تكاد تفلقها قذائف الدبابات التي تدكّ الحياة بلا انقطاع. الثياب

الأمومية الطويلة المطرّزة تميل على وجوه القتلى، وأذرعهنّ تهز الأجساد المسجاة لعلها تبعث حية ولو من أجل الوداع، الأيدي تسبق الشفاه في المناداة على من لن يسمع صوتاً لأم أو أخت أو جدة، ولن يردّ نداءً، إلى الأبد.
كل نشرات الأخبار تبدأ بأنباء اجتياح الجيش الإسرائيلي لرام الله.

الفصل الثاني الأب والابن

حانت اللحظة. ودّعتْنا رضوى في مطار القاهرة، عانقَتْ تميم، عانقَتْني.
تَعانقْنا نحن الثلاثة ثابتين في مكاننا كأننا قاعدة رخامية لنافورة هادرة يريد ماؤها ملامسة السماء فتسترده الأرض بعنف الجاذبية.
توقفنا للحظة.
كأن أحداً منا لا يودّ مغادرة المكان.
— طمنوني أولاً بأول.
— اطمئني. تميم سيدخل ويحصل على الهوية في أسرع وقت إن شاء الله ويرجع لك وإلى جامعته سالماً غانماً.
— بالسلامة. سلموا لي على «ماما ام منيف» كتير.
— سنتصل بك فور وصولنا إلى عمان.
إنها بداية الرحلة من القاهرة إلى عمان ومنها إلى الجسر مرة أخرى.
منذ اجتزته بعد ثلاثين سنة من المنفى عام ١٩٩٦ سوف أجتازه مرات كثيرة بعد ذلك، بسهولة حيناً وبصعوبة حيناً آخر. سوف أرى جنوداً إسرائيليين لا تفارقهم الجدّيّة التي تصل إلى حد التجهم والنظرة الاستعلائية. سوف أرى بعضهم يمارس عمله باحتراف وظيفيّ كأنه مراقب جمركيّ لا أكثر. وسوف أرى في عيون بعضهم الآخر شيئاً من الارتباك، وأحياناً قليلة جداً أرى من يبتسم أو يبدي رغبة في المساعدة. لا تجانس في ملامحهم: وجه إثيوبي وآخر من بروكلين وثالث سلافيّ، ورابع يمنيّ والمشترك بينهم أنهم جميعاً مسلّحون. البعض من المجنّدات والمجنّدين الجدد المراهقين يبدو عليه الاندهاش من احتكاكه اليومي بمئات الأعداء من «العرب». لكن بنادق الجميع مهيأة للاستخدام عند أية لحظة. هم في مجموعهم يشكّلون كابوساً لكل عابري الجسر من الفلسطينيين. من الصعب الثقة بابتسامة شخص مسلّح هنا.
مشكلتنا مع اليهودي في هذه «الدولة اليهودية» كما يصرّ هو على تسميتها، أن ثلاثة أو أربعة أجيال فلسطينية لم تر من اليهوديّ إلا خوذته. لم تر هذا اليهوديّ إلا بالكاكي، ويده على الزناد. لم تره إلا قنّاصاً في نافذة، أو ضابطاً في دبابة أو مجنّداً على حاجز يقطع الطرق، أو حارسَ سجون يدقّ كعبه الحديدي أمام بوابات الزنازين وفي الممرات الطويلة الفاصلة بينها، أو يداً غليظة في غرف التحقيق، حيث يبيح القانون الإسرائيلي ممارسة ما يسمونه «الضغط الجسدي المعتدل»(!) على المتهمين لانتزاع الاعترافات. يسألني كثير من الصحافيين في الغرب الذين يتجاهلون الاحتلال الإسرائيلي تجاهلاً مدروساً وخبيثاً أيضاً إن كان الشعب الفلسطيني مستعداً حقاً للتعايش مع اليهود، فأردّ بأننا تعايشنا معهم طوال مئات السنين في فلسطين والبلاد العربية والأندلس، وأن أوروبا التي تلومنا وتحاسبنا هي التي لم تستطع التعايش معهم وهي التي أرسلت ملايين منهم إلى المحرقة بلا رحمة، لكن المطلوب منا اليوم، ومنذ احتلالهم العسكري لأراضينا، هو التعايش مع دبّاباتهم في غرف نومنا! أقول لهم دلّوني على إنسان واحد في هذا العالم يستطيع العيش مع دبابة في غرفة نومه.
ما تلوكه الكليشيهات أن الجسور علامة وصل واتصال وتعايش بين الناس، هذا الجسر علامة على

التفرقة والفَرْق والفُرقَة والفراق التاريخيّ بين المخيف والخائف، ومن الصعب أحياناً تمييز من منهما يخاف الآخر أكثر. هل معاني «الجسر» في القاموس أصابها العطب الكامل، فلم تعد تصلح لوصف هذا الجسر؟ هاجس الأمن الإسرائيلي يجعل هذا الجسر «فجوة» عظمى وهُوَّةً لها أسنان. كل شيء في إسرائيل محكوم بهاجس الأمن، إنها دولة ترى نفسها منتصرة دائماً وترى نفسها خائفة دائماً، وترى نفسها على حق دائماً. وهي منتصرة وخائفة منذ ستين سنة. وفي حالتي الحرب والتفاوض ظلت تتمتع علناً بتأييد القوة العظمى الوحيدة في عالم اليوم، والدول الأوروبية كلها، وتتمتع سرّاً بتواطؤ عشرين نظاماً عربياً مُنْحَطّاً معها، هذه دولة تملك أكثر من مائتي رأس نوويّ، تقيم أكثر من ٦٠٠ حاجز ونقطة تفتيش، تبني جداراً طوله ٧٨٠ كيلومتراً حولنا، تعتقل أكثر من ١١٠٠٠ معتقل، تسيطر على كل المداخل والحدود والمعابر المؤدية إلى بلادنا براً وبحراً وجواً وتسن القوانين استناداً إلى فلسفةٍ دائمة لا تغيرها انتصاراتها، فلسفة جوهرها خوف هذه الدولة القوية... مِنّا.

هنا دولة مخيفة حقاً. يصعد الطيار الحربي الإسرائيلي إلى سماء أية مدينة فلسطينية، ويقود الإف ١٦ أو الأباتشي المرعبة باطمئنان كامل كأنه يقود طائرة سويس إير، أو إير فرانس، مثلاً، ويبدأ في إلقاء قنابله العنقودية والانشطارية والفوسفورية ويوجّه صواريخه «الذكية» ضد أي هدف يشاء. تتمدد المدينة تحته كمرمى مستباح وكهدف مضمون. لا يملك الفلسطينيون مضادات لطائرات إسرائيل الحربية، الطيار يصبح سماء قاتلة ونحن نصبح أرضاً مقتولة. يعود الطيار آمناً إلى زوجته أو صديقته في تل أبيب يحدثها عن انتصاره على الفلسطينيين! ورغم ذلك تتصرف إسرائيل كدولة خائفة حقاً وتملأ الدنيا صراخاً بأن «وجودها» مهدد. هل توقّع أورويل تلويثاً للّغة أفظع من هذا؟

الجسر نقطة لقاء إسرائيل الإجباريّ مع الفلسطينيّ الخائف منها، لأنه فرد أعزل، لكن الآلة الدعائية الإسرائيلية تصوره كائناً «مخيفاً». هل تدرك قلة من الإسرائيليين أن المشروع الصهيوني كله أصبح في ورطة تاريخية؟ وأن مأزق إسرائيل يتفاقم عاماً بعد عام؟ وأن خوفنا منها الآن لا يعني انتصارها النهائي؟ إننا شعب سجين ولا جيش لنا ليحمينا. وأمامنا وقت طويل قبل أن نتخلص من الاحتلال. منذ قامت وهي تتسلح وتقتل وتعتقل وتجتاح وتصادر الأرض، لكنها هي الخائفة دائماً مِن.. مِن ماذا؟ ربما مِن ضعفنا وانعدام سلاحنا!

أفكر في ذلك وأقول إن زعماءنا «المعتدلين» الخائفين من الانتصار، والذين لا يعدّون له عدّته، هم من يعطي إسرائيل انطباعاً بأنها لن تعرف سوى النصر وأننا لن نعرف سوى الهزيمة. مَن يطلق عليهم الغرب صفة «المعتدلين العرب» هم ذلك النوع من الساسة الذي يفضّل أن يقضي عمره وهو ينتظر ابتسامة من دبابة الاحتلال الإسرائيلي. هؤلاء السياسيون حظهم سيئ لأن الدبّابة لا تبتسم. الدبابة أيها الأذكياء الحكماء الواقعيون لا تعرف الابتسام.

في المستقبل، بعد سنوات، سأدخل إلى رام الله في عربة إسعاف، دون أن أكون مصاباً أو في حالة صحية طارئة. سأرى على هذا الجسر وفي نقاط التفتيش العديدة وجوهاً وحالات وطرائف ومآسي عديدة. أما هذه المرة فإن مشاعري أكثر تركيباً واختلاطاً. قلقي موجع كالتعرّض لضرب متكرر دون فرصة للرد. نعم. هذا هو الوصف الدقيق: موجع. هل أوجعك القلق يوماً ما؟ وهو موجع أكثر لأن عليّ أن أخفيه، أن أدّعي عكسه، وأن أبدو واثقاً ومطمئناً إلى أبعد حد. فأنا الآن، هذه المرة بالتحديد، سأجتاز الجسر وبرفقتي تميم.

هذا يومه هو.
يوم ينتظره وننتظره رضوى وأنا، منذ أن قدّمْتُ له طلباً بالحصول على تصريح الدخول قبل سنتين. الآن تصريح دخوله في جيبي. تمنيت أن يكون دخولنا في أحد أيام الصيف حتى لا يضطر لترك دراسته في الجامعة وهو في السنة الرابعة، سنة التخرج الحرجة، لكن الأمر ليس بيدنا. الأمر دائماً ليس بيدنا. وإلا فما معنى الاحتلال؟
لم يبد على رضوى الاضطراب المفترض أن يصاحب وداعها لوحيدها في رحلة كهذه. أم أنها يا ترى تخفي اضطرابها تحديداً لأنه ذاهب لاسترداد فلسطينه الشخصية الملموسة التي ربّته على أنها له وأنه لها، مع كل ما يترتب على ذلك؟
ليس هذا ما هزّني وهي تعانقنا بحرارة استثنائية في مطار القاهرة، بل هزّني حرصها الصامت على أن لا تبدو الطرف «المضحّي» براحة البال في سبيل خطوة يهون من أجلها التعب، وتُحْتَمَل المصاعب.
في الطائرة المتجهة إلى عمّان أفكر في رضوى.
قرأت لها قصائدي الأولى على درج مكتبة جامعة القاهرة ونحن لم نبلغ العشرين من أعمارنا بعد، اشتركنا في جماعات أدبية في الكلية، لم يخطر ببالنا على الإطلاق أن انتباهاً شخصياً تكوّن أو يتكون بيننا. كنا طالبين «محترفين» نتحدث عن شؤون الدراسة ولا تتجاوزها إلى أي موضوع حميم. تقول لي ستصبح شاعراً فأجيبها وماذا لو فشلت في ذلك؟ وأقول لها ستصبحين روائية عظيمة وترد عليّ بالمثل فنضحك. استمرت اللغة «الأخويّة» والروح النِّدِّيَّة بيننا إلى أن انتهت سنوات الدراسة الأربع وغادرتُ لأعمل في الكويت. كنت أكتب لها ولأمينة صبري وأميرة فهمي رسائل منتظمة عن حياتي الجديدة في الكويت، فهذه هي شلّتنا طوال الدراسة. كنا أشبه بعائلة صغيرة، لكني اكتشفت أن رسائلي لرضوى تخلو من أخباري ووقائع حياتي وتقتصر على إحساسي الصامت بتلك الحياة.
عندما التقيتها في أولى زياراتي للقاهرة أثناء إجازتي الصيفية وجدنا أنفسنا نتحدث كأم وأب، وأحياناً كجدّة وجدّ. كنا نتحدث كأسرة من شخصين تكونت «مِن زمان».
لم يكن وارداً الحديث في أي «خطوات» ينبغي لنا اتخاذها.
كأننا مشينا كل تلك الخطى سابقاً ووصلنا إلى هنا.
كان الخوض في مستقبل علاقتنا قد أصبح جزءاً من ماضينا الذي لم نحاول معرفة متى ابتدأ بالضبط. لم نتبادل أي «غزل» أو أي عرض أو طلب أو قبول أو تساؤلات أو ترتيبات أو وعود. عندما غادرت القاهرة وعدت للالتحاق بعملي في الكويت وجدتني أراسلها كزوجة ووجدتها تراسلني كزوج.
كم تساءلت إن كنت قد ظلمتها بالزواج مني وأنا بلا أرض تقلّني وبلا خطة واضحة بشأن مصيرنا الجغرافي أو الاقتصادي أو الاجتماعي. رفض أهلها الزواج مني بالطبع. كانوا على حق في رفضهم ارتباط ابنتهم الوحيدة بشاب غير مصري، مصيره الشخصي معلّق بمصير قضية فلسطين التي عجزت عن حلها الدول وأجيال الناس. لم أُلْمِهُم للحظة واحدة. لكنها أيضاً لم تفكر للحظة واحدة في العدول عن قرارها. هكذا تعلمتُ الشجاعة ووضوح الإرادة من فتاة تصغرني بعامين، تعرف ما تريد وتذهب إليه مفتوحة العينين، بكل وعي، بكل هدوء، بكل شغف.
تميم يظن أنني استسلمت لغفوة قصيرة لكني أنتبه للمضيفة تدعو الركاب لربط الأحزمة استعداداً

للهبوط في مطار عمان.
نقضي مع والدتي ثلاثة أيام في عمان، لم يكن ممكناً أن تتركنا نسافر قبل أن تطبخ لتميم أكلاته المفضلة كالمسخن والدجاج بالزعتر وتسمعه يعزف العود ويغني لها قصائده الساخرة باللهجة العامية المصرية التي يهجو فيها مدرّساته ومدرّسيه في مدرسته الثانوية بالقاهرة، ولم يكن ممكناً لي أن أتركها قبل أن نفضفض ونحكي ونتبادل أخبار ما حدث وما لم يحدث منذ لقائنا السابق.
هذه المرة يوصلنا صديقي «ضامن» بسيارته إلى الجسر في الثامنة صباحاً فلا نشعر بمرور الوقت لأن ضامن لم يتوقف عن إضحاكنا بمخزونه المتجدد من الطرائف والحكايات.
نقدم أوراقنا. الضابط الأردني يختمها دون تأخير. نركب سيارة أجرة بعد دفع ٨٠ دولاراً لشركة التسهيلات وننطلق على الفور بدلاً من انتظار قيام الحافلة التي لا تتحرك إلا كاملة العدد بأربعين راكباً أو أكثر، مما يتطلب انتظار ساعة كاملة على أقل تقدير. كل ما بوسعي فعله لاختصار الوقت سأفعله. قلت لنفسي يستطيع الإسرائيليون تأخيرنا كما يحلو لهم لاحقاً في الجانب الإسرائيلي، هذا ليس بيدي، لكني لا أريد أن ننتظر على جانبي الحدود، يكفي التأخير على جانب واحد.
أريد لتميم أن يدخل فلسطين قبل الغروب ليراها في ضوء النهار. ولا أريد أي مفاجأة تتعلق بدخوله.
الآن كل أوراقه مكتملة، تصريح دخوله لا يزال طازجاً، مكتمل الأختام والدمغات والتواقيع باللغة العبرية، نعم باللغة العبرية وإلا فما معنى الاحتلال؟
بعد كل اتفاقات السلام وقيام السلطة الوطنية الفلسطينية وتناسل الأعلام الفلسطينية في سماواتها ومكاتبها بموافقة إسرائيلية، وحديث الدنيا كلها عن الاستقلال الفلسطيني لا يستطيع أحد مهما كانت جنسيته ومهما كان أصله أن يجتاز أي معبر من معابر فلسطين، براً أو بحراً أو جواً، دخولاً أو خروجاً، إلا بتصريح إسرائيلي وأختام إسرائيلية وفحص أمني إسرائيلي ومضاهاة الأسماء في قوائم سوداء إسرائيلية. التحقيق مع أي شخص أو إعادته من حيث أتى أو اعتقاله وإرساله إلى السجون الإسرائيلية احتمال وارد، لا يُستثنى منه رئيس السلطة ووزراؤها وضباطها وقضاتها ورجالات أمنها وأعضاء «برلمانها». إن أنت لم تعجب قاعدة المعلومات في الكمبيوتر الإسرائيلي على المعابر والحواجز، فلن تشفع لك التصاريح ولا الأختام ولا الموافقات أو التأشيرات المسبقة.
في المستقبل سوف تعتقل إسرائيل ثمانية وزراء و ٢٨ عضواً من أعضاء المجلس التشريعي المنتخبين بما في ذلك رئيس المجلس «عزيز الدويك» لمجرد أنهم جميعاً من حركة حماس. كان رد إسرائيل على الاحتجاجات المستنكِرة لهذه الجريمة جملةً واحدةً تَكَرَّرَ استخدامُها عشرات المرات بعد كل انتهاك للقوانين والأعراف الدوليه: «لا حَصانةَ لأحدٍ هنا».
نعم. لا حصانة لأحد هنا.
لا شيءَ مُلْزِمٌ لإسرائيل إلا ما يحلو لإسرائيل أن تلتزمَ به. ثمرة مُرَّةٌ أخرى من ثمار التفاوض الغبيّ مع إسرائيل في «أوسلو»، حيث أرسلنا مفاوضين موهبتهم اللاشيء تقريباً، ورغم ذلك لم يكن جهلهم هو المشكلة بل المشكلة أن ما دار بينهم وبين الوفد الإسرائيلي لم يكن تفاوضاً بل سلسلة موافقات على اقتراحات إسرائيلية قدمها فريق من دهاة السياسة والقانون الإسرائيليين، من ذوي التخصص الدقيق في كل ما يلزم لإيقاعنا في فخاخ متوارية، وفخاخ أكثر منها، مكشوفة. في زيارتي الأولى لرام الله قلت عن موقف معظم الناس من الاتفاقية إنهم بانتظار تحقق الوعود التي قدمتها لهم قيادتهم. لم يتحقق شيء. ثمة انفجار كبير قادم لا أدري أين ولا أعرف متى لكن

الانفجار أو الانفجارات قادمة بالتأكيد.
عند آخر نقطة للشرطة الأردنية تنزلنا السيارة ليتأكد الضابط من سلامة أوراقنا ويشرف على صعودنا إلى أول حافلة. الحافلة هذه لا بد منها لأن الدخول بالسيارات ممنوع نهائياً إلا لرجالات السلطة الفلسطينية.
ألمحُ شخصاً يحاول إنزال سيدة مُسِنَّة عن مقعدها المتحرّك، وإدخالها إلى الحافلة بصعوبة شديدة، بسبب وزنها العظيم، وبسبب السلّم المرتفع لباب الحافلة غير المزودة بزلاجة لذوي الاحتياجات الخاصة. شحوب وجه السيدة يؤكد أنها عائدة بعد رحلة علاجية، يرافقها هذا الشاب الذي يرحب بمساعدتنا له في حل معضلة دخولها إلى الحافلة، ولا يعير انتباهاً لمسافر وقح كان خلفه في الدور ظل يتأفف من الانتظار.
الحافلة مكتملة العدد الآن، محرّكها دائر، لكنها تنتظر الإذن الإسرائيلي باجتياز الجسر. في الصيف تصطف الحافلات بأعداد كبيرة وتنتظر الإشارة حافلة بعد أخرى، وسيئ الحظ من كان في الحافلات الخلفية.
نحن على عتبة فلسطين.
نحن في أكثر بقاع الأرض انخفاضاً عن سطح البحر. العرق يتصبب بإلحاح دبق، الملابس تلتصق بضجر الأجساد، الهواء هنا هواء مَقْلِيّ. النهار عند هذا الثقب الكونيّ لعنة جماعية تحل بالمنتظرين من أمثالنا. كأنّ المدخل إلى فلسطين ملمح من ملامح جهنم. لا يمكنك الوصول إليها إلا إذا اجتزت هذه البقعة العسيرة، مضروباً بكرباج هذا الهواء وهذه الطبيعة التي لا ترأف بأحد.
أقول لنفسي بعض الأوطان هكذا: الدخول إليه صعب، الخروج منه صعب. البقاء فيه صعب. وليس لك وطن سواه.
المسافر إلى فلسطين لا «يتخطى» عتبتها ليدخل، بل «يمكث» عند العتبة زمناً لا يحدده هو، وينتظر تعليمات أسياد البيت الذين يحددون كل شيء.
أتأمل الركاب.
يسقط نظري على السيد «نامق التيجاني» فأتشاءم.
لا أحب أن أرى هذا النامق.
منظره يذكّرني بالمخاطيّات والرخويّات، خصوصاً عندما يبتسم أو يضحك فتبدو لثّته العريضة بشكل يثير أعصابي.
أقول لتميم بصوت خفيض:
ـــ هل ترى ذلك الشخص؟
ـــ ماله؟
ـــ هذا شخص عجيب، حاول أن تتأمله. إنه النموذج الذي لا أطيق. إنه أدق «وسيلة إيضاح» للجيل الذي تربيه السلطة الفلسطينية وأصادفه أينما ذهبت. إنه شخص له أبعاد رمزية!
لم يبد على تميم اهتمام بحديثي عن نامق، ولم يكن لديه فضول لمعرفة المزيد. يكتفى بأن يقول لي:
ـــ لا تُركِّز عليه.
أتبع نصيحته وأتجاهل النامق. أزيح نظري إلى بقية الركّاب.
أمهاتٌ وجدّاتٌ فلسطينيات، فلاحون بوجوه مشمسة وذقون حليقة، صفحات خدودهم تذكر بلمعان السيوف الجديدة، مرضى ومسنون وشباب جامعيون وأطفال وتجار ومقاولون وموظفو سلطة

ومغتربون، لا يفضلون الحديث مع من لا يعرفون تجنباً للمتاعب، وتوخياً للحذر الذي يلازم من يشعرون بأنهم مراقَبون من قوة غامضة على طرفي هذا الجسر.
أتساءل أين هؤلاء الجدّات المنهكات اللواتي يتحركن ببطء، من صورتهن القديمة أيام الصّبا، يقطعن عشرة كيلومترات سيراً على أقدامهن إلى عيون الماء، خارج قراهن، ويرجعن حاملات جرار الماء على رؤسهن، بعمود فقري مستقيم؟ في المواسم يقطفن الزيتون مع رجالهن ويتشاجرن للدفاع عن دَوْرهن أمام المعصرة، يستقبلن ضيوف السهر في أحواش بيوتهن حيث تشرق ثمار الليمون والمندلينا وأحواض الحبق على الشبابيك. هكذا أتذكر «ستّي ام عطا» وكل الجدّات في دير غسانة. أتخيل راكبات الحافلة، أرسم لهن ما أشاء من الماضي وما أشاء من الحاضر. مَن منهن يا تُرى جدَّةٌ لأسير أو لشهيد أو لمطارَد في الجبال والكهوف؟ من منهن أرملةٌ تنتظر دون جدوى شهراً بعد شهر، أن تدفع لها «السلطة الوطنية» معاش ابنها الأسير في سجن عوفر أو النقب أو نفحة أو عسقلان؟ أو معاش زوجها النائم تحت التراب، تغني له أناشيد الإذاعات، وينساه حاملو أختام الخزينة؟ ما الذي يجعلها تواجه نكد «الجسر» ومنغصاته وتسافر إلى عمان والزرقاء وإربد، تصارع سِلالها وحقائبها وسوء المعاملة وضجر الانتظار؟ هل للقاء الابن الثاني الذي لم يُقتَل ولم يُعتقَل، قادماً من عمله في الخليج أو من جامعته في دمشق أو لندن أو كندا أو أميركا ولا يمكنه الدخول، فتخرج هي لتراه يوماً أو يومين؟ المرأة الفلسطينية، كغيرها من نساء العالم الواسع، تعمل وتنجز وتغيّر الحال من حال إلى حال، ولا أدري من أين وكيف تتكدس عليها الواجبات، وكيف تقوم بها على أكمل وجه ممكن. بعد كل هؤلاء الذين غيَّبهم الموت أو الأسر أو الغربة من أبناء هؤلاء النسوة وأقاربهن، هنّ مَن تزدحم بهنّ الأسواق، والمظاهرات، ومشاغل التطريز والحفر على خشب الزيتون والأرابيسك والصدف والقلائد، وهن من يتشاجرن مع مدير المدرسة لأمر يخص أحفادهن التلاميذ، وهن من يسمعن نوال السعداوي تشرح في برامج التلفزيون ثورتها الفيمينيستية العارمة دون أن يفهمن شيئاً مما تقول.
أتأملهن وأنا افكر في أمّي في عمّان تدعو وتبتهل أن يكون دخول تميم إلى رام الله سهلاً. أفكّر في رضوى في القاهرة وهي تكتم القلق في الصدر لتتحمله مخفيّاً وغامضاً عن قصد، فيزداد لي وضوحاً.
هل أهرب بجولة هذياني هذه من قلقي بشأن دخول تميم؟ هذا ليس بجديد على مكر النفس وتحايلها. هل أغير موضوع قلقي فأتحمله؟ هل أغير اتجاه التفكير فأطرد الهواجس؟ حيل لا تكلف النفس أكثر من الاستسلام للتداعي.
بين لحظة وأخرى أنظر إلى تميم.
تميم لا يرفع عينيه عن نافذة الحافلة، يرى من خلالها ما يمكنه أن يرى وكأنه يكتب المشاهد في ذاكرته. أتركه في استغراقه.
ـــ بابا إنت سَرَحْتْ.
يقول لي تميم والحافلة تبدأ في التحرك. تحملنا وتتجه لقطع النهر باتجاه فلسطين. تمرّ دقائق معدودة، نحن نقترب من الجسر الآن. أقول لتميم:
ـــ الآن سترى الجسر.
لم أكد أنهي عبارتي القصيرة هذه حتى كنا قد تجاوزْنا الجسر وأصبح خلفنا دون أن ينتبه تميم لذلك.

يلتفت إلي مستغرباً:
ـــ أين الجسر؟
ويضحك ضحكة مجلجلة عندما أقول له:
_ جسر أقصر من جُمْلَة.
أطلب منه أن نراجع أوراقنا ربما للمرة الثالثة أو الرابعة.
أتفقد التصريح مرة أخرى لأتأكد أننا لم نضيعه، ولأتأكد من صحة أختامه وطوابعه وتوقيعاته وتواريخه المسموح له بالدخول خلالها.
هذه هي الورقة التي ستسمح لتميم الفلسطيني أن يرى فلسطين.
في المستقبل سيقول تميم في مقابلة أجرتها معه جريدة «الحياة» اللندنية، إن كل ما رآه منذ اجتيازه النهر كان يراه للمرة الأولى في حياته، وبالتالي كان من الصعب عليه تسمية مشاعره إزاء ما رأى:
ـــ «تماماً كما لو ان أنك وضعت جهاز «ميكروويف» بين يدي شاعر جاهلي كأمرئ القيس».
نعم. منذ هذه اللحظة في حياته، كل ما سيراه تميم، ابن الواحد والعشرين عاماً، سيراه للمرة الأولى.
سيكون ذلك إغلاقاً لدائرة من العمر أو فتحاً لدائرة من العمر.
ستنتهي فلسطين الكتب المدرسية والحكايات ومانشيتات الجرائد وصور ال CNN وتولد في حواسه فلسطين الملموسة.
وأنا سأرى كيف سيرى كل شيء.
سأرى، بعد أيام، كيف سيتسلّم بطاقة هويته الفلسطينية.
هل سيشبه ذلك لحظة ولادته على ضفة نهر النيل قبل واحد وعشرين عاماً؟
هل سيشبه لحظة اختيارنا لاسمه؟
هل سيرى الفرق بينها وبين تلك البطاقة على صدره في طائرة المالديف مسافراً وحده وعمره خمس سنوات، والتي أخبرته المضيفة الهنغارية أنها «هويته» التي علقوها على صدره كي لا «يضيع»؟
دقائق معدودة تفصلنا عن مواجهة ضباط إسرائيل. دقائق معدودة تفصلنا عن ضبع الاحتمالات الذي لا ملامح له.
ـــ أنت ستقف في الطابور. أنا سأبتعد في القاعة. سوف أراقبك حتى أطمئن إلى مرورك بالسلامة، وأتأكد أنهم لم يطلبوك للاستجواب. ساعتها فقط سأقدم أوراقي.
هل سيتعرض لهذه التجربة المجهولة العواقب في أول زيارة له؟ هل سيجيد التصرف؟ هل سيرتبك؟
ـــ إذا طلبوك للتحقيق أجب على قدّ السؤال. إعلم أن من حقك رفض الحديث في السياسة. سأكون بانتظارك في هذه القاعة مهما تأخر الوقت. إذا أعادوك سنعود معاً. عندما تجناز حاجزهم سوف تدخل فوراً إلى قاعة الحقائب. خذ حقيبتك. غادِرِ المبنى فوراً. لا تنتظرني في هذا المبنى. انتظرني في الشارع.
هو يصغي لي بابتسامة رجل يقلق عليه أهله كطفل. أقول لنفسي إن تميم قلق علىّ بمقدار قلقي أنا عليه وربما أكثر.

هذا هو المعبر إلى فلسطين.
المعبر هو مكان خوف الكل على الكل. مكان الغموض المرهق للأعصاب. هنا قرارات لا يفسرها لك أحد، إجراءات لا تعرف طبيعتها أو مداها يمارسها ضدك بشر لا سلطة لك عليهم ولا سلطة لأحد فوق سلطتهم. هنا يربض ذئب قوي البنية حادّ البصر، ذئب لا تعرف إن كان سيفتح فكَّيه قافزاً باتجاهك أنت أم يمر بمحاذاتك لينهش جارك في الطابور. لا تكاد تفرح لنجاتك منه حتى تحزن لانقضاضه على غيرك. ثم إنك لا تأمن انقضاضه في أي اتجاه إلا بعد أن تخطو بقدميك سالماً خارج المكان.
المعبر يعطل أبوة الآباء وأمومة الأمهات وصداقة الأصدقاء وعشق العشاق. هنا تصعب ممارسة الحنان. هنا تنتفي فرصة التضامن والنجدة. هنا لا أستطيع مساعدة ابني او حمايته كأب.
الدكتاتورية أيضاً تعطّل الأبوة والأمومة والصداقة والحب، كالاحتلال تماماً. أسأل نفسي كم مرة يجب أن أشعر بعجزي عن حماية من أحب؟
الآن وأنا أعيد فلسطين لتميم، وأعيد تميم لفلسطين، أشعر أني أسلمه للسجّان.
يقترب دور تميم في الطابور خطوة. أراقبه من بعيد، أنا الآن خائف مطمئن مضطرب راض ساخط فَرِح حزين عاجز قادر متوجس ضجِر متفائل متشائم هادئ مرتبك تختلط في خيالي الأفكار وتتداخل.
كلما رمتني الدنيا في فخ «الانتظار» أعرف إلى أين أهرب.
آخذ خيالي أو أتركه يأخذني بعيداً عن الفخ.
عيناي على تميم يدنو خطوة بعد أخرى من لحظة تجلب الفرح أو تفسده. أدخل إلى دوامة من هواجس وظنون.
أصغي لأسئلتي الداخلية التي لا يسمعها أحد، أسئلة البلاهة والحكمة تتالى ككابوس نهاري أو كأشباح أسئلة. أتابعها عالية خافتة حكيمة بلهاء نافعة تافهة متناقضة واضحة غائمة تموج بين الجد والعبث، كأنّ علبة ضخمة من الصور الفوتوغرافية الجديدة والقديمة سقطت من يدي وانفرطت فوق بعضها فتداخلت أطرافها وألوانها وأحجامها، وغَدَتْ كومةً من بقع فاتحة وغامقة وظلال مستحيلة التحديد. تركض الأسئلة بداخلي، أم أركض أنا وراءها بين الوعي واللاوعي، كالمستفيق ببطء من البنج بين وجوه لا يعرفها، أو كالغائص في غيبوبة بنج يبدأ عمله البطيء داخل الجسد.
متى ينتهي هذا الانتظار لأفلت من فكّي هذا الفخ؟ لماذا أنا متأكد من أن الحياة لا تعرف لحظة صافية أبداً كأن كل لحظة هي سبيكة لحظات انصهرت حتى بدت للواهم والساذج صافية ومستقلة بينما لا هي صافية كما تبدو ولا مستقلة كما نظن؟ لماذا هناك دائماً خيط من الخوف في قماش الطمأنينة؟ لماذا يدخل المرء في عِراك لا لأنه شِرّير بل لأنه خائِف؟ لماذا أهمل شخصاً لأنني أكثر المهتمين به؟ ألا أصبر أحياناً صبراً عظيماً لا لشيء إلا لأن صبري نفد؟ لماذا تظل الأسئلة أسئلة مهما أجاب عليها ابن آدم؟
أنا مطمئن بشأن دخول تميم وإلا لما جئنا هنا اليوم.
أنا قلق على دخوله وإلا لما انتابني هذا الهذيان الآن.
هل يستحق أمر دخولنا كل هذا القلق؟
ألا يبدو قلقي سخيفاً ومخجلاً إذا قورن بعذابات شعبي المزمنة؟ ماذا لو دخلنا أو مُنِعْنا أو اعتقلنا أو حتى متنا هنا؟ أليس الفلسطيني محاطاً بالموت؟ أليس عذابه على حدود الدكتاتوريات العربية وفي

مطاراتها متكرراً وعادياً إلى حد الابتذال؟ هل يقارن قلقي التافه هذا بهدم بيت على رؤوس سكانه في جنين أو غزة؟ ما الذي أشكو منه هنا إذن؟ أريد أن أجعل من لحظة هذيان عابرة تاريخاً باقياً. لا يسمع بنا أحد إلا ونحن تحت أنقاض البيوت وقذائف ال F١٦، نتعذب عذاباً مدوياً وجماعياً ونصرخ على شاشات الدنيا. نحن لسنا جثثاً فقط ولم نختر أن نكون. أريد أن أتعامل مع مشاعري القليلة الشأن التي لا يسمع عنها العالم أبداً، أريد أن أؤرخ لحقّي في القلق العابر والحزن البسيط والشهوات الصغيرة والأحاسيس التي تومض في القلب لمحاً ثم تختفي. أنا لا أقول إن قلقي مبرر ولا أعتذر عنه. إنه قلقي وكفى. أنا أتحدث عنه كما هو. لا أريد شيئاً من أحد. لا أستغيث ولا أريد عوناً ولا تعاطفاً بل أريد أن أتحسس داخلي لأعرفه وأصغي لصوت نفسي فأسمعه وأريد أن أؤرّخ لما لن يؤرخه أحد نيابة عني. أريد أن أنقش أصغر مشاعري بإزميل على حجر بجوار الطريق. أدرك الآن أنني أهذي. لكنه هذيان قصير لم يستغرق أكثر من تدخين هذه السيجارة.

أفكر في إشعال سيجارة أخرى.

أتوقف فجأة.

ها هو. إنني الآن أراه. أرى تميم. أرى يده اليمنى فوق رؤوس الجميع تلوح لي بأوراقه. ثم أرى وجهه. وجهه في هذه اللحظة مجرد ابتسامة تسر الناظرين.

مر تميم منهم. لم يوقفوه. لم يحققوا معه. لم يعيدوه من حيث أتى.

مر تميم منهم.

أصرّ الطبيب على أن تكون الولادة طبيعية مهما طال الانتظار. كانت ليلة قاسية في تلك المستشفى الصغيرة على ضفة نهر النيل في حزيران عام ١٩٧٧، لم يصغ لإلحاحنا عليه بالتدخل ولو بعملية قيصرية. من الساعة الثالثة بعد الظهر بدأ الطلق الفعلي. لكنه ترك رضوى تتعذب حتى قبيل الفجر وصعد لينام. المستشفى هو أيضاً بيته، خصص فيها طابقاً لمعيشته وصعد لينام. رضوى التي في الحياة العادية لا تعرف الشكوى، تصرخ ألماً وتعتذر لنا عن صراخها «أنا آسفة» وقبل أن تكمل عبارتها، تهاجمها جولة الألم التالية وعيناها تستغيثان بالممرضة دون جدوى. أمسك يدها وأمسح العرق عن خديها وعن جبينها بمنديل.

ـــ أتعبتكم معي. أنا آسفة.

أنظر في وجوه من معي في الغرفة. لا أجد في ملامحهن ما يطمئن. الساعات تمر. الطبيب لا يأتي. عندما أتى، كانت الساعة حوالي السادسة فجراً. أتى، دخل وأغلق خلفه الباب.

ظلت أعيننا معلقة بمصباح كهربائي صغير مطفأ فوق الباب، مصباح يعلوه الغبار رغم حداثة المستشفى، قيل لي إنه سيضيء بالأحمر علامة على الولد، وبالأخضر علامة على البنت. بالنسبة لي أنا، ستكون إضاءته علامة على انتهاء عذاب رضوى الطويل. مع الضوء الأحمر خرجت الممرضة بالبشارة:

ـــ مبروك. وَلَد زي القمر.

أشق زحام قاعة الجوازات باتجاهه فارداً ذراعيّ لملاقاة ذراعيه المفرودتين على آخرهما وهو يحمل أوراقه. أتبين فجأة أن طوله يقارب طولي. نتعانق. أربت على ظهره. يربت على ظهري. ندور حول أنفسنا دورتين، ثلاث دورات، ربما أربع، ربما لم نَدُرْ حول نفسنا أبداً وتوهمت أننا ندور. تميم مر منهم.

الآن جاء دوري.

أتجه للالتحاق بأحد الطوابير القصيرة لتقديم أوراقي للضابط الإسرائيلي، نعم، الإسرائيلي وإلا فما معنى الاحتلال؟.
يرفض تميم الدخول إلى قاعة الحقائب رغم تعليماتي الحاسمة (منذ متى يطيع الأولاد التعليمات الحاسمة؟ لولا العصيان لما كبر طفل في هذا العالم) ورغم أن حقيبته تحديداً قد ظهرت على السير المتحرك في القاعة المجاوره ولمحناها بالفعل، بعد دقيقة ظهرت حقيبتي أيضاً. ولم يقتنع بالذهاب.
تميم يصر على الانتظار بجواري ليرى ما يحدث معي. أتوقف عن إلحاحي وأتحرك بطيئاً باتجاه الطابور. قلت لنفسي «هو أيضاً يريد أن يطمئن».
أقدم أوراقي وأنتظر.
يقف هو على مقربة مني خارج الطابور،
وينتظر.
في المستقبل، في زيارة لاحقة بعد أربع أو خمس سنوات من هذه اللحظة، سوف تحتجز شرطية إسرائيلية مراهِقة وثائقي التي عليّ تقديمها دائماً ما دمت على الجسر (هويتي الفلسطينية والتصريح الإسرائيلي وجواز سفري الأردني) وستعطيني بدلاً منها ورقة صغيرة تحمل سطوراً قليلة بالعِبرية ثم تأمرني بعربية محطّمة:
— انتظر هناك حتى تسمع اسمك.
أنتظر نصف ساعة تقريباً، أنتظر ويبدو أن الوقت لا يمر. يقال إن الوقت ثمين ولا أصدق ذلك، فكثيراً ما نضيع الوقت عن طيب خاطر، بل إننا نتلهف على الإجازات والعطلات ونسعى لتوفير أي قسط من الكسل ونتفنن في إهدار الوقت بلعب الورق ومشاهدة التلفزيون والتسكع بين المقاهي، البشر في الحقيقة لا يزعجهم تبديد الوقت، أظن أن ما يزعجهم أكثر من أي أمر آخر هو «انتظارُ تَبَدُّدِه».
من جرائم الاحتلال أنه يرغم الناس على الانتظار، انتظار المعابر والحدود ونقاط التفتيش، انتظار صدور الموافقات والتراخيص وانتظار ساعات الفتح والإغلاق ومنع التجول ورفعه، انتظار الانتهاء من التحقيق الجهنميّ، انتظار انتهاء مدة السجن، انتظار عودة التيار الكهربائي، وعودة الماء، انتظار كافة المواعيد والمهل التفاوضية التي يحددها لهم الغامض القابض على السلطة بإخفاء نواياه باستمرار. ثم إنهم أيضاً وأولاً يقضون أعمارهم «انتظاراً» لزوال الاحتلال ذاته، سنة بعد أخرى، وجيلاً بعد جيل.
ما زلت أنتظر أن ينادوا على اسمي.
لا ينادون.
لكن جندياً بديناً يقترب مني وبهدوء يقتادني إلى غرفة التحقيق.
صف طويل من المقاعد في ممر ضيق.
الكاميرات واضحة في زوايا الممر وفي سقفه.
أجلس بين الجالسين، سبعة أو ثمانية أشخاص من مختلف الأعمار، لا يبدو على أي منهم أدنى اكتراث، ينتظرون باسترخاء عجيب، كأن وجودهم هنا طبيعي تماماً ومألوف تماماً، كأنهم بانتظار قطار على وشك الوصول.
أمامنا أبواب مغلقة.
ننتظر.

في البداية كنت مبتئساً لكنني بعد ذلك أخذت أضحك في سرّي على نادرةٍ من نوادر أبو شريف الصّوص مع «الانتظار».
زمان، قبل أوسلو وقبل السلطة، كانت إسرائيل تمنح تصاريح زيارة مدتها شهر واحد لأهل الضفة المقيمين في الخارج. جاء أبو شريف الصوص من الكويت إلى عمان ليتوجه إلى الجسر في اليوم التالي. جلس في مقهى السنترال في عمان وطلب «كاسة شاي» وطال انتظاره فنادى عامل المقهى وقال له وهو يضحك:
ـــ طلبنا كاسة شاي إعمل معروف هاتها قبل ما يخلص التصريح!
سألت أقربهم إليّ:
ـــ ماذا يحدث في الداخل؟
ـــ أسئلتهم المعتادة، أسئلة سخيفة. ولا يهمّك.
بعد أكثر من ساعة ونصف من الانتظار أُستدعَى إلى غرفة من هذه الغرف لأجد شخصين، أحدهما سيعاملني بلطف والآخر بجلافة، تقسيم الأدوار التقليدي بين المحقق الطيب والمحقق الشرير.
ـــ إلى أين أنت ذاهب؟
ـــ إلى رام الله.
ـــ أنت عضو في المجلس الوطني؟
ـــ عضو مراقب.
ـــ يعني؟
ـــ يعني أناقش ولا أصوّت.
ـــ أنت من فتح؟
ـــ أنا مستقل.
ـــ هذا مكتوب عندنا بالفعل.
ـــ ما دمت تعرف إذن لماذا تسألني؟
ـــ أنت هنا لتجيب لا لتسأل، مكتوب كمان إنك شاعر، هل التقيت بكتّاب من إسرائيل في الخارج؟ هل التقيت بأي إسرائيليين في الخارج؟
ـــ لا أتذكر.
ـــ ما رأيك في أبو مازن؟
ـــ أنا هنا في مقام أمني ولا أريد التحدث في السياسة.
ـــ نريد فقط أن نتحدث مع شخص مثقف مثلك لا أكثر ولا أقل، هذا كل ما في الأمر.
ـــ هذه نقطة حدود وليست قاعة للندوات. أمامك أوراقي فإن كان فيها مشكلة بوسعك أن تتخذ إجراءاتك.
تدخل زميله الصامت:
ـــ شاي أو قهوة؟
اعتذرت بإشارة من يدي، لكنه قام إلى غرفة أخرى وعاد بعد دقيقتين ووضع أمامي كوباً من الشاي وغادر. واصل زميله توجيه الأسئلة.
ـــ لماذا لا تريد أن تتكلم معي في السياسة؟

— لغياب التكافؤ.
— ماذا تقصد؟
— أقصد أنك الطرف الأقوى. تملك أن تسمح لي بالدخول وأن تمنعني من الدخول وأن تعيدني إلى عمان وأن ترسلني إلى سجن في إسرائيل. وأنا لا أملك أي شيء، فما جدوى الحديث.
— أرى أنك غاضب مع أن الأمور جيدة الآن، الآن عرفات عيّن أبو مازن رئيساً للوزراء. يعني يوجد فرصة للسلام. ما رأيك في أبو مازن؟
— لا أبو مازن ولا غير أبو مازن سيحقق شيئاً لأنكم لن تعطوه شيئاً.
— كيف؟
— يبدو لي أحياناً أنه لن يرضيكم إلا أن نعيّن زعيماً صهيونياً للشعب الفلسطيني.
ابتسم في البداية ثم كشّر.
— على من تعتمدون في عنادكم؟ لو طردناكم جميعاً إلى مصر والأردن هل تظن أن مبارك أو عبدالله بتفرق معهم؟
دخل المحقق الثاني.
— أين وصلتم؟
— وصلنا إلى التهديد بالترانسفير.
ابتسم ساخراً، فأكملت جملتي:
— زميلك يهدد بإلقاء الفلسطينيين في البحر.
— أي ترانسفير يا عمي، وأي بحر وأي صحرا، خذوني معكم إذا طردوكم، أحسن من هذه العيشة هنا.
نظر إلى كاسة الشاي، لاحظ أنها لم تزل على حالها لم تنقص، لكنه لم يعلّق، فاجأني بالقول:
— على كل حال إنت تفضل.
— خلص؟
— مع السلامة.
بعد سنوات من جولة التحقيق هذه، سوف يتكرر الأمر معي مرتين. ثم سيتوقفون عن استدعائي إلى فترة لا أعلم كم ستطول.
هذه المرة لم يطل انتظارنا.
لم يتأخروا في ختم أوراقي ولم أستدع للتحقيق.
لم أكن بحاجة لحسن الحظ كما أنا بحاجة له اليوم، لأن تميم معي. قلت هذا حظ كبير يصعب تصديقه. يصعب على الفلسطيني أن يصدق أنه محظوظ. هذه أسهل مرة أدخل فيها فلسطين منذ نلت هذا الحق قبل عامين ولمدة عشر سنوات بعد ذلك. أما ما بعد بعد ذلك فمن يضمنه؟
أخرج من الطابور. أمسك بيد تميم، ندخل معاً قاعة الحقائب بفرح، نخرج إلى الشارع. أضمه ويضمني في عناق جديد على أرض يراها لأول مرة منذ ولدته رضوى قبل واحد وعشرين عاماً.
تميم في فلسطين.

الفصل الثالث عمارة الياسمين

نَصِلُ إلى التلّ. ندخل عمارة الياسمين. يحملنا المصعد إلى الطابق الخامس. ندخل، نفتح النوافذ، نرفع أغطية الوقاية عن المقاعد لحمايتها من تراكم الغبار في غياب رفيف. أرفع سماعة الهاتف الأسود العتيق، أتأكد من أنه يعمل، أطلب القاهرة، أعطي السماعة لتميم ليتحدث قبلي مع رضوى، نتبادل السماعة. يبدو حديثنا أشباه جمل وعبارات غير مكتملة، رضوى تسأل عن رحلتنا، نحن نحاول أن ننقل لها تفاصيلها، تميم يكرر:

ـــ ماما أنا في فلسطين.

قلت لها ضمن ما قلت:

ـــ يا رضوى أريد أن أقول لك «شكراً».

عندما ذهبت لتسجيل ولادته في وزارة الصحة المصرية لاستخراج شهادة ميلاده، كنت أنوي أن أكتب في خانة جنسية الأب «أردني» حسب جواز سفري. الوثيقة الوحيدة التي أملكها هي وثيقة تثبت أردنيتي، لا أملك وثيقة تثبت فلسطينيتي لتقديمها للموظف المختص، هنا تدخلت رضوى بحسم:

ـــ أكتب «فلسطيني».

وكتبت «فلسطيني».

جادلني الموظف فشرحت له تاريخ العلاقة بين فلسطين والأردن وأنه لا يوجد جواز سفر فلسطيني الآن. لم يجادل كثيراً، إما لطيبته، وإما لأنه لا يريد أن يبدو جاهلاً بالتاريخ. قبلها وأصدر الشهادة. (في المستقبل، سوف تحُول كلمة «فلسطيني» في تلك الشهادة دون حصول تميم على حقه في الجنسية المصرية أسوة بأبناء الأمهات المصريات المتزوجات من غير المصريين. الفلسطيني سوف يتم استثناؤه من هذا الحق دون سبب مفهوم.)

نطلب الوالدة في عمان، نخبرها بوصولنا سالمين.

أشغّل سخان الماء. علينا الانتظار بعض الوقت قبل أن نتمكن من أن نستحم ونبدل ملابس السفر.

أتصل هاتفياً بحسام لأعلمه بوصولنا إلى شقة الياسمين فيقول:

ـــ مسافة الطريق وأكون عندك.

هذه هي المرة الثانية التي أقضي فيها أياماً في شقة «رفيف» الأنيقة، (الأنيقة تنطبق على الشقة وعلى صاحبتها) وهي تضم أثاث جدها الراحل عمر الصالح البرغوثي وجزءاً صغيراً من مكتبته وأضافت إليها النباتات الداخلية ومطبخاً حديثاً هو امتداد للصالة الرئيسية دون أي فاصل بينهما. وعلى الجدران علقت لوحاته المقتناة من أوائل القرن العشرين. «رفيف» تقيم في الشقة أياماً قليلة كل عام عندما تأتي من عمان، وأصرت دائماً على أن تعطيني مفاتيحها كلما جئت إلى رام الله، وأصرت هذه المرة أكثر لراحتنا أنا وتميم.

في المستقبل، بعد هذه الزيارة بسنوات قليلة سوف تفارق «رفيف» الحياة بشكل مفاجئ في عمان، كانت تبدأ يومها في مقر المجلة التي تحررها عندما سقطت مغشياً عليها. لم تستيقظ أبداً. سأتلقى الخبر عبر التليفون وأنا في القاهرة فأسافر إلى عمّان فوراً لأكون بجوار صديقي، زوجها الدكتور محمد بركات، محمد بادرني بالقول عندما رآني:

ـــ أنجزت بهدوء وأناقة كل ما تريد، رمّمَتْ بيت العائلة في دير غسانة، أعدت شقة عمارة الياسمين في رام الله، حرّرَتْ ونَشَرَتْ مذكرات جدها ولمست بيديها الكتاب منشوراً... وماتتْ.
«رفيف البرغوثي» التي درست الفلسفة في الجامعة الأميركية في بيروت كانت من أكثر سيدات الأسرة أناقة في لغتها وملبسها وسلوكها، تصمم ديكور بيتها بنفسها وبموهبة تجعل أبسط موجوداته تبدو باهرة في مكانها المنتقى بعناية. كان يجمعنا احترام متبادل صامت وحُب النباتات المنزلية، وهي جعلت من شرفة بيتها في عمّان حديقة كاملة، حاولت تكرار الأمر في عمارة الياسمين رغم أنها لا تقيم فيها، وتركَت المفتاح مع «أبو حازم» للعناية بها. أول ما أفعله في بيت رفيف هو سقي نباتاتها المتروكة رغم اعتناء «أبو حازم» بها كلما وجد هِمة للمشي من بيته في حي الشرفة إلى هنا.
أبحث عن قطعة قماش، أبللها، وأنظف أوراق النباتات ورقة ورقة حتى نبتة «المنشار» الصعبة.
بعد ذلك أخرج إلى الشرفة الجنوبية الملحقة بالصالة وأروي نباتاتها هي الأخرى.
أنادي على تميم ليلحق بي إلى الشرفة فلا يرد، أدخل إلى الصالة، أجده مستغرقاً في قراءة قصيدة معلقة على الحائط داخل إطار خشبي قديم ومكتوبة بخط اليد، على يمين الداخل من الباب الرئيسي للبيت.
ـــ أعجبتك؟
ـــ ما زلت أقرأ.
ـــ أتركها الآن وتعال لأريك شيئاً.
اصطحبته إلى الشرفة وقلت له:
ـــ هل ترى قوس البنايات في نهاية الأفق؟
ـــ ما هذا؟
ـــ إنها القدس.
ـــ مش معقول. يمكن الوصول إليها مشياً.
ـــ يمكن الوصول إليها يا سيد تميم بتصريح إسرائيلي فقط لا غير.
ـــ ... ...
ـــ عندما دخلت قبل سنتين رفضت أن أذهب إليها تسللاً. هذه المرة سوف نتسلل أنت وأنا.
ـــ عندك خطة؟
ـــ سنرى.
ـــ لازم.
ـــ هل قرأت قصيدة معروف الرصافي؟
ـــ أريد أن أكملها.
عدنا للصالة وعاد يقرأ بصوت عالٍ:
أحرزتَ يا عُمَرُ المفاخرَ كلَّها
فالبَسْ من العَلْياءِ ما تَخْتارُ
أما البلادُ فقد حميتَ ذِمارَها
لما أضاعَ ذِمارَها الأشْرارُ
قلت له

— أنا حفظتها من إقامتي السابقة.
— ما قصتها؟
— معروف الرصافي يمدح عمر الصالح البرغوثي، جد رفيف بعد عفو سلطة الانتداب الانكليزي عنه وعودته من منفاه.
— أي سنة؟
— سنة ١٩٢٠.
— ما الذي فعله؟
— شارك في مظاهرة في القدس ضد هجرة اليهود وضد الانتداب البريطاني فنفاه الإنكليز إلى عكا.
— أنت رأيت عكا؟
— رأيتها العام الماضي للمرة الأولى في حياتي.
تركته واقفاً يكمل قصيدة الرصافي وتمددت على الأريكة.
من شهوة الاسترخاء بعد توتر الطريق، أخذتني غفوةٌ أو ما بشبه الغفوة، إلى تلك المرّة الوحيدة التي رأيت فيها عكا في الصيف الماضي.
كان عمري ذلك الصيف ثلاثة وخمسين عاماً ولم أكن رأيت عكا. لم تكن الحواجز كثيرة تلك الأيام. قال لي «حكمت»، صديقي ومضيفي تعال معي إلى «جِنين»، سنقضي فيها يوماً وليلة ثم أريك عكا والناصرة ويافا وحيفا.
وقفتُ على سور عكا. وقَفَتْ أمامي على الفور وفي صَفٍّ واحد علاماتُ الاستفهام متجهة اتجاهاً واحداً: كيف ضاع بلد كهذا؟
سور غامق المكانة، أسود إلا قليلاً. يميل مع الشاطئ، يستقيم معه ويميل ثانية فتظنه اختفى لكنه يعود للظهور. شاهق. إذا وقفتْ تحته بارجة رأتها عين الواقف فوقه مركب صيد قليل الحظ. عريض. قلت لنفسي في مبالغة يغري بها الحال: «إذا لعبت على حافته كرة القدم توهمت أن الكرة لن تسقط في البحر ولا في المدينة وأنها ستظل عليه» (هي بالطبع ستسقط لكن التوهم لا يكاد يكون توهّماً) ما الذي أتي بسيرة اللعب هنا في هذا المقام التاريخي؟ من لعب بمن؟ من خسر؟ من ربح؟ وهل هي لعبة؟ أم أنها الحرب التي خسرتها أمة بأكملها؟ هنا، أضع إصبعي على الفكرة التي تضرب جسمي كله كموجة: فلسطين لم تسقط في حرب ذات بداية ونهاية كالحروب التي نعرفها. الحروب الكبيرة، والحروب الصغيرة، تبدأ ثم تنتهي. مِن حرب طروادة إلى فيتنام الى الحرب العالمية الثانية إلخ، وبوضوح يليق بالعقل البشري تعرف أنك خسرت، أو تعرف أنك انتصرت، ثم تفكر في الخطوة التالية وينتهي الأمر. لم تأت بوارج الجيوش اليهودية وتدكّ هذا السور وتقتحمه على أهل عكا. ها هو في مكانه منذ كان وكما كان. لم تقم قوة بمحاصرة جيش فلسطينيّ ليرفع لها الرايات البيضاء وينتهى الأمر برابح نهائي وخاسر نهائي. أقول فلسطين ضاعت نُعاساً. وغفلة واحتيالاً. في كل يقظة حاولناها، وجدنا موتنا ورحيلنا الموحش إلى المنافي والمنابذ والأخطاء. نعم الأخطاء. (ونحن لا نزال نخطئ إلى الآن). كل هذا تم ببطء يبعث على الرهبة. كيف تنعس أمة بأكملها؟ كيف غفلنا إلى ذلك الحدّ؟ إلى هذا الحدّ بحيث أصبح وطننا وطنهم؟
ضبطَنا عدونا في لحظة تخلف تاريخي. كأننا لم نع ما حدث قبل حدوثه ولا لحظة حدوثه وربما لا نعيه الآن بعد حدوثه. أم أننا وعينا ونعي، لكننا أضعف من أن نعدل الميزان الذي مال؟ وهل

سيظل ميزاننا مائلاً إلى الأبد؟ إلى بعض الأبد؟ إلى متى بالضبط؟ إنه الغموض. إنه غموض موجع كعضّة الذئب.
أقول لنفسي: نحن لم نخسر فلسطين في حرب بحيث نتصرف الآن كمهزومين، ونحن لم نخسر فلسطين في مباراة للمنطق بحيث نستردها بالبراهين.
ضبطَنا تاريخُنا في لحظة كنا فيها في قاع الضعف. في قاع النعاس.
بوسعنا الآن أن نقول لأطفالنا إن النعاس لن يظل نصيبهم إلى الأبد ولا إلى بعض الأبد.
بوسعنا أن نذكّرهم بذلك المثل العجيب الذي ابتكره السابقون:
«لو كانت عكا خايفة من هدير البحر، ما وقفتش ع الشط!»
لكن علينا أن نعترف لهم ولأنفسنا قبلهم بأننا مسؤولون أيضاً. جهلنا مسؤول. قصر نظرنا التاريخي مسؤول، وكذلك صراعاتنا الداخلية، منطقنا العائلي القبلي، وخذلان عمقنا العربي المكون من دول معجبة بمستعمريها إلى حد الفضيحة. لكن لا يجوز لنا أن نجعل هذا سبباً للصمت. يجب أن نكسر حالة الإنكار التي يواجهنا بها العالم. سنروي الرواية كما يجب أن تروى. سنروي تاريخنا الشخصي فرداً فرداً، سنحكي حكاياتنا الصغيرة كما عشناها وكما تتذكرها أرواحنا وأعيننا وخيالاتنا. لن نترك التاريخ تاريخاً للأحداث الكبرى وللملوك والضباط وكتب الرفوف ذات الغبار. سنقص وقائعنا الفردية وسِيرة أجسادنا وحواسنا التي تبدو للغشيم سيراً تافهة ومفككة وبلا معنى. المعنى مرسوم فينا، فرداً فرداً، نساءً ورجالاً وأطفالاً وشجراً وبيوتاً وشبابيك ومقابر لا يُعزَف أمامها السلامُ الوطنيّ، ولا يتذكرها مؤرخٌ قلمه أعمى. سنعيد التاريخ تاريخاً لمخاوفنا وهواجسنا وصبرنا وشهوات مخداتنا وشجاعاتنا المرتجلة، تاريخاً لتدبير وجبة عشاء. أو لقصص الحب البريئة وغير البريئة وعواطفنا المخبّأة عن الكبار، تاريخاً للماعز الذي قصفته الطائرات في المرعى ولبطولة طفل يبول في سرواله خوفاً لكنه تشجّع فجأة فوقف مفتوح العينين أمام اللون الغامق لسرب دبابات طويل، تاريخاً لأمنياتنا السرية والعلنية ولنكاتنا وضحكاتنا ول «غمزة من عينها في العرس وانجنّ الولد»، تاريخاً لكل سفر سافرناه وكل مسافة قطعناها أو حرمنا من قطعها وكل مشوار بسيط وعاديّ بين مدينتين أو حالتين، تاريخاً لاستهزائنا بالقيادات وتهكمنا على الأوسمة والنياشين والرتب العسكرية، تاريخاً لعناد أجسادنا وعناد أرواحنا الذي لا يرد له ذكر في الوثائق والسجلات. سنجعل انقطاع الكهرباء عن بيوتنا لساعتين حدثاً مهماً لأنه حدث مهم. سنجعل نظرة طفل إلى مقعد زميله الفارغ في الصف الرابع الابتدائيّ فصلاً في كتاب الأحياء والقتلى، ونجعل قصة غرام دمرها الجنود أو دمرها شيخ العائلة أو دمرها غباء العاشقين ذاتهما أمراً مدوّناً في السجلاّت ينبّه العالم لضياع قصة غرام تخص العالم. سوف أسجّل جلستنا على سور عكا نتناول وجبة سمك في مطعم خريستو كما يفعل أي سائح قادم من بعيد. سوف أسجل تاريخ وجبة السمك هذه أيضاً، وها أنا أكتبه. سأجعل من كل شعور هز قلبي ذات يوم واقعة تاريخية. وسأكتبه.
نتوجه من عكا مباشرة إلى الناصرة وحيفا لكننا نمر قبل ذلك على منزل أحمد الشقيري ابن عكا الذي فقدها في نكبة ١٩٤٨ وأصبح لاجئاً لكنه تعلم وأصبح محامياً ثم أصبح أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية ومات دون أن يرى عكا لا محرراً ولا زائراً ولا سائحاً فرقد رقدته الأخيرة في عمّان.
في «كنيسة البشارة» في الناصرة نجد أنفسنا قي قلب تاريخنا، وسط مجموعة من السياح

اليابانيين، معظمهم من الراهبات. يكتمل المشهد. أقول لحكمت لنكن يابانيين اليوم يا حكمت، لنا من هذا المكان ساعة أو بعض ساعة ونغادر. وأقول لنفسي سأكتب تاريخ هذه الثواني التي شعرت فيها أنني سائح ياباني. قلت ليت توفيق زيّاد كان حياً لأزوره في مدينته التي لم يغادرها وظل رئيساً لبلديتها سنوات طويلة. قلت هل كان ضرورياً أن يذهب الشاعر الشيوعيّ بسيارته إلى أريحا لتهنئة ياسر عرفات بالعودة إلى الوطن ليقتله حادث سير في طريق عودته، فيحرمنا جميعاً من خفة ظله ومن قصائده الحماسية التي حفظناها صغاراً، ومن صولاته في الكنيست في وجه شامير وشارون ونتنياهو وهو يرفع قبضة يده ويعصرها عصراً بأصابعه ويصيح باللغة العبرية:
«تطردونني من الجلسة لأنني أنا من يمسك بكم جميعاً من خصيانكم، نعم. من خصيانكم يا قتلة الأطفال»
يَجُرُّه الحراس جَراً خارج القاعة وهو يواصل شتائمه بدون توقف. رأيت مشهده هذا حين تناقلته محطات التلفزيون. قلت سأكتب هذا الشاعر إذ يعصر قبضته عصراً ويزأر وهو يعلم أن لا جدوى، وها أنا أفعل.
غادرنا مدينة الناصرة كما غادرها السياح اليابانيون. ركبنا السيارة قاصدين يافا وحيفا. يافا المدينة التي أراحت البحر الأبيض المتوسط من عبء اسمه الطويل فأصبح كل فلسطيني يكتفي بأن يسميه «بحر يافا».
أما حيفا فهي المدينة التي بناها الخيال كما يشتهي وكما تشتهي المدن أن تُبنى. الصعود إلى جبل الكرمل والنظر منه إلى المدينة وبحرها صعود إلى معنى الجَمال. صعدت إلى الكرمل فقلت أنا الآن فيها، في حيفا. هذه «مدينة جميلة». قل هذا ولا تزد. ولن أزيد.
يبدو أن تميم ظن أني غفوت، دخل يستحم وعاد ينتظر خطتي وهو ما زال يتأمل الأثاث القديم لعمر الصالح البرغوثي، جهاز هاتفه الأسود، صالونه الذي كان فاخراً في زمانه، وجزءاً من مكتبته.
في المستقبل سوف يصدر كتاب «المراحل» وهو كتاب ضخم يحتوى على مذكراته من أواخر القرن التاسع عشر حتى سنة وفاته في رام الله عام ١٩٦٥ وسوف أشتري نسخة منه من معرض القاهرة للكتاب. الجزء الثاني من «المراحل» مذكرات سياسية تغطي مرحلة الانتداب البريطاني على فلسطين، والعمل السياسي والحزبي والثقافي والتربوي لمحاولة إنقاذها من المخطط الصهيوني الرامي إلى إقامة دولة لليهود على أنقاض مدننا وقرانا. وهي مذكرات بقلم محام متمرس في التحليل السياسي، أما الجزء الأول الخاص بالعائلة وبقرية دير غسانة، ففيه مباهاة وتفاخر بكل ما يخص آل البرغوثي. شيخ العائلة يمجدها حتى التقديس ويجهد نفسه في تسجيل كل ما يميّزها عن العائلات الأخرى، كأنها «عائلة الله المختارة». لكنه لا يلبث أن ينسى نفسه فيصف ظلمها للمرأة وظلمها للضعفاء من حولها ويروي كيف أن البراغثة أرسلوا أبناء «النَّوَر» (أي الغَجَر) المقيمين في أطراف دير غسانة بدلاً من أبناء العائلة للتجنيد الإجباري العثماني، وأنها عائلة امتلكت «عبيداً» وهذا «أمر طبيعي في ذلك الوقت»، وأن فقير العائلة كان يمشي «بكتف مائلة» علامة على أنه «يعمل» لينفق على عائلته بينما البرغوثي عموماً لا يحتاج إلى العمل الشاق. أما المرأة فلا يجوز لها أن تواصل سيرها إذا مر رجل بجوارها بل عليها أن تجلس القرفصاء حتى يمر الرجل ثم تكمل سيرها. ويتفاخر بلباس البرغوثي لأن «البرغوثي له جيب» بينما الفلاحون في القرى الأخرى يضعون نقودهم في غطاء الرأس أو في الحزام. أقرأ افتخاره

بالجيب:
إن القرويين يضعون كثيراً من حاجاتهم في لباس رأسهم بين اللبدة والطربوش. وإذا كان أحدهم يعتمر حطة وعقالاً وضع أوراقه ونقوده في حزامه، فمخزنهم لباس الرأس أو الحزام، ولكن البرغوثي كان يرى في هذا غضاضة ويضع حاجاته في جيوبه. وقد حدّثني أحدهم أن عدداً كبيراً من المخاتير طُلِبوا إلى مُتَصَرِّف القدس، وكَلَّفهم بختم معاملة، فكلّهم أخرج خاتمه من حزامه إلا مختار دير غسانة فقد كان خاتمه في جيبه، وهنا سأله المتصرف «هل أنت برغوثي» فأجابه «بنعم».
سأضحك طويلاً على هذه الفقرة وأخبر بها أصدقائي فينتشر بينهم السؤال التهكمي الذي يرمونه في وجهي كلما التقينا:
— هل لك «جيب» يا مريد؟
فأجيبهم متواطئاً:
«أنت إذاً برغوثي».
أدخل لأستحم وأبدل ملابسي،
ثم، وكأن التوقيت محسوب بالثواني، يقرع جرس الباب.
يجيء أنيس وحسام وأبو يعقوب ونذهب معاً لتناول الغداء عند أبو حازم. أصطحب تميم بعد ذلك في جولة في رام الله والبيرة فيستغرب تداخل المدينتين، الجانب الأيمن من أحد الشوارع يقع في البيرة والجانب الأيسر يقع في رام الله. آخذه إلى المنارة ومدرسة رام الله الثانوية وبطن الهوا وكنيسة الله ومدرسة الفرندز للبنات ومدرسة الفرندز للبنين ومقهى زرياب وبوظة رُكَبْ ومكتبة بلدية رام الله العامة ومركز الفنون ومسرح وسينماتيك القصبة ومركز السكاكيني الثقافي وشارع الإذاعة
— كنا نسميه شارع العشاق في الخمسينيات.
— لا يبدو كذلك الآن. أين العشاق؟ أين البنات؟ أين الأشجار؟
— كل شيء يعود إلى الوراء، في كل مكان فيما يبدو.
— تبدو رام الله مثل القاهرة، مدينة «شرعية».
— كان طلاب وطالبات المدارس الثانوية، رام الله والفرندز والهاشمية وغيرها يخرجون قي نزهاتهم بعد الظهر وفي أيام العطلة يتمشون هنا ويتواعدون هنا وكانوا يتفننون في أشكال الغزل ولفت النظر. قصص حب بلهاء وأخرى عظيمة ولدت هنا، وفضائح وإحراجات و..
— حياة طبيعية يعني.
في المساء نتعشى في البردوني. نتفق مع حسام على اللقاء صباحاً لتدبير «التسلل» إلى القدس. عدت وتميم ليلاً إلى عمارة الياسمين. خرجنا إلى الشرفة فبدت القدس هلالاً عظيماً من الأنوار يكلل هدوء الليل.
بين الغفوة والصحو، أعود ولداً في المدرسة ذات الأقواس المتجاورة، في سن أصغر قليلاً من سن تميم الآن. أقول هل كنت أقل وجعاً منه تلك الأيام؟ كان المكان لي وكان جسدي حراً في مدينة حرة لا تعرف العبوس ولا التزمت الأخلاقي الذي تعيشه القاهرة وكل المدن العربية الآن، في جامعة القاهرة تم هدم الكافتيريا الجميلة وتم إلغاء الكافتيريات في كل الجامعات المصرية لئلا يجتمع الطلاب بين مواعيد محاضراتهم وبذلك لا يعود هناك مجال للحديث في السياسة ولا يعود

هناك مجال لقصص الحب، تسعون بالمائة من الطالبات تحجبن أو تنقبن تديناً أو مجاراة أو تحريضاً أو فقراً أو عدوى.
في مساحة الخدر اللذيذ حيث للدنيا ملمس القطيفة ولذة الخوخ، وشهوات المراهقة تقدح في جسدي الصاعد، كنت أذهب في نهاراتي مع الأصدقاء إلى حدائق المدينة ومقاهيها ومتنزهاتها، نخفي رفيف القلب عن الأهل إذا تعرَّفَ الواحد منا إلى فتاة. نكذب حتى نتنصل من الواجب المدرسي لنخرج ونتبادل الزيارات والهدايا الصغيرة في أعياد ميلادنا ونرقص ونلهو ونرتكب الحماقات الصغيرة.
في الليل، كل ليلة تقريباً، كنت أذهب إلى الشعر. أكتب وأمحو، وإلى القصة القصيرة، أكتب وأمزّق. وإلى الرسم بقلم الرصاص دون أن أحتفظ بما أرسم.
وفي الصباح المدرسي كان كل شيء يدعو إلى حب المدرسة لأنها مجتمع أوسع من البيت ولا مصدر للتنغيص فيها إلا امتحان الرياضيات وابن صفّي «محمد بَصَلَة».
كان «بَصَلَه» يحصل على ترتيب «الأول» في الصف كل سنة وأنا أحصل على ترتيب «الثاني» وكان هذا يثير أعصابي كلما أعلنت النتائج آخر السنة، وذلك لأنني لا أعرف سبباً يجعل درجتي النهائية أقل من درجة محمد بَصَلة بعلامة واحدة دائماً. ظل الوضع هكذا إلى أن حصلت أنا في إحدى السنوات على ترتيب الأول وجاء ترتيبه هو «الثاني». يومها ذهبت إلى السينما ودعوت أصحابي احتفالاً بذلك الانقلاب وشاهدنا فيلم «الملك وأنا» من بطولة يول براينر في سينما «دنيا» ولم نفهم منه شيئاً في ذلك الوقت لأننا كنا أكثر انشغالاً ببنات رام الله من حولنا في الصالة الأنيقة.
كان الوقوع في الحب، كاحتمال متاح وممكن في رام الله، يفعل في جسدي وروحي ما يفعله الحب المتحقق. كانت مراهقتنا تعلقاً بالدنيا والموسيقى والصور والألوان والمطر الأول في أيلول والثلج الأول على التلال وامتناناً لأي عائلة تزور أهلنا مصطحبة ابنتها. كنا نجرب كل فنون إبداء الاهتمام، الرقة والعدوانية والإهمال المتعمد والتمادي وإبداء الخجل وادعاء الخبرة وكثرة التجارب ودائماً يحب الواحد منا أن يبدو أكبر سناً مما هو عليه في الحقيقة. كانت البنت تجرب كل أسلحتها دفعة واحدة، الحياء والشجاعة والتراجع والإقدام، سد السبل ثم تركها مواربة قليلاً، وعندما تسير في شارع الإذاعة كنت أشعر أنها تَرى من الخلف دون أن تلتفت إلى الماشي وراءها فتضبط إيقاع خطوتها حسبما ترى، تسرع أو تتمهل على هواها موجهة بذلك رسالتها الصامتة بالتشجيع أو بالصدّ. كان هذا بحد ذاته فاتناً.
كانت لذة اكتشاف الجسد باباً للتعلق بالحياة وعشق أخطائها الصغيرة وطموحاتنا الخيالية والواقعية فيها.
موسى عبد السلام يحلم بشراء عود ليعزف عليه ألحان معبودنا المشترك فريد الأطرش.
وعمر ذيب يحلم بكاميرا حقيقية ليعلقها على كتفه ويخطر في الشوارع متشبهاً بالسياح الأجانب.
عادل النجار وفؤاد طنوس يجمعان كل أسطوانات البيتلز لتعقد حولها السهرات.
ورامي النشاشيبي وباسم خوري لا يكفان عن صنع المقالب المرحة.
كنا متفوقين في الدراسة. وكنا نخرج في المظاهرات تأييداً للجزائر وحباً لجمال عبد الناصر ولومومبا وكاسترو وهو شي منه. ونتابع بحماسة لا حد لها أخبار الوحدة بين مصر وسورية وتشكيل أول جمهورية عربية متحدة في تاريخنا الحديث ونحزن بعد ذلك على الانفصال. فرحنا بعد ذلك للتحول الاشتراكي في مصر عبد الناصر، وشاركنا في مظاهرات تطالب بالوحدة العربية

الكاملة. كنا نحلم بالسفر إلى الجامعات وإكمال التعليم والعودة والعمل لمساعدة عائلاتنا لنكون أولاداً نافعين ذات يوم.
تلك الرام الله التي أستعيدها بخيالي هي الوهم ذاته الآن. إنها ليست رام الله التي أقدمها لتميم اليوم. كأنها، ومعها القاهرة وبيروت ودمشق وكل المدن العربية، كانت وهماً في خيالاتنا لا حقيقة. يقول فقهاء الفضائيات والأصوليون الإسلاميون إن البلاد ضاعت والهزائم تتالت فوق رؤوسنا بسبب تحللنا الأخلاقي وبُعدنا وبُعد جيلنا عن الدين. هؤلاء كرهوا عبد الناصر وكرهوا الوحدة وكرهوا الاشتراكية، وكرهوا جيلنا كله. لم أفهم هذه الاتهامات أبداً. كان هنا ببساطة مدينة تتزين في الأعياد وبنات وأولاد يمرون في أماكنها وأسطوانات نسمع موسيقاها بشغف وقلوبنا جاهزة للخفقان بما كنا نظنه الحب. نحن قي نظرهم سبب الهزيمة.
عالم تميم، غير عالمي أيام كنت في مثل سنه. أسير معه في شارع العشاق وأدرك أن كل شيء لم يعد كما كان. الشارع والسياسة والأحزاب والدين والحب والمال والزيارات والدراسة واليسار واليمين وملابس النساء وأفكار الناس وسياسات الأحزاب كلها تغيرت بحيث بدا أن العصر كله قد تغيّر. وحده الغائب عن الوعي يمكنه الزعم أنه يعيش الآن ذلك الخدر اللذيذ حيث يبدو أن للدنيا ملمس القطيفة ولذعة الخوخ.
لا أقول إن ماضي المدينة كان زاهياً، كان هناك فقر. كان هناك سيطرة المخابرات الأردنية ومطاردة الأحزاب والشخصيات الوطنية. كانت النكبة حاضرة في عيون الناس حتى لو التفتوا إلى مباهجهم الصغيرة. منذ ضياع فلسطين لم تعد لدينا حديقة للورد الخالص، إنها الغصة في كل بهجة والأفعى في كل الشقوق.
لا أبكي على أي ماضٍ، لا أبكي على هذا الحاضر، لا أبكي على المستقبل. أنا أعيش بالحواس الخمس، أحاول أن أفهم قصتنا، أحاول أن أرى. أحاول أن أسمع أصوات العمر. أحاول أحياناً أن أروي. ولا أدري لماذا. ربما لأن كتب التاريخ لن تكتب ما أكتبه.
أبدأ صباحي بالاتصال ب«أبوساجي». أوقظ تميم. نصل إلى مكتبه في الموعد.
أقدم له أوراق تميم وصوره بالمقاسات المطلوبة وأتركه يعبّئ نموذجاً لطلب الحصول على الهوية الفلسطينية.
ينضم إلينا حسام ليأخذنا بسيارته إلى القدس في مغامرة قد تصيب وقد تخيب، وعندما لاحظ قلقي قال:
— سنرى الوضع على الحاجز فإذا كان مزدحماً فهذا يعني أنهم يدققون في التفتيش على التصاريح، ساعتها سنستدير عائدين من حيث أتينا دون أن نصل الجنود.
— ألا توجد طريقة أخرى؟
— لا توجد طريقة أخرى.
— أليس الأفضل الذهاب في سيارة بلوحة إسرائيلية صفراء؟
— دعنا نجرب اليوم فإن فشلنا أرتب الأمور مع «سام»، سيارته لوحتها صفراء.
نذهب. يتحقق الاحتمال الأول. ازدحام السيارات عند حاجز قلنديا لا يبشر بالخير. يعود بنا حسام إلى رام الله. نتناول الغداء مع مروان البرغوثي والعشاء في مطعم زعرور.
في اليوم التالي نذهب إلى سام وننطلق بتفاؤل أكبر هذه المرة وإن كان القلق لم يتبدد تماماً. تسرني رفقة سام وأحب شخصيته التي اجتمع فيها الذكاء وطيبة القلب والدقة في اختيار الكلمات أياً كان

الموضوع. ندخل في زحام المنتظرين ونتقدم متراً متراً باتجاه لحظة التوتر الكبرى.
نصل الحاجز.
ينظر الجندي الإسرائيلي بإهمال إلى وجوهنا ويشير بالمرور دون أن يطلب هوية أحد منا. ينط تميم من مقعده فرحاً ويقبّل رأس سام ويشكره.
سام يجيبه بالعربية ولكن بلكنة أهل «البيرة» المولودين في أميركا:
— تميم، أنت الآن على أبواب القدس.
قبل أن ندخل المدينة نتوقف لنشتري أي كاميرا تفي بالغرض (كالسياح تماماً). نصل إلى باب العمود.
كم بدا ذلك الجندي الإسرائيلي صغير الحجم وهو واقف برشاشه داخل طاقة فوق السور الشاهق العتيق، حسبته وحده هنا لكنه أصبح جنوداً، في كل طاقة من طاقات السور جندي وعلى جانب الدرج المؤدي للباب جنود آخرون أصابعهم ملتصقة بالزناد كأنها جاءت هكذا من مصنع الأسلحة مباشرة. عيون الجنود مسلطة علينا رغم أن آباءهم أفهموهم أنهم أقاموا دولتهم على أرض بلا شعب، أرض ليس فيها أحد من العرب وليس لها صاحب. في الشارع العام سيارات للشرطة يجلس فيها ويقف بجوارها أفرادها المسلحون أيضاً.
يهجم تميم على كابينة تليفون في الشارع ونطلب رضوى في القاهرة.
— ماما أنا في القدس. أنا في باب العمود. أنا وبابا في القدس.
أنظر إلى تميم في كابينة التليفون. أراه في حضن رضوى خارجة به لتوها من مستشفى الدكتور جوهر للولادة، واقفة على شاطئ النيل أمام باب المستشفى تماماً، بفستان صيفي خفيف ذي نقوش وردية صغيرة، تحمل تميم بين ذراعيها وتنظر إليه، عمره يومان اثنان فقط، عيناه مغمضتان اتقاء لشمس منتصف حزيران، لكنه ليس نائماً. سيارتنا تنتظر أن تحملنا إلى البيت بعد أن أصبحنا أماً وأباً وابناً. الابن له اسم أودع في السجلات والدفاتر وإحصاءات الحكومة. الاسم يخصه ويصفه لكن الابن لا يعرفه. هو لم يدخل المجتمع ولا الطوائف ولا العقائد بعد، هو الآن حياة تتكون. تطلب الهواء والحليب والدفء والنعاس لتصحو من نومها فتعيد طلب ما نالت يوماً بعد يوم حتى تنشأ لها مطالب جديدة. هو الآن لا يعي حدود البلدان التي يشقينا اجتيازها، ولا يعرف معنى الساعات التي في معاصمنا. إنه الحياة في جسد صغير وفي روح تتشكل على مهلها، لكن هذا الجسد الصغير، أينما ذهب وأينما ذهبنا، أصبح اسمه ابن مريد ورضوى وأصبح اسمنا «أم تميم» و«أبو تميم».
— خُذ لنا صوره هنا يا مريد، وطلّع النيل في الصّورة.
في بيتنا في «المهندسين» أخذت أتدرب على حمله بين ذراعيّ بطريقة سليمة، ما كدت أتقن حمله وأتعلم بعض الأصوات والحركات التي تجعله يستجيب بالالتفات لوجودي أو بابتسامة أو ضحكة حتى طردتني الحكومة المصرية. طردت علاقتنا العائلية وطردت أساليبنا في الحياة وطردت زواجنا وتربيتنا المشتركة، رضوى وأنا، للطفل الجديد.
لم أرافق طفولته ولم يرافق أبوّتي أكثر من خمسة أشهر وخمسة أيام. غبت عنه سبعة عشر عاماً رأيته خلالها على فترات متقطعة.
حل عيد ميلاده الأول وأنا أبدأ عامي الأول في منافي العالم. أرسلت له هدية عيد ميلاده في مغلف صغير بالبريد وكانت قصيدة عنوانها «تميم» وتاريخها ١٣/٦/١٩٧٨

نَما واحْتَمى بالجَمالِ وأجَّلَ خَوْفي
وعاجَلَني الشَّوْقُ في بُعْدِهِ
وأَصْدُقُ لو قُلتُ إن النَّوافذَ
والضَّوْءَ والعشبَ تُشْبِهُهُ
وإن القَصائِدَ لا تَستطيعُ اللحاقَ بهِ
فما زال يَعْدو ويَعْلو
وللشِّعْرِ عكّازتانْ.

ندخل من «باب العمود» إلى سوق «خان الزيت» المعتم نسبياً. نشق طريقنا بصعوبة في السوق المزدحم بالمارين والباعة والمشترين لكنا لا نرى إلا عدداً قليلاً من السياح الأجانب. إسرائيل نجحت في تحديد مسارات للسياح تقتصر على البازارات اليهودية التي أقامتها بعد احتلال المدينة عام ١٩٦٧ بحيث يأتي السائح إلى القدس العتيقة ويغادرها دون أن يدري أن هناك حيّاً عربياً فيها يعج بالبازارات ومحلات بيع التحف والقلائد والمنحوتات الإسلامية والمسيحية، مما دمر المورد الاقتصادي الأول للمقدسيين العرب. نمر على حلويات زلاطيمو وكنافة جعفر لكن تميم يفضل أن يشتري قطعة بسبوسة.

نواصل السير إلى «طريق الآلام».

يدهشني أنني الآن أسير فيه «والداً» بعد أن سرتُ فيه «ولداً» قبل نصف قرن، وأنّ ابني يسير الآن إلى جواري.

أتساءل: هل قُدْسُه قدسي أنا أم هي غيرها؟ أنا رأيتها طفلاً ثم كهلاً وضاعت مني بين المرحلتين. تميم يبدأ التعرف عليها شاباً الآن.

أجيئها بعد الغياب وأجدني، دون إرادة مني، أقارن الحجر بالحجر وأضاهي الشارع بالشارع ومدرستي بمدرستي وأتفقد محل الأحذية المفضل بالنسبة لي. ما كان يعنيني هو أن أشتري حذاء يعجب المراهقات في حديقة رُكَبْ أيام الأحد، أو كنزة صوف أصليّة تريح أمي من سهر طويل بصنّارتين مُرهِفتين لأجلي. تميم هنا يحكّ حجَر الطريق بحجَر الخيال. يضاهي واقعية المسجد والكنيسة والصلبان والأهلّة بصورها القادمة من لذة الحكاية والكتب الملوّنة والإحصائيات وسحر التسمية. يعدّ البوابات العتيقة لتتأكد عيناه من دقة ما سمعه من الراوي بأذنه. كنت أنا الراوي. الآن هو داخل المشهد الروائي، المشهد الروائيّ كما هو على أرض الحياة ذاتها، دون حاجة لأي وصف. لكني أقول لنفسي: الخيال لا يلغيه أي واقع. فالواقع الذي يباغتنا سرعان ما يستولد في البال خيالاً آخر. وأكاد أسأل هل هناك «حقيقة» خارج «الخيال» الإنساني؟ وتحيّرني الإجابة.

لا أعرف إن كانت دهشتي مبررة عندما طلب مني تميم أن ألتقط له صورة فوتوغرافية تحت يافطة هذا الشارع: «طريق الآلام» وتحتها بالإنكليزية Via Dolorosa وفوقها كلمتان بالعبرية. كان من المستحيل أن يخطر ببالي أن أقف «لأتصور» بالكاميرا هنا أو في أي مكان آخر في القدس. كان كل شيء مستقراً في مكانه وآمناً وطبيعياً كوجودي أنا في المكان، كانت خطى المسيح على طريق الآلام من «باب الأسباط» إلى «كنيسة القيامة» مجرد حقيقة من حقائق المدينة ومن أوصافها كالطقس والأشجار والأسوار العتيقة. كان «طريق الآلام» شارعاً نمر منه، مجرد شارع ضيّق نقضي فيه أشغالنا واحتياجاتنا، أو نمر منه إلى ما يجاوره، وكل ما يجاوره من مقدسات بما لها من أسماء وما يدل عليها من منائر ومساجد وكنائس وصلبان وأجراس وأعمدة وقباب ومقابر

السلاطين والقدّيسين، كان هو العادي المألوف الباقي في مكانه، لا أفكر في مصيره ولا أتوقف عند مغزاه. كان «التاريخ» شارعاً ودكاناً وحلوى وأحذية ومدارس وعشباً عنيداً على الجدران، مشاجرات مراهقين وشهوات ممكنة أو عصيّة، لا مَعْلَماً تُلتقَط عنده الصور. كان التقاط الصور «شغلة» السياح والحجاج اليابانيين والأوروبيين والأميركان. لا «شغلتنا» نحن.
يميل بنا الطريق الضيق قليلاً إلى السوق المسقوف ثم يوقفنا حارسان عربيان عند باب صغير وقد شاهدا الكاميرا في يد تميم.
ـــ سيّاح؟
ـــ لا. من أهل البلد.
ـــ أهلاً وسهلاً، اتفضلوا.
نجتاز الباب.
فجأة، يسطع الضوء على كل الأفق، ننسى الشوارع الضيقة المعتمة كأننا انتقلنا إلى كوكب مكتَشَفٍ للتوّ.
تنفرد السماء على آخرها، كأنها استيقظت بكل طاقتها لتبدأ صباحها وقد نسيت بعض مخدّاتها البيضاء غيماً منثوراً، بغير ترتيب، على ملاءة سريرها السماويّة اللون.
ها هي قُبّة الصخرة.
قف أيها الغريب في ظلالها،
تأملْها بالحواس كلها
تأمَّلْ أنك أنت الغريب فيها اليوم.
أنت الغريب عنها يا ابنها ويا صاحبها ويا مالكها بالعين والذاكرة والورق والتاريخ والنقوش والألوان والأشجار والآيات والقصائد وشواهد القبور الطاعنة في شيخوختها.
قف أيها الغريب وانظر:
ها هي قبّة الصخرة!
يتذهَّب نور النهار على القُبَّة الذهبيّه بهلالها الضخم وبأضلاع مبناها المثمّن المنقوش بالأزرق العتيق وبابتهالات الحجاج وأنفاس المصلّين.
المسجد الأقصى وقبة الصخرة جنباً إلى جنب، حولهما وبينهما أشجار السرو والكينا والنخيل وأشجار أخرى لا أعرف لها اسماً، عمرها مئات عديدة من السنين، على يميننا نرى المصلين داخلين وخارجين من المسجد منذ مئات السنين كما نراهم الآن. لا جديد في الأمر إلا الاحتلال. هكذا أصبح تمكُّنُ الفلسطينيّ من الصلاة هنا حلماً يتجاوز التعاليم الدينية إلى كونه «كفاحاً» سياسياً أيضاً.
اليوم يتحقق حلم تميم. يصلّي تحية للمسجدين، يريد تسجيل صلاته في تاريخه الشخصيّ وفي هذا المكان الذي من عاداته أن ينادي على الحواس الخمس لكل من يراه: لا تكسلي أبداً هنا. لا تكسلي هنا أيتها الحواس. قومي بواجباتك كلها الآن. اعملي عملك على أكمل وجه. طوفي شمّي أبصري المسي تذوقي تعلّمي كيف يصبح التاريخ حجراً وكيف تصبح الهوية مبنى.
لا يلتقط تميم صوراً ولا يطلب منا أن نصوره. ودون أن يشرح أحد لأحد شيئاً قرر الكل فيما يبدو أن الكاميرا ستجعلنا سياحاً إلى الأبد. ألقينا بها في أقرب سلة مهملات. لكننا، كسياح اليوم الواحد تماماً، أسرعنا بالذهاب إلى كنيسة القيامة ومسجد عُمَر الذي يحاذيها والذي بني في نفس المكان

الذي صلى فيه الخليفة عمر بن الخطاب عند فتح القدس رافضاً الصلاة في كنيسة القيامة لئلا يحوّلها المسلمون من بعده إلى مسجد بحجة صلاته فيها، أراد أن يبدي احترامه للكنيسة وأراد أن يحترمها المسلمون من بعده إلى الأبد. أراد إبقاءها كنيسة مسيحية، وهكذا ظل صليبها «العتيق» يجاور الهلال «الجديد» إلى يومنا هذا.

أَتْعَبَتْنا القُدس. أعني أَتْعَبَتْ كلَّ البَشَر، لا أعرف مدينة على كوكب الأرض أتعبت أهل الأرض كالقدس. مدينة ترفض أن تكون مدينة. أرض ترفض أن تكون أرضاً. وكيف تكون والمقدس يتكدس فيها، وعليها، وحولها، طبقة فوق أخرى وعلى امتداد كل العصور؟ ربما كانت أرضاً قبل إلمام الناس بشكل دنياهم وقبل أن تصلنا أخبار الله، وقبل أن تطأها صنادل الأنبياء ذات السيور الجلد وخطى اليقين. ربما كانت أرضاً يوماً ما لكنها، بكل هذا المقدس، أصبحت، للأسف الشديد، قطعةً من السماوات. هنا سال المقدس غماماً ومعنى وخيالاً، حتى فَقَدَ الحَجَرُ حَجَرِيَّتَهُ والشارعُ شارِعِيَّتَهُ. طارتْ سَقْفِيَّةُ السُّقوف والقِباب فصارت المعاني سُقوفاً للمباني وارتفعت التآويل، كلما أمسك بها العقل لعلها تتضح، أزاحتها يد الغموض. صلابة القدس سالت ابتهالاتٍ وصلوات. حتى هذا السور الغامق الشاهق الثقيل حولها يبدو قادماً من حلم عتيق يتكرر كلما اجتاز مؤمنٌ أقواسَه وبواباتِه، حلم يتيح للقادم أن يحياه ويُلحُّ على المُغادِرِ أن يَشتهيه. زحَفَتْ إليها خيولٌ على رُكَبِها المجروحة تصهل تحت أشواق فرسانها المستعدّين للموت. تعاقبتْ عليها المعابد سكناً لروح الإنسان، فأخذت تعلو وتعلو عاماً بعد عام، وقرناً بعد قرن، حتى أصبحتْ جزءاً لا يتجزأ من السماء. وتريد القدس أن تظل سماءً، وغامضة وملتبسة كالسماء.

لكن القدس أرض.

وهي أرض محتلة.

أرض ومحتلة بجيش قويّ، وظيفته الوحيدة أن يبعد جسدي وصوتي وخطوتي وذاكرتي عنها وأن يمنعني إلى الأبد من الوصول إليها. العالم ليس عالم أرواح وغمام. العالم دُوَلٌ وجنودٌ وحدودٌ وجوازاتُ سَفَر، تأشيراتٌ وتفتيشٌ إلكتروني وقوانين بناء وضرائب وتصاريح إقامة وسيارات تسير بالبنزين لا بالصلوات. الشرطي وحده الآن هو من يسمح لنا بالصلاة أو يمنعنا عنها. الشرطي الإسرائيلي الآن هو رب المدينة أو يرغب أن يكون رباً. الشرطيّ المسلّح هو من ينظّم ويقرر، لا السماوات ولا التمائم، لا حسرة فاقديها ولا صبوات عشاقها.

القدس مدينة كالمدن.

تسألني منذ متى أصبحت القدس مدينة كالمدن؟

وأنا أجيبك: منذ تجاوز عدد الجنود فيها عدد مقدّساتها آلاف المرات.

منذ زمنها العتيق عندما اختارت سماويتها، قرر الجنود أن يحبّوها بإشهار السلاح في وجه التاريخ.

القدس مدينة ككل المدن منذ بنيت حولها الجدران ونقاط التفتيش ومنذ ملأتها المراكز الحكومية والمخبرون وكاميرات التلصص على أعمدة الكهرباء، وقوانين الجنسية ومخافر البوليس ومعسكرات الجيش وجلسات التعذيب ورقص الغزاة في أعياد انتصارهم عليها لا في أعيادها هي.

والقدس أصبحت مدينة منذ أن أصبحت مُحَرّمَة علينا.

قلت لتميم سآخذك إلى «بيت الشرق».

فيلا جميلة باذخة، دارة «أرضية جداً» بناها البناؤون بعضلاتهم الدنيوية، وشربوا شاياً كثيراً

واشتكوا شدّة البَرد والحَرّ وسوء الأجور، ككل عمارة وبيت ودكان على أرض البشر.
في «الأورينت هاوس» كما اشتهر اسمه، كان يداوم المرحوم فيصل الحسيني يدير شؤون المدينة ويمثل منظمة التحرير. هنا كان ضيوف القدس من قياصرة وملوك وسفراء يُستقبلون ويتنقلون بين الردهات الأنيقة. هنا مكاتب للخرائط والإحصاء يشرف عليها خليل التفكجي مسؤول الخرائط في بيت الشرق، وأكثر الفلسطينيين خبرة وتخصصاً قي سياسات الاستيطان ومحاولات تهويد المدينة بطرد سكانها العرب، لم تكن إسرائيل قد اتخذت قرارها بإغلاق بيت الشرق ومعه كل مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في المدينة بعد.
ذهبنا وتحدثنا إلى خليل التفكجي الذي يكاد يحفظ تاريخ كل بناية وكل بيت في القدس. طلب منه تميم الاطلاع على بعض الخرائط من أجل بحث جامعي يعده فصور له ما أراد، بدأ تميم بشرح احتياجاته في البحث.
قال له التفكجي بحزم العلماء الذي يعجبني:
ـــ إسألني أسئلة مباشرة وقصيرة كسباً للوقت.
في المستقبل سوف يقتحم الجيش الإسرائيلي بيت الشرق وتقرر حكومة إسرائيل إغلاقه وإغلاق كل المباني التي يدار منها أي عمل فلسطيني وبحجة أن القدس لا تخص الفلسطينيين. سوف تندلع الاحتجاجات والاعتصامات والمظاهرات مطالبة بفتحه دون جدوى وسوف يظل مغلقاً إلى إشعار آخر.
من بيت الشرق ذهبنا إلى معرض للنقش اليدوي على الخزف والسيراميك تديره عائلة كانت قدمت من تركيا لترميم زخارف الحرم الشرف وواصلت الإقامة في القدس بعد ذلك، واشترينا أطباقاً جميلة ومصباحاً كهربائياً قاعدته البيضاوية خزف عليه نقش يدوي بلون من مشتقات الأزرق ورسوم لنباتات وَرَقِيّة وعروق خضراء، ومزهرية منقوشة على المنوال ذاته هدية لرضوى في القاهرة، نعم ففي القدس يشترى أبناء الله ويبيعون صحون الطعام والقمصان والفواكه والأحذية والجوارب والزهور والمخللات والسيارات الحديثة وأدوات المطبخ وأسهم البنوك وعلب السردين وأوراق اليانصيب والساندويتشات (لا أريد أن أقول الشطائر، لا تعجبني كلمة الشطائر ولا تعجبني معظم اقتراحات مَجْمَع اللغة العربية.)
في نهاية زيارتنا «السياحية» المسروقة إلى القدس، وكسيّاح اليوم الواحد أيضاً، تناولنا عشاءنا في حديقة مطعم فلسطيني قديم ومنه انطلقنا عائدين إلى رام الله.
لم يوقفنا الجيش الإسرائيلي على الحاجز.
الخروج من القدس مسموح. بل مسموح جداً، وفي كل الأوقات، وإلا فكيف سيتم تهويدها وإخلاؤها من سكانها العرب؟
اترُكوا طريق المغادرة مفتوحاً دائماً. أَغلِقوا طريق العودة دائماً. وإلا فما معنى الاحتلال؟
في السابق، كان تميم يرى القدس بعينيّ أنا ومن خلال الحكاية. أما اليوم، وللمرة الأولى، فإنه يراها بعينيه هو.
إنها تخصه الآن.
لا أعرف ما استقر في عينَيْه من القدس، ولا أملك أن أكتب شيئاً من ذلك. لكنه في المستقبل، بعد بضع سنوات، سيترك فلسطين كلها تعرف، عندما يكتب قصيدته «في القدس» والتي ستصبح أشهر قصيدة عربية أعرفها عن هذه المدينة.

الفصل الرابع وُلِدْتُ هُناكْ، وُلِدْتُ هُنا

الاحتلال مطّ المسافة بين تميم ودير غسانة أكثر من إحدى وعشرين سنة هي عمره كله. تميم قطع الكثير والمسافة بدأت تقصر منذ حصلنا على التصريح. الآن، سبعة وعشرون كيلومتراً فقط هي ما يفصل بين تميم ودير غسانة. كان يعرف أنني ولدت «هناك»، وبعد نصف ساعة فقط سأقول له: ولدتُ «هنا».

لست رجل سياسة لكن الاحتلال يشوّه ويخرّب أموراً تخصّني شخصياً وتخصّ غيري ممن أعرف وأحب. فالاحتلال كالدكتاتورية لا يفسد الحياة السياسية والحزبية فقط بل حياة الأفراد أيضاً، حتى من لا يتعاطى السياسة منهم. من أقسى جرائم الاحتلال «تشويه المسافة» في حياة الفرد، نعم الاحتلال يغيّر المسافات، يخربها، يُخِلُّ بها، يعبث بها على هواه. كلما قتل الجنود إنساناً اختلت المسافة المعهودة بين لحظة الميلاد ولحظة الموت. يغلق الاحتلال الطريق بين مدينتين فيجعل المسافة بينهما أضعاف ما تقوله خرائط الجغرافيا. الاحتلال يرمي صديقي في السجن فيجعل المسافة بينه وبين غرفة معيشته تُقاس بالسنوات وبأعمار أبنائه وبناته الذين سيأتون له بأحفاد لن يراهم. يطارد الاحتلال رجلاً واحداً في الجبال فيجعل المسافة بين نعاسه ومخدّته تقاس بعواء الذئاب، وعتمة الكهوف، وتصبح أوراق الشجر مائدته الوحيدة. يعلمه كيف يحوّل حذاءَه والحصى إلى مخدّة تحت رأسه، يتشابك فوقها الحلم والكابوس. جندي الحاجز يصادر أوراقي لأني لم أعجبه لأمر ما فتصبح المسافة بيني وبين هويتي هي المسافة بين غضبه ورضاه. يقف جندي الاحتلال على بقعة يصادرها من الارض ويسميها «هنا» فلا يبقى لي أنا، صاحبها المنفيّ في البلاد البعيدة، إلا أن أسميها «هناك».

يستغرب كثير من أصدقائي في العالم هذا التعلق بالمكان الأول وهذا الاهتمام بالعلاقات العائلية بين الفلسطينيين، بل إن بعضهم يسخر من هذه العاطفة ويقارن بينها وبين ارتياحه لفكرة المغامرة والاكتشاف والتنقل الدائم والعيش في أماكن يختارها ويغيرها على هواه دون أدنى أسف على ترك العائلة أو ترك الوطن ذاته، ويذكّرني بأن الدنيا أوسع وأجمل من «قرانا» و«عائلاتنا». وأنا أفهم هذا الإحساس الجميل برحابة العالم. أنا أيضاً، مثلهم، أحب التنقل والأسفار والعيش في أماكن جديدة. لكنّ ما لا يتوقف عنده هؤلاء الأصدقاء أنهم هم الذين «يختارون» ابتعادهم. هم الذين يتخذون القرارات ويضعون الخطط ثم يقدّمون جوازات سفرهم (المعترف بها من دول العالم كله) ويركبون الطائرات والقطارات والسيارات والدراجات ويذهبون إلى أماكن، تتوافر فيها ثلاثة شروط لا يتوفر أي منها للفلسطيني. أولاً، أنهم يفضلونها ويختارون الذهاب إليها، إليها بالتحديد. وثانياً أنها ترحب بهم دائماً. وثالثاً، وهو الأهم، أنّ بإمكانهم العودة إلى بلدهم في اللحظة التي يرغبونها والتي يقررونها هم أنفسهم. الفلسطيني الذي تم إجباره على اللجوء، والهجرة، والنفي من الوطن لمدة ستين عاماً منذ النكبة في عام ١٩٤٨ أو لمدة أربعين عاماً منذ حرب حزيران ١٩٦٧ يشقى في محاولة الحصول على وثيقة تعرّف به على الحدود، يشقى في محاولة الحصول على جواز سفر من دولة أخرى، لأنه بلا دولة، ويُرْغَم على الخضوع لتحقيقات «كافكاوية» قبل منحه تأشيرة دخول إلى أي مكان في العالم، حتى إلى الدول العربية ذاتها. الفلسطيني ممنوع من دخول بلاده براً وبحراً وجواً، حتى لو كان في تابوت. المسألة ليست في التعلق الرومانسي بالمكان، بل

في الحرمان الأبديّ منه. الفلسطينيّ المجرد من هوية أولى هو نخلة مكسورة من منتصف جذعها. أصدقائي الأجانب يتحكّمون في تفاصيل حياتهم، لكن بوسع جنديّ إسرائيليّ واحد أن يتحكم بتفاصيل حياة كل فلسطيني. هنا الفرق. هنا الحكاية.
جاء أنيس ليأخذنا بسيارته.
أنيس لم يتركنا ننتظر طويلاً فهو ابن عمنا الذي يحظى بمحبة جميع العائلة. اقترحنا على تميم أن يجلس بجوار أنيس في المقعد الأمامي ليرى أكثر ما يمكن من الطريق وجلست بجوار حسام ويعقوب في المقعد الخلفي. يعقوب حفيد «أبو حازم» فتى موهوب يدرس العزف على آلة القانون ويحفظ أغاني شعبية ظل يردد بعضها.
انطلقنا شمالاً باتجاه ديرغسانة.
لم يتوقف أنيس وحسام عن استعراض طرائف العائلة، ولم نتوقف عن الضحك طوال الطريق.
انهمك أنيس بتعريف تميم على كل القرى والأماكن التي نمر بها:
— هذه سُردا (لم يكن حاجز سُردا قد أقيم بعد)
— هذا مستشفى البَرَص.
— هذه جامعة بير زيت.
— الشارع على يسارك يوصل إلى كوبَر.
— بعد قليل نصل إلى حاجز عَطارة.
— حضّروا هوياتكم.
أمسكنا هوياتنا بأيدينا ووصلنا الحاجز.
لم يوقفنا الجندي الاسرائيلي الأول وكان واضحاً أنه يهودي إثيوبي من الفلاشا الذين دبرت إسرائيل خروجهم من إثيوبيا قبل سنوات معدودة بالتواطؤ مع جعفر النميري رئيس الجمهورية السودانية آنذاك. الجندي الثاني، وكان من يهود أوروبا ويشبه ممثلي السينما، أشار لنا بالمرور دون أي تفتيش ودون أي سؤال بل بدا لي أنه ابتسم لنا ملوحاً بيده. سررنا جداً لأن حاجز عَطارة هو الحاجز الوحيد بين رام الله ودير غسانة، مما يعني أن طريقنا سالكة الآن، قلت في نفسي إن تميم محظوظ.
قال حسام:
— طريقك خضرا يا تميم. مسهّلة إن شاء الله، ما دام عَطارة «سالك» فكل شيء على ما يرام.
قال أنيس بثقة:
— يعرفون سيارتي، لهذا لم يوقفوكم.
قال يعقوب:
— نمرتها حمرا كمان، يعني سيارة حكومية، سيارة سلطة.
سأل تميم:
— هل هم والسلطة حبايب إلى هذا الحد؟
أجاب أنيس:
— مش حبايب لكنهم يراعوننا. إحدى فضائل أوسلو اللي مش عاجب حبيبنا أبو تميم.
— يراعونكم ما دام أنتم تراعونهم.
— أين الغلط في ذلك؟

ـــ ما هكذا تكون علاقة الوطن بالاحتلال.
ـــ سنكمل هذا النقاش يا سيد مريد عندما نأتي لك بدولة مستقلة. ساعتها لا أدري ما الذي يمكن أن تقوله.
ـــ ساعتها سأقول لك ما قاله الشاعر إيليا أبو ماضي.
ـــ ماذا قال؟
ـــ قال «لست أدري».
ضحك أنيس وأدرك أنني بهذه الإجابة الساخرة أرغب في إنهاء النقاش السياسي.
ابن عمنا أنيس فتحاوي طيب، نظيف القلب واليد، لم يسع يوماً للاستفادة من حبه لياسر عرفات ودفاعه القلبي عنه وعن قيادة فتح في كل الأوقات، رغم سهولة الاستفادة. كنا نقول له إنك تؤيد قيادة فتح تأييداً رومانسياً ثم صعّدناها إلى تأييد صوفي ثم صعّدناها أكثر إلى تأييد إيماني ثم إلى تأييد على العمياني. لم يسمح لأحد يوماً أن ينتقد، بحضوره، منظمة فتح عموماً أو عرفات خصوصاً. واصلنا تبادل الطرائف العائلية والضحك المتواصل كأننا في نزهة في يوم عطلة.
واصل أنيس الشرح:
ـــ على يسارك مستوطنة «حلميش»، كل يوم يزيدون فيها البناء حتى تمددت إلى التلة المجاورة، وبعدها قرية بيت ريما ثم.. العاصمة..
واضح أنه كان سيقول عاصمة آل البرغوثي دير غسانة. لا يفوّت أي برغوثي الفرصة للحديث، بتفاخر طبعاً، عن الأسرة وعن دير غسانة، ولا يزعجه تندّر أبناء العائلات الأخرى على هذا التفاخر.
عندما احتلت الضفة عام ١٩٦٧ أخذ الناس يتكهنون متى سينسحب المحتلون الإسرائيليون وانقسموا بين متشائم ومتفائل. فال أحدهم:
ـــ أنا متأكد أن إسرائيل سوف تنسحب بعد سنة واحدة،
فأجابه صديقه وكان من آل الحسيني:
ـــ إنك تهذي. كيف ستنسحب إسرائيل من الضفة بعد سنة واحدة؟ «البراغثة» في الضفة من خمسمائة سنة ولم ينسحبوا بعد!
الطريف أن أنيس ما كاد يكمل عبارته حتى أوقف السيارة وأطفأ محركها تلبية لأمر من جندية إسرائيلية وزميل لها من الواضح أنهما حارسا البوابة الرئيسية للمستوطنة.
ـــ إلى أين؟
سألت الجندية باللغة الإنكليزية ـــ الأميركية،
أجابها أنيس:
ـــ إلى ديرغسانة.
ـــ إنزل من السيارة من فضلك.
ـــ نعم؟
ـــ إنزل من السيارة.
نزل أنيس.
ـــ الرخصة.
تميم استنتج أن «عمو أنيس» في مشكلة ما، وأراد الاستفسار ففتح باب السيارة وسأل بعفوية لا

يمكن فهمها في حلميش:
ـــ شو في يا عمو أنيس؟
فوجد رشاش الجندية مصوباً نحوه وصرخت في وجهه:
ـــ مكانك. أغلق الباب.
أنا رأيت طلب رخصة القيادة غريباً جداً، ظننت أن الجندية لا تعرف الإنكليزية جيداً وأنها قصدت «الهوية» لا الرخصة.
سألها أنيس باللغة الإنكليزية ـــ الأميركية أيضاً، وهو أكثر مني دهشةً:
ـــ أي رخصة؟
ـــ رخصتك أنت ورخصة السيارة.
قدم أنيس لها رخصة السيارة، وأخذ يبحث في محفظته الصغيرة عن رخصة القيادة فلم يجدها، وفي جيوبه ولم يجدها.
بدا التوتر واضحاً على وجه الجندية، أمرتنا جميعاً بالنزول من السيارة وعلى الفور انضم إليها الجندي ويده على الزناد، تحدث مع زميلته بالعبرية مستفسراً عن المشكلة، أجابته وابتعدت قليلاً ليقترب هو.
ـــ أنت مخالف للقانون، ومقبوض عليك، سنأخذك إلى «بيت إيل» للتحقيق وستنال عقابك. مفهوم؟
ـــ أنا وكيل وزارة التخطيط في السلطة الفلسطينية، هذه هويتي.
أخرج هويته فأخذها الجندي واحتفظ بها.
أكمل أنيس:
ـــ نسيت الرخصة في البيت. أنا ساكن هنا في دير غسانة، يعني أستطيع أن أحضر لك الرخصة في عشر دقائق.
تبادل الجندي مع زميلته كلمات بالعبرية
ـــ إنت مخالف للقانون.
ـــ وما شأنكم برخصة القيادة؟ هل أنت شرطي سير؟ شرطة السير الفلسطينية وحدها تستطيع مخالفتي، وسيكون لها الحق في ذلك. هذا ما تقوله الاتفاقيات بيننا.
ـــ لا أعرف الاتفاقيات، طز في الاتفاقيات. هنا قانون دولة إسرائيل فقط، مفهوم؟
من الواضح أن أنيس فكر بمخرج آخر وقرر أن يجربه لعل وعسى. أخذ يبحث في أوراق محفظته ثم أخرج شيئاً:
ـــ ثم أنا أحمل الجنسية الأميركية، أنا مواطن أميركي وهذا رقم التأمين الاجتماعي الأميركي، هل توقف مواطناً أميركياً؟
ـــ أنت مخالف للقانون الإسرائيلي، أريد الرخصة. ألا تفهم؟
ثم بدأ في الصراخ بأعلى صوته بلهجة تربوية آمرة:
ـــ هذه دولة إسرائيل، مفهوم؟ مفهوم؟ أنت تسوق سيارة في أراضي دولة إسرائيل.
رفعت المجندة سلاحها، وكرر الجندي صراخه بدرجة أعلى:
ـــ أنت تقود سيارتك في أراضي دولة إسرائيل.
ارتفع صوته أكثر:

— عليك أن تحترم قانون دولة إسرائيل، مفهوم؟
— هنا ليست دولة إسرائيل، ثم إني وكيل وزارة ولست ولداً يسوق بلا رخصة. سأحضر لك الرخصة في عشر دقائق و..
قاطعه الجندي:
— ممنوع أن تقود السيارة متراً واحداً بدون رخصة.
تقدمْتُ خطوتين وسألتُه:
— أنا أردني ومعي رخصة أردنية، أذهب أنا لإحضار الرخصة من بيته وأعود. هل هذا ممكن؟
— أنت أردني؟
— نعم.
— أعطني جواز سفرك؟
— تفضل.
— معك رخصة قيادة؟
— نعم.
— إذهب. إذهبوا كلكم. هو يبقى وحده ينتظر هنا.
اقتربت من أنيس وسألته:
— أين أجد رخصتك يا أنيس؟
— في الدُّرْج، في دُرْج المكتب، أو إسأل زغلولة.
انطلقنا بالسيارة وتركنا ابن عمنا «وكيل مساعد وزارة التخطيط والتعاون الدولي في السلطة الوطنية الفلسطينية» رهينة لدى جنود مستوطنة حلميش.
قدت السيارة بسرعة من حلميش إلي بيت ريما إلى ديرغسانة.
توقفنا أمام بيت أنيس، وهو في أول البلد.
نزلت ونزل حسام، اتجهنا بسرعة إلى الداخل.
ظهرت زغلولة في حوش الدار مضطربة الوجه بعد ملاحظتها أني أقود سيارة أخيها وأنه ليس معنا.
— إطمئني، نريد رخصة أنيس.
— وأين أنيس؟
— في حلميش.
صعدت معي الدرجات المؤدية لغرفة أنيس، بحثنا في الأدراج وفي كل مكان ممكن. لم نجد الرخصة. عدنا إلى السيارة.
— ومن معكم في السيارة؟
— تميم ويعقوب.
تشعب خاطرها بين الترحيب بتميم والقلق على أخيها:
— أهلاً وسهلاً أهلاً وسهلاً.
— لازم نرجع لأنيس، عن إذنك.
عدت بالسيارة في اتجاه حلميش لئلا يقتادوه إلى بيت إيل وتتعقد الأمور أكثر. سنقنعهم بأن يحضر معي ويحضر رخصته بنفسه، لكني لم أتوقع خيراً على أي حال. حسام قال خالطاً الجد بالمزاح:

ـــ وابن عمك أنيس معجب باتفاقية أوسلو ومعجب بكل الاتفافيات التي وقعت وبكل الاتفاقيات التي لم توقع والتي سوف توقع في المستقبل ومعجب بعملية السلام ومعجب بالاعتدال الفلسطيني وبالمعتدلين الفلسطينيين وهذه هي النتيجة. أكل بهدلة. بيستاهل.
قرب بيت ريما فوجئت بأنيس يمشي وحده عائداً إلى دير غسانة. أخلوا سبيله دون انتظار عودتنا بالرخصة.
ركب أنيس معنا وانفجر:
ـــ أولاد الكلب، أرادوا أن يتسلوا بنا بعض الوقت، حارسان ضجران من الحراسة على باب المستوطنة جعلانا تسليتهما. بمجرد أن ذهبتم بالسيارة أعادوا لي أوراقي وقالوا لي مع السلامة، قلت لهم والرخصة؟ قالوا لا نريدها.
ثم تذكر أن مشوارنا كله من أجل تميم:
ـــ أنا آسف يا تميم، كان بودنا أن ندخلك إلى البلد بطريقة ألطف، يعني ما علاقتهم برخص القيادة؟ ثم إني لا أدري كيف نسيت رخصتي اليوم من دون كل الأيام! الله يلعن الشيطان.
هكذا دخل تميم دير غسانة للمرة الأولى في حياته: حاجز/ رشاشات مشهرة/ رخص قيادة/ مستوطنة بيت إيل/ هذه دولة إسرائيل/ مفهوم؟/ احترم قانون الدولة/، وأول وجه برغوثي يراه في البلد لا يجد الوقت لمصافحته أو عناقه.
قلت في نفسي سيعيش ما عشته يوم عودتي الأولى قبل عامين. ستنتقل أصابعه بالتدريج من ملمس المخمل إلى ملمس الصبّار. من قمة المُتخَيَّل إلى وادي الواقعيّ.
نرسمها في حلمنا قوس قزح، لكن الأوطان ليست قصائدنا عن الأوطان. وإذا كانت مبتلاة بالاحتلال والفقر والصبر المكلِّف، فالطيف الرمادي في قوس قزحها، كثيف جداً. أكثف من أي توقع. لكنني أستدرك مصححاً فكرتي. قد تكون استجابة تميم مختلفة عن استجابتي في نهاية الأمر. أنا جئت محملاً بلحظتي الماضية. هو يبدأ من صفحة المستقبل البيضاء. قلت هذه الصفحة ملكه هو، له وحده أن يلوّنها كما يختار وله وحده أن يرويها كما يشاء وقتما يشاء.
قال تميم ملاطفاً أنيس:
ـــ أهم شيء الحمد لله على سلامتك يا عمو أنيس، نحن الذين علينا الاعتذار عن هذا الإزعاج الذي تسببنا فيه.
دير غسانة بالنسبة لتميم هي دار رعد وامرأة عمي أم طلال قبل أي بيت آخر وقبل أي وجه آخر. هنا بعد أن اجتاز عتبة الدار انبثقت أم طلال بجسمها العامر ووجهها المتهلل تعانقه وتزغرد لوصوله.
التمّ جيران دار رعد يسلمون علينا، أقصد على تميم هذه المرة، أقول «ليسلموا» عليه ولا أقول «ليعرفوه». أنا متأكد من أنهم «يعرفونه» يعرفون شكله، جسمه الرياضيّ المائل إلى الطول، وعينيه السوداوين وشعره الخيليّ الأسود، وهل من سيرة في بيوت دير غسانة إلا أخبار أبنائهم وأحفادهم الغائبين في البلاد البعيدة؟
الغائبون هم أحاديث سمرها في ليالي الشتاء حول كوانين النار وأباريق الشاي، هم موضع قلقها كلما ساءت أحوال الطقس أو أحوال السياسة في بلدان المنفى، والقرية تعرف أسماءهم حتى أصغر حفيد وتعرف طباعهم وأشكالهم، وتعرف مَن وُلِد، مَن تزوج، مَن تخرَّج، مَن مَرِض، مَن نال عشرة دنانير علاوةً على مُرَتَّبِه، مَن تشاجر مع زوجته أو مع حماته أو مع مديره في الشغل،

وتعرف من أثرى، من أفلس، من اعتُقل، من حصل على لمّ شمل، ومن نجح ومن رسب في المدرسة. كل هذا دون أن يلتقوا بأي واحد أو واحدة من هؤلاء.
سأل تميم:
ـــ أين الغرفة؟ أين ولدت يا أبي؟
دخلنا إلى الغرفة الواسعة ذات القبة الشاهقة والأعمدة الأربعة التي تلتقي في منتصفها حيث يتدلى الآن هذا المصباح الكهربائي بدلاً من مصباح الزيت عام ١٩٤٤.
ـــ هنا ولدتُ يا تميم.
كلمة «هنا» حملتني إلى كل ما كان «هناك». حملتني إلى بيوت المنفى. إلى أزمنة اختلطت وطارت بي من «غرفتي» هذه ومن صمت تميم، لأبحث عن بيت للإيجار في حي العجوزة بالقاهرة عام ١٩٦٣ وأسأل عن جدول أول أيام الدراسة في الجامعة، أقود سيارتي فوق «جسر مارجيت» بين بودا وبست، وأنام على الأرض في سجن الخليفة في القاهرة والجندي يركل كليتي اليمنى بحذائه ليوقظني كي أطرد من مصر فجراً، وتميم طفل عمره خمسة أشهر، وصوت رضوى وهي تشتم الضباط ثم تبكي بعد أن يغيبوا ويغيبوني معهم سبعة عشر عاماً. كلمة «هنا» طارت بي إلى شقة في بناية مكحّل في الفاكهاني وإلى ستوديو إذاعة الثورة في البناية المقابلة، وإلى غرف الفنادق التي يصعب إحصاؤها وأنا وسواي من الشباب نجادل وفود العالم ومنظماته في فاصلة أو شبه جملة لتثبيت حقنا في تقرير المصير والدفاع عن منظمة التحرير. رأيت قيادة المنظمة تنحني سنة بعد سنة أمام كل ضغط حتى لم يعد لها قوام وأنا أعترض عليها وأعارضها بالنثر وبالشعر وبالابتعاد. المفارقة هي أن أخطاءها السياسية أعادتني إلى «هنا» بانتقائية عبثية تعيدني ولا تعيد أشقائي ولا تعيد أولادهم غسان وغادة وغدير وفادي وشادي ويارا ولارا وسارة وديمة ودارة ومحمد. ثم كيف تلعب بنا السياسة هذه اللعبة العكسية؟ هل يكفي أن الشروط التي حددت أعداد الفلسطينيين الذين ستسمح إسرائيل بعودتهم انطبقت عليّ بمحض الصدفة؟ هل يكفي أنني عضو مُراقِب في المجلس الوطني الفلسطيني سبباً للسماح لي بالعودة؟
ما هذه المفارقة؟
كلب السياسة الأعمى يهز ذيله تحية لخصم مثلي؟
وأنا معارض هادئ لكنني معارض وقح، واصلت وأواصل معارضتي وسأواصلها في المستقبل أيضاً رغم «استفادتي» من السياسة التي أنتقدها حتى وأنا هنا.
في المستقبل، بعد ست سنوات من هذه اللحظة، على مسرح قصر الثقافة في رام الله، في مناسبة كل ما فيها يغري بالثناء والامتنان، وهي تسلّمي لجائزة فلسطين في الشعر، سأقف لأشكر لجنة الجائزة على اختياري وأنتقد القيادة والسلطة والحكومة بحضور القيادة والسلطة والحكومة في الصفوف الأمامية من القاعة الواسعة، وأمام ألف شخص حضروا الاحتفال. أدعو إلى تصحيح الأخطاء «حتى لو كانت في أعلى الصفحة». وكان «أعلى الصفحة» أي رئيس الوزراء جالساً في الصف الأول ومعه معظم رجالات السلطة.
هنا ولدتُ يا تميم.
انتقلت معه إلى الغرفة المجاورة التي أصبحت غرفة امرأة عمي أمّ طلال ومنها إلى الغرفة التي تليها.
ـــ هنا في هذه الغرفةِ قبل ثلاثة أرباع القرن أو أكثر وقف والد جَدّك وحيداً تماماً، بعكازه المقدود

من شجر البلوط، وحَطّتِهِ البيضاء، وعقاله المِرْعِزْ، وعباءته البنّيَّة الطويلة، يراقص ظله المنعكس على هذا الحائط المقابل لمصباح الزيت، ابتهاجاً بحصوله على موافقة ستّك ام عطا على خطبة ابنه عبد الرازق على ابنتها سكينة، الجميلة جداً الذكية جداً ذات العينين الخضراوين والشعر الكستنائي الناعم والتي كانت أشطر البنات في المدرسة وأحلى البنات في القرية. شيخ وحيد في غرفة قوطية واسعة ذات قُبَّةٍ وأعمدةٍ وجدران يكاد بياض شِيدِها أن يضيء، يراقص ظِلَّهُ، يتمايل يميناً ويساراً ويلوّح بعكازه عالياً منتشياً، في الجهات كلها، لا موسيقى لرقصته إلا سكون الليل وخفقة المصباح، لا رفاق حوله في احتفاله العجيب إلا خفقات قلبه ودفقات فرح لا تستطيع انتظار شمس الصباح.

بدت على وجه تميم دهشة واضحة.

— من روى لك هذه القصة يا أبي؟

— عمتك «امّ الناهض»، قالت إنها ذهبت تزوره في دار رعد فوجدَتْهُ يرقص مع خياله رافعاً عكازه دون أن ينطق بكلمة، شاركَتْه الرقص دون أن تعرف له سبباً. لم تسأله ولم ينطق، واصل الرقص إلى أن غادَرَتْهُ على هذا الحال.

خرجنا من الغرفة إلى حديقة الحوش ثانية.

تميم يريد أن يرى أين كانت شجرة التين العظيمة التي قطعتها امرأة عمي لأن ثمارها لم تعد تجد من يأكلها، وأن يرى كل بيوت دار رعد، بيت خالي عطا وبيت العم «أبو مطيع» وبيت أبو حسين، والجامع والساحة والمضافة والمدرسة وعين الدير، وأن يقوم بجولة في القرية كلها. وتميم صامت وعيناه لا تتوقفان عن الكلام وأنا أسمع عينيه جيداً فهذه مهنة الآباء والأمهات. أتمنى لو يستطيع بمعجزة أن يرى الفصول الأربعة في دير غسانة في نفس اللحظة، أن يرى أشجار اللوز الضخمة، مشمسةً ثم عاريةً ثم مبتلةً ثم مُثْمِرة، دفعة واحدة. أريد أن تأتي الطيور جميعها، بكل أنواعها وأسمائها وألوانها وصمتها ومناقيرها معاً ليراها في سرب واحد، أريد لِفَرَس «السعيد ذيب» أن تمر بنا الآن، تصهل وتضرب بحوافرها طريق «الرويس» أمام سمعه وبصره. هو يريد أن يترجم خياله إلى حجارة. أنا أريد للحجارة أن تعزز خيالي المكتهل الذي لازمني العمر كله. ليس هذا وقت التفكير قي سر ارتباط كل عودة بالخيبة، وكيف أن معرفة الماضي تخدش الحاضر المرئي. ماضي تميم في دير غسانة لم يتكون بعد. لا خيبة عنده ولا خدش لتوقعه. الخيبة تصيب من يود استعادة ماضيه، لكنها لا تصيب من لا ماضي له. قلت لنفسي: ليكن مني الصمت، وليكن منه النَّظَرْ.

بعد مشروبات الضيافة في حوش الدار استأذنّا أم طلال في الخروج، على أن نعود للغداء بعد ذلك.

قال تميم:

— سوف أعرف الأماكن وحدي، سأسير أمامكم.

لا أحد يضيع في دير غسانة، قلنا له حاول.

تجاوزنا عتبة البوابة العالية لدار رعد، واجهتنا الجبال وحقول الرويس والسحايل وطريق عين الدير وسياج من الصبّار بأكفه الشائكة المتراصة المطلة على الطريق المحيط بالبلد، توجهنا يساراً إلى السِّرب ومنه إلى ساحة البلد.

أشار إلى يمينه وقال:

— هذه دار صالح.
تجاوز الساحة إلى طرفها البعيد ووقف على المصطبة.
— هذه المضافة.
تجاوزنا المضافة، ذهبنا إلى مضافة «الشيخ مطر»، سلمنا على روادها، استأنفنا الجولة على مهلنا.
بعد قليل سلم علينا شخص نحيل جداً لا أعرفه، تحدث معه حسام قليلاً ثم قال له مداعباً:
— إحك حكايتك مع الجامعة العبرية لأبو تميم، قل له لماذا طردوك من العمل. هذا ابن فلان هل تتذكره؟
أحرجني حسام بسؤاله، فأنا لا أعرف الرجل، فضلاً عن أني لم أسمع بوضوح الإسم الذي نطقه حسام، فقلت له:
— شو قصتك؟
— قبل الانتفاضة، زمان، عَيَّنوني في الجامعة العبرية في القدس.
سألته:
— أستاذ في الجامعة؟
— الله يسامحك، أنا؟ أستاذ؟ أنا لا أقرأ ولا أكتب.
— شو عينوك في الجامعة؟
— حارس قرود.
— قرود؟
— حارس قرود في المختبرات، مختبرات الجامعة، قرود تجارب، بيقولولها قرود تجارب يا خال.
— كم قرد؟
— ستة سبعة.
— وشو كان تخصصك؟
— كان المطلوب مني إطعام القرود في أوقات معينة، يعطونني علب من الحليب وانا قلت جاءك الفرج كنت أشرب الحليب طبعاً، أشرب ثلاثة أرباعه أو أكثر وأعطي لكل قرد جرعة أو جرعتين، ولا من شاف ولا من دري، بلدنا كلها ما كانش فيها علبة حليب.
— واكتشفوك طبعاً؟
— شافوا صحتي تحسنت والقرود قرّبوا يموتوا من الجوع. طردوني. كانت أيام حلوة والله.
— وبعدين؟
— بعدين صارت الانتفاضة ولا شغل ولا مشغلة. الله يعين.
نظرت حولي أبحث عن تميم فإذا به يمسك بيد «أبو حسن».
أبو حسن يقارب التسعين أو أقل قليلاً ولا يكاد يبصر، وإن كان يبدو أصغر سناً بقمبازه النظيف وحطته البيضاء وعقاله المائل قليلاً.
قال تميم إن الرجل ما إن أدرك أنه قريب منه حتى أمسك بيده:
— خذني إلى الجامع يا بنيّ.
قال لي تميم:

— لم أدر ماذا أقول له. كيف سأشرح له أنني لم أطأ أرض البلد إلا منذ ساعتين وأنني لا أعرف فيها شيئاً، خجلت من الشرح فأمسكت بيده وقلت له:
— تفضل.
— حسن لن يأتي هذا الأسبوع، لن يوصلني إلى الجامع، أنت توصلني إلى الجامع.
بعد خطوتين أو ثلاث كاد يتعثر بحجر في ممر ضيق. عندما نبّهته أخذ يشرح لي قصة الممر وكيف أنه هو الذي رسم حدوده بفأسه ليمنع المرحوم أبو يوسف من مضايقة جاره المرحوم أبو زهير:
— ضربت فأسي في الأرض وقلت له «هنا حدّك».
توقف عن الاستمرار في حكايته، وفجأة، نظر إليّ بارتياب ووجدته يصرّ عينيه كمن يريد التحقق ممن يرى ثم يسألني:
— انت مين؟
— أنا تميم.
— تميم ابن مين؟
— ابن مريد.
— مريد ابن مين؟
— ابن عبد الرازق.
— عبد الرازق ابن مين؟
— ابن محمد الطرّد.
— آه. هذا باعرفه. هذا كان صاحبي. جد جدّك كان صاحبي يا ولد. وكان شاعر. البلد كلها بتعرفه. البلاد كلها تعرفه. هو مش جد جدك، هو أبو جدّك. رحمة الله عليه وعلى امواتنا أجمعين.
— آمين
— ... ...
— بتحفظ له شعر يا عمي؟
تنهد تنهيدة طويلة وأغمض عينيه وأنشد:
هذي عصاتي من شَجَرْ
تعينني على النَّظَرْ
وإنها مُقيمَةٌ
وإنني على سَفَرْ
سَمّعها من الذاكرة، بأخطاء في الوزن طبعاً، لكنه كان فخوراً بأنه ما زال يحفظ شعراً لصديقه القديم.
كان حسام قد ابتعد عنا قليلاً ثم انضم إلينا فشرح لنا قصة «أبو حسن» التي لا تنسى مع «أبو يوسف»
كان بيت أبو يوسف بيتاً ضخماً من طابقين وكان فخوراً متباهياً بعلو بيته عن كل بيوت دير غسانة، وكان «أبو حسن» شاباً يشاهد ويسمع كغيره من أهل البلد هذا التباهي والتفاخر دون أن يجد ما يقوله، إلى أن دفعه ضيق العيش للسفر إلى بيروت حيث عمل هناك عتالاً في الميناء وعاد منها ببعض المال وبعض «الخبرة»:

ـــ أبو يوسف بتباهى أنه بيقدر يطلّ على البلد من الطابق الثاني. والله العظيم يا جماعة انّي شفت في بيروت كلب يطلّ من الطابق العاشر!
ذهبنا إلى مدرسة البلد. المدارس تظل في أماكنها، نحن الذين نغادر. غادرت طفولتي التي كانت هنا منذ نصف قرن واستقبلت طفولة تميم. مرت بنا السنوات وفي هذه اللحظة تلتقي طفولتانا عند باب المدرسة الأولى تحت هذه السماء الأولى.
في الممر الطويل المحفوف بأشجار السرو الهائلة الارتفاع على الجانبين ثم على أعتاب المدرسة وبين أقواسها. أفكر في طفولة تميم بين القاهرة وبودابست وفي طفولتي هنا في دير غسانة. الفرق بينهما هو المسافة بين كوكبين.
منذ لحظة ولادته وجد ما يحتاج له وما يناسبه وما يكفيه. عندما تبلور وعيه وجد الكمبيوتر بين يديه، أخذ ثلاثين درساً قي البيانو عند الأستاذة كاتي فورّاي في بودابست وعندما لم يطق الانضباط وهو ابن السنوات الخمس انتقل إلى دراسة العزف على العود الشرقي في القاهرة فأتقن العزف، وساعده ذلك على سرعة تعلم موسيقى الشعر العربي القديم بأوزانه الستة عشر، واستطاع كتابة الشعر العمودي وتذوق الكلاسيكيات العربية كالمعلقات وشعر المتنبي وأبو تمّام. في بودابست تعلق بالليجو وتركيباته المتنوعة وذات يوم ألح في طلب قلعة من الليجو ترفرف على أسوارها الأعلام، لم نجد مثلها في بودابست فأتينا له بها مِن فينّا وكانت هي القلعة التي في ذهنه لكننا لم نجد الأعلام داخل علبتها، اشترينا له لعبة صغيرة تحتوي أعلاماً واستعملناها لقلعته التاريخية. أتاحت له نعم المنفى (وللمنفى نِعَمٌ لا يمكن إنكارها) زيارة متاحف ومشاهدة بعض الأفلام والمسرحيات ومعايشة الموسيقى الحية. اقتنى ما اشتهاه من الآلات الموسيقية، كان عنده في وقت واحد الهارمونيكا والجيتار والكمان والعود ومن حسن حظنا أنه لم يقع في غرام البيانو وإلا لما وجدنا عشاءنا.
أمسك الأستاذ عبد المعطي شحمة أذني بإصبعيه، ضغط فتوجعت قليلاً. َضغط أكثر فتوجعت أكثر. ضحك أولاد الصف على ما يحدث لي فبكيت. بكيت لأني صغير السن لم أكمل السادسة من عمري بعد، ولأنه يعاقبني أمام الصف كله ولأنني ككل من يتعرض للعقاب شعرت أنني لم أرتكب ما يستوجبه. كل ما في الأمر أن أمي قررت اصطحابي إلى منزل الأستاذ عبد المعطي ذات يوم وسمعتها تقول له:
ـــ يعني تحرمونه من المدرسة مِن أجل شهرين أو ثلاثة أشهر يا أبو مروان؟ حرام عليكم والله. يكفي انكم حرمتموني من إكمال تعليمي وجنيتم عليّ.
ـــ أنا يا أم منيف؟ أنا وقفت في صفِّك وأمّك تعرف أني بذلت جهدي. كانوا الله يسامحهم أقوى منا كلنا.
ـــ الله لا يسامحهم دنيا وآخره، خلينا في موضوع الولَد.
ـــ يا ام منيف إبنك لم يصل سنّ المدارس بعد. والقوانين...
تقاطعه محتدّة:
ـــ أي قوانين؟ ومن وضع القوانين؟
ـــ لا بد أن يكون عمره ست سنوات بالتمام والكمال ليلتحق بالمدرسة.
ـــ سيصبح ست سنين بعد شهرين ثلاثة.
ـــ والله لا يجوز. وهذا لمصلحته حتى يستوعب الدروس وحتى لا يرسب في الصف من أول سنة

فيتعقد.
— الولد شاطر يا أبو مروان، أشطر من كل أولاد البلد الذين قبلتموهم. أنا أعرفهم واحداً واحداً. مريد أشطرهم وسترى بنفسك. ثم إنه عنده كتب أخوه منيف، وهو لا يرمي القلم من يده في الدار، صار يكتب الألفباء وخطه حلو وحافظ أناشيد كثيرة، يمكن لو تمتحنه اليوم ينجح.
— يا ام منيف انهم يدققون ويفتشون وهذا يحرجني، وإذا اكتشف واحد من المفتشين انه صغير على المدرسة...
— ولماذا يعرف المفتش انه صغير على المدرسة؟
— سيعرف. وسوف يقع اللوم على الإدارة بسببي و..
تقاطعه مرة أخرى:
— إقبلوه يا ابو مروان، وعندما يأتي المفتش أَخرِجوه من الصف، يغيب حصة واحدة ويا دار ما دخلك شر. أو خليه ينزل تحت طاولته ويخبّي راسه، هو أصلاً صغير...
— لم يكن صغيراً قبل دقيقة يا أم منيف!
ضحك وأضاف:
— طيب يا ام منيف، سيدخل المدرسة، تِكْرَمي. لكن في حصة المفتش لازم يخفي نفسه أو يخرج. وأنا سأقنع المدير.
شكرتْه أمي وفي صباح اليوم التالي قالت لمنيف:
— خذ أخوك معك يمة اليوم وأدخله الصف الأول. أنا حكيت مع أبو مروان ووافق.
عدنا إلى الدار. وجدنا أبي قد عاد من عمله فأخبرته بنجاحها في إدخالي المدرسة. أبي كان خجولاً ورفض أن يطلب من ابن عمته «أبو مروان» خدمة شخصية فتصدت أمي للأمر رافضة أن أخسر سنة كاملة نتيجة قانون رأته غبياً.
في المساء أمسكَتْ بالمقصّ وبقطعة من قماش الكتان السميك وفصلت لي كيساً ستسميه «حقيبة» ووضعت فيه قلم رصاص ودفتراً جديداً كتبت على غلافه بخط يدها:
مريد عبد الرازق البرغوثي
الصف الأول الابتدائي
مدرسة دير غسانة للبنين
(جملة اعتراضية طويلة: في المستقبل سأكتشف أن اسمي في شهادة ميلادي لم يكن «مريد» أصلاً. اكتشافي هذا له حكاية تأخَّرَتْ إلى أن أصبحتُ في السنة الثالثة الإعدادية، أي في الصف التاسع، في «مدرسة رام الله الثانوية للبنين». قررت وزارة التربية والتعليم استحداث الشهادة الإعدادية. طلب منا مدير المدرسة توفير مستلزمات التقدم لامتحان الشهادة وهي عشرة دنانير أردنية وشهادة الميلاد الأصلية لكل طالب. عدت إلى البيت وطلبت من والديّ شهادة ميلادي فإذا بها شهادة باسم «نواف عبد الرازق البرغوثي» وليس مريد. صحت مستغرباً «هذه ليست شهادة ميلادي» ولكن الأمر اتضح عندما شرحوا لي: عندما ولدت قرر الوالدان تسميتي باسم «مريد» وبعد يومين أو ثلاثة أرسلوا القابلة إلى مختار دير غسانة لاستصدار شهادة ميلاد رسمية. دخلت القابلة «آمنة الوردة» على المختار «أبو راسم» وقالت له إن «عبد الرازق، أبو منيف» رزق بمولود ذكر وأنها مرسلة للحصول منه على شهادة ميلاد مختومة. أحضر أوراقه وسألها عن اسم المولود. القابلة نسيت الاسم لأنه من الأسماء غير المألوفة في دير غسانة بل في البلاد كلها.

حاولَت التذكّر دون فائدة، فهل يعطّل المختار عمله بسبب بلاهة القابلة؟ قال لها لا داعي لتذكّر الاسم وأضاف:
ـــ أخوه «منيف» وهو «نواف».
المختار اخترع لي اسماً على هواه يقارب في اللفظ اسم أخي الأكبر. سجله في شهادة ميلادي. وضع بصمته وختمه وانتهى الأمر. عندما عادت «آمنة الوردة» بالشهادة المختومة دسّوها بين الأوراق دون أن يدققوا فيها، ولم يطلبها أحد منا بعد ذلك إلا مدير المدرسة من أجل هذا الامتحان المستحدث. كنت مسجلاً طوال السنوات التسع السابقة باسم «مريد البرغوثي». المهم أن المدير بعد أن شرحت له الحكاية وافق على دخولي الامتحان باسم «نواف» المكتشف للتوّ، حسب الشهادة الأصلية. وهذا ما كان. كل أوراقي الرسمية منذ ذلك التاريخ تحولت إلى اسم «نواف» وهذا لا يعرفه أحد خارج نطاق العائلة وعدد محدود من المقرّبين ولا يناديني به أحد منهم على الإطلاق. لم أعترف ولم يعترف أهلي بالاسم المخترع. تصرفنا كأنه لم يكن. ما زلت أُعْرَفُ باسم «مريد» في كل مكان وأنشر كتبي ومقالاتي وقصائدي بتوقيع «مريد البرغوثي» الاسم الذي أحبه فعلاً بمقدار ما أكره اسمي الرسميّ.)
كان منيف، الذي يكبرني بثلاث سنوات، في الصف الرابع الابتدائي وأخذني معه وبيدي حقيبة الكتّان ودفتري الوحيد وقلم الرصاص. ما إن افترقنا في ممرّ المدرسة ودخلتُ الصف حتى سالت دموعي الساكتة على خدي، جلست في الكرسي الأخير. شعرت بالخوف من كل الأولاد، شعرت كأنني في مضافة البلد وسط أناس كبار في السن لا في الصف الأول الابتدائي. عندما دخل أستاذ الحصة الأولى ذهبت إليه باكياً وقلت له:
ـــ خذني إلى الرابع الابتدائي يا أستاذ.
ـــ أين؟
ـــ عند أخوي الكبير.
ـــ عند مين؟
ـــ عند أخوي منيف.
ـــ إرجع إجلس مكانك.
رجعت وأنا لا أزال أبكي. الأستاذ خرج وأحضر منيف معه. ما أن رأيته حتى نسيت البكاء وشعرت بالراحة. عانقني منيف، مسح دموعي بأصابعه، التصقت به.
ـــ بدي أظل معك. أنا لا أحب هذه المدرسة.
ـــ لا تخف. لا تخف. أنا وأنت سنعود للبيت بعد الجرس الأخير.
وهكذا أصبحت تلميذاً في الصف الأول الابتدائي في مدرسة دير غسانة.
كان لا بد للمفتش المرعب أن يجيء. خفضت رأسي واختفيت تحت الطاولة حسب الاتفاق. في المرة الثانية، قرب نهاية العام جاء المفتش وأنا غصت تحت طاولتي فوراً وكتمت أنفاسي. كاد الأمر ينجح لولا أن المفتش سأل الأولاد سؤالاً لا أتذكره جيداً الآن فلم يرفع أي ولد إصبعه ليجيب، وكلما اختار بنفسه أحدهم أجاب إجابة خاطئة، وأنا أكاد أموت من الغيظ لأنني أعرف الإجابة لكني ممنوع من الظهور. فجأة نبزت من مخبئي السري وفردت طولي رافعاً يدي إلى أعلى نقطة أستطيعها وهتفت:
ـــ أنا استاذ، أنا ستاذ.

وانعقد لسان الأستاذ عبد المعطي.
المفتش سمع إجابتي وقال:
— عفارم عليك ياولد. صح. ولكن لماذا كنت تحت الطاولة؟
نظرتُ إليه ثم إلى الأستاذ عبد المعطي الواقف بجواره وقلت:
— لأني صغير.
ضحك الأولاد، حتى المفتش ضحك، أما الأستاذ عبد المعطي فلم يضحك. جلست. ما أن غادرنا المفتش حتى عاد الأستاذ وحده وناداني وأخذ يفرك أذني اليمنى بإصبعيه ويهز رأسي:
— ما الذي فعلته؟
— آسف أستاذ.
— عد مكانك. سأتصرّف.
تصرّف فعلاً ولا أدري كيف مر الأمر. لكنني واصلت وقدمت الامتحان وكنت الأول على الصف وجاء أبو مروان وهنأ أمي وأبي قائلاً:
— ديروا بالكم عليه. الله يحميه.
— أنا يا ابو مروان لم أستطع الوقوف في وجه البلد عندما منَعَتْني من إكمال تعليمي. لكن تعليم أولادي صار حياتي كلها.
— الله يجازي اللي كان السبب. لم يظلموك وحدك يا ام منيف. ظلموا كل بنات البلد.
كان أبو مروان الشيوعي الأول في دير غسانة. وكان يحمل أفكاراً بتعبيرات اليوم «تقدمية» لكنه كان صوتاً صارخاً في قرية سميكة الأقفال، واثقة من عتمتها، تستطيع أن تغلبه ولا يستطيع أن يغلبها. لم تكن أمي في وارد الزواج لأنها كانت لا تزال طفلة عمرها أقل من أربعة عشر عاماً، لم تكن تعرف أبي عندما ذكروا اسمه أمامها كعريس. بل إن قلبها الصغير منذ بلغت التاسعة من عمرها كان مسحوراً بفتى من أقاربها يكبرها قليلاً يهدي لها كتباً ملونة ورسوماً ويشجعها على التعلم ويجعلها تحفظ بعض أبيات الشعر القديم. وتسمي تعلقها به حباً حقيقياً لا تنساه ولا تمل من تذكّره كقصة غرام حيناً وكتعلق طفولي حيناً وإعجاب واحتياج حيناً وفي كل الأحوال هو في خيالها اليقظ حلم جميل تبدد. اختفى الفتى من حياتها منذ خطبوها لأبي، غادر فلسطين لإكمال تعليمه وعاد ليتزوج في النهاية سيدة غيرها وتوفي شاباً قبل عشرات السنين. مر على هذه الأمور عمرٌ كامل، ولا تزال وقد أصبحت الآن تقترب من عامها التسعين، تتخيل طفولتها السعيدة معه، وهي اليتيمة المغلوبة على أمرها في تلك الأيام البعيدة، وتقص علينا حكايتها كأنها بأدق تفاصيلها تحدث لها الآن، في أحيان كثيرة تطفر من عينيها دموع لا ترى وهي تروي روايتها، بل وتطالبني أن أكتبها.
تقول:
— لم يظلموني وحدي، ظلموا أباكم أيضاً فهو لم يكن يعرفني ولم يرني في حياته من قبل. قالوا فلانة لفلان. وانتهى الأمر. أبوكم مالوش ذنب، أنا واياه انظلمنا. وصيتي ما تظلموش بناتكم، وما حدا يغصب حدا في مسائل الزواج.
هي لم تعد تريد من الحكاية غير الحكاية ذاتها، خصوصاً أنه لم يبق على قيد الحياة من كل أطرافها إلا هي. أسمعها تدعو بالموت على الذين حرموها من المدرسة.
— ماتوا من زمان يامّه؟

فتجيب:
— ريتهم يموتوا عشرين مرة.
عدنا من المدرسة. وعندما وصلنا إلى الساحة ثانية، جاء من يخبرنا أن الغداء جاهز عند أم طلال.
اتصل مروان البرغوثي فقلت له إنني في دير غسانة.
— سآتي خلال نصف ساعة.
— ستجد غداء فاخراً بانتظارك.
كان تميم يحلم فعلاً بأكلة «مسخَّن» ولم يخب أمله. جدته أم منيف عودته على المسخّن في عمان مع ملاحظة دائمة أن «مسخن بلدنا غير» و«المسخن المزبوط هو مسخن الطابون» مسخن دير غسانة.
تَحَلَّقْنا في حوش الدار حول مائدة الغداء. دجاجة كاملة للشخص الواحد على رغيف كبير محمر بزيت الزيتون، الدجاجة محمرة مفتوحة من الوسط ومغطاة بالسماق وبكمية كبيرة من البصل المفروم المقلي بزيت الزيتون تقدم على الرغيف. والرغيف مخبوز على رظف الطابون (حجارة ساخنة بحجم حبة الجوز الكبيرة) مغطى أيضاً بكمية كبيرة من البصل المقلي والسماق خصوصاً داخل التجويفات التي يشكلها الحصى. وبجانب الوجبة صحن من اللبن الرايب وصحن سلطة خضراء ناعمة بالطحينة والفلفل الحار. وتأتي كاسة الشاي بالنعناع أو بالميرمية ختاماً لا بد منه لوجبة مهولة كهذه.
قال له أنيس مداعباً وهو يلاحظ تلذذه بالطعام:
— لا تشبع كثيراً يا تميم، أمامك الأمسية الشعرية وأخشى أن تنام.
ذهبنا إلى الساحة.
لا أعرف من أين جاء أهل البلد بكل تلك الكراسي من البلاستيك ورصوها في الساحة، صعدنا معاً إلى مصطبة المضافة.
ذكّرتُ الجمهور بلقائي بهم قبل عامين في «هذه الساحة» نفسها، وأنني اليوم أعود ومعي ابني في أمسية لشاعرين اثنين. قرأت لهم عدداً من قصائدي الجديدة ثم استأذنتهم أن أقدم تميم بنفسي:
— هذا الشاب الذي ولد في مصر لأم مصرية والذي قضى عمره كله بعيداً عنكم، والذي لم ير دير غسانة إلا قبل ثلاث ساعات فقط، سيقرأ قصائد عن فلسطين باللغة الفصحى وغيرها باللهجة العامية الفلسطينية، وسوف يغني أغاني البلد، العتابا والميجانا والدلعونا، وإن كنتم تظنون أن أباه الفلسطيني هو من أدخل فلسطين إلى قلبه وعقله فاعلموا أن أمه المصرية رضوى عاشور هي التي صانت فلسطينيته ورعتها بحبها هي لفلسطين، واسمحوا لي أن أوجه لها التحية من هنا وأن أخبرها أن تميم يقرأ شعره الآن في ساحة دير غسانة.
أردت أن أتحدث عن رضوى في ساحة دير غسانة، ولأهالي دير غسانة لأنه ليس من الطبيعي أن تظل معرفة رضوى شبه الكاملة بكل شيء عن البلد وعن أهلها بأسمائهم وقصص حياتهم وطرائفهم ومآسيهم معرفة من جانب واحد، أردت أن يعرفوها هم أيضاً، أردتها أن تدخل بيوتهم دون تأشيرة من دولة إسرائيل. رضوى على الأغلب لن ترى دير غسانة رأي العين ودير غسانة لن تراها. لن تقف رضوى أمام السفارة الإسرائيلية في القاهرة لطلب تأشيرة أبداً.
ثم استدرتُ إلى تميم وقلت له:
— إن شئت أن تكون شاعراً فعليك أن تبدأ من هنا بين أهلك، وعلى هذه الأرض.

بدأ يقرأ قصائده وسط الدهشة البادية على وجوههم من لهجته القروية التي لا تختلف عن لهجة أي منهم، وبعد أن انتهى من قراءة الشعر غنّى لهم أبياتاً من العتابا والميجانا

بلادي، سامحينا إن خطينا
قصدناكي ونحو غيرك خَطينا
ومثل النقش في ثوبك خيطينا
حرام نكون في أرضك اغرابْ

صاحب العكاز رفع عكازه في الهواء. التي تتقن الزغاريد زغردت للولد القادم من بلاد لا تعرفها. الصبايا صفقن طويلاً وتهامسن. الفتى الوسيم عبد اللطيف البرغوثي صعد من بين صفوف الناس إلى جوار تميم وأخذ يرد عليه بأبيات العتابا والميجانا، لكل منهما جولة. أهل البلد في عيدهم الأدبي (النادر) كادوا أن ينسوا أنهم في الأصل مُتْعَبون، متعبون جداً، في بلد غارقٍ في التَّعّبْ.

في المستقبل، بعد تسع سنوات كاملة من هذه الوقفة سيكون لتميم وشعره شأنٌ آخر مع أهالي دير غسانة. سيملأون ملعب المدرسة وسيأتي أهالي القرى المجاورة ليستمعوا إلى قصائده. الطفل المولود في «مستشفى يُسري جوهر» على شاطئ النيل في القاهرة سيصبح شاعر فلسطين الشاب وابنَها الوسيم بشَعره المسترسل الطويل وابتسامته، وبرسالة الأمل التي حملتها لهم قصائده، رغم الاكتئاب القومي الطويل الأمد. هذا ابن جديد «لهم». هذا ابن لهم اكتشفوه فجأة وهم يقومون بأعمالهم اليومية المعتادة من مقاومة وصبر. جاءهم «جاهزاً» كأنه ولد واقفاً هكذا في مكان بعيد وعاد إليهم.

رسالتك الفلسطينية يا رضوى، وَصَلَتْ.

الفصل الخامس بطاقة الهوية

كل واحد من أقربائنا يريد أن يدعونا إلى غداء أو عشاء، أو يعرض اصطحابنا في جولات بالسيارة أو مشياً في شوارع رام الله والبيرة. كنا نفضل المشي حتى يرى تميم أكثر ما يمكن من البيوت والحدائق والحواكير والأشجار والبشر. في مرتين متباعدتين رأيت النامق وتجنبته كالعادة. بالصدفة، وأنا أدير المفتاح في باب البيت، اكتشفت أن صديقاً يقيم في الشقة المجاورة في عمارة الياسمين، قال إن زوجته تعمل الآن في الخارج وإنه يقيم وحده لكنه سيطبخ لنا طعاماً إيطالياً. وفوجئت به يقول لي إن صاحبك يقيم في نفس العمارة. ذهبت لزيارته وتركت تميم ليرتاح قليلاً. تحدثنا في شؤون كثيرة ثم قلت له:

— سألني كثيرون عن قبولك وظيفة مستشار فلم أستطع الدفاع عنك؟

— طبعاً لن تستطيع الدفاع عني فما فعلته لا يمكن الدفاع عنه.

— ولماذا فعلت ما فعلت وقد كان الوزراء يرجفون من مجرد ذكر اسمك كمحقق؟

— لا أحد يريد كشف الفساد حقاً، ولم أكن لأنجز شيئاً. عرضوا علي المنصب فقبلت.

— وجهدك أين ذهب؟

— مع الريح.

— هل تعرف شخصاً اسمه نامق؟

— التيجاني؟

— هو.

— احتال عليك؟

— احتال عليكم.

— هذا أعرفه.

— لا عقاب؟

— هؤلاء يعاقبونهم بتقليل الثواب بين الحين والآخر ثم يعطونهم أضعافاً مضاعفة.

— طلبوا مني أن أشرف على مشروع ثقافي هو واحد من موظفيه الأساسيين. المشروع متعثر ويبدو أنهم يريدون إنقاذ ما يمكن إنقاذه. قالوا إنهم يبحثون عن شخص يؤتمن على المال العام. يقلّص النفقات ويسرّع العمل لإتمام المشروع.

— وافقت؟

— طلبت مهلة للتفكير.

— متى يريدونك؟

— العام القادم، في مارس.

— هل قدموا لك ضمانات بعدم التدخل في صلاحياتك؟

— لم ندخل قي التفاصيل بعد.

— سيعطونك ضمانات.

— جيد.

— ولكنهم قي أول صدام سيتخلون عنك، جميعاً.

ـــ إذن؟
ـــ إقبل.
ـــ لماذا أقبل؟
أجاب مبتسماً:
ـــ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه يا أخي!
تركت صاحبي وصعدت إلى البيت لأصطحب تميم إلى مقهى زرياب لأريه رسوم تيسير. وجدته يفتح الباب يريد الخروج وعلى العتبة مد ذراعيه نحوي معانقاً وصاح:
ـــ اتصل عمو أبو ساجي؟
عانقته وأدخلته إلى الشقة:
ـــ ماذا تنتظر؟ أطلب تكسي فوراً.
دخلنا على «أبو ساجي» فقام من وراء مكتبه رافعاً هوية تميم بيده اليمنى.
عانقه وسلمه الهوية.
طلب رقماً بهاتفه النقال وقدم الهاتف لتميم:
ـــ إحك مع الدكتورة.
أخذ تميم الهاتف.
سرحت إلى حد أنني لم أسمع ما قاله لرضوى، رأيته يحتضن آلة الكمان، يتأملها ويتحسسها ووجهه من نور وانتصار. كان عمره أقل من سنتين وقد ترك مائدتنا في مطعم «بودابست» ومشى وحده باتجاه فرقة الموسيقى الغجرية ووقف أمام المنصة الخشبية ينظر باهتمام إلى الكمنجات والعازفين. كانوا يعزفون «البيشيرتا» مقطوعتهم الموسيقية الأكثر شهرة والأكثر شعبية، وهي تصور سرباً من الطيور محلقاً بانسجام، وهنا تبدو كمنجات العازفين أرق من ابتسامة رضيع نائم، ثم يتوتر العزف فجأة، فقد هبت ريح حملت أحد طيور السرب بعيداً عن رفاقه، وفي كريشيندو يصطخب العزف المحموم مصوراً بحث السرب عن طائره أو بحث الطائر عن سربه، ثم نسمع غناءه يقترب من بعيد اقتراباً تدريجياً إلى أن يحتل المشهد منفرداً وهنا يسكت كل العازفين، إلا العازف الأول، فيحول آلة الكمان إلى عصفور يغني. يعد ذلك ذروة التمكن والمهارة، ثم تعود الكمنجات معاً تعزف لحنها الختامي السعيد بعودة الطائر واكتمال اللقاء، في نغم احتفالي بهيج وسط التصفيق الحاد من الساهرين. ظل تميم واقفاً يصفق مع المصفقين ورضوى وأنا ننظر إليه دون تدخل ما دام لا يسبب إزعاجاً لأحد. فجأة يتقدم العازف الأول من تميم مبتسماً ويقدم له الكمان. يتركه «في رعايته». تميم استغرق يتأمل الكمان، يتحسسه، ويعود يتأمله، إلى أن بدأت الوصلة التالية من العزف واسترد العازف آلته بابتسامة طيبة. قمنا وشكرناه، وعاد معنا تميم إلى المائدة.
منذ تلك الليلة ولفترة طويلة لم يعد ممكناً لنا الذهاب إلى أي مطعم غير «بودابست» إلى أن لمس تميم بنفسه أن معظم مطاعم المدينة والمجر كلها تقدم عشاءاتها على أنغام فرق الموسيقى الغجرية المماثلة، كانت أيام وجوده معي لأسبوعين في إجازة نصف السنة ولثلاثة أشهر في إجازة الصيف من كل سنة عيداً يحلم به طوال شهور دراسته بالقاهرة.
في المستقبل، بعد ثلاث عشرة سنة من إقامتي في بودابست وعودتي إلى القاهرة سأعرف من رضوى ومن تميم، ومما أستنتجه بنفسي دون أن يقوله أي منهما، أن رضوى لم تكن تتحمل

غيابي فقط ولا تبعات تربية تميم وحمايته من أي أذى كرضيع وكطفل وكولد وحيد فقط، بل كان عليها أيضاً أن تتحمل إلحاحه على السفر إلى بودابست التي ارتبطت بوجودنا معاً كأسرة وبالعطلة واللهو والأمان والحرية، بينما ارتبطت القاهرة بالواجبات المدرسية والانضباط والاستيقاظ المبكر والامتحانات، فضلاً عن أن القاهرة طردت أباه.
كانت أسوأ اللحظات عند تميم هي لحظة ركوب طائرة «الماليف» المجرية من مطار بودابست، لدرجة أنه قال لي ولأمّه مرّة ونحن في طريقنا إلى المطار «يا ريت الطيارة تقع». وأجمل لحظات حياته عندما يركب طائرة «الماليف» من مطار القاهرة إلى مطار بودابست. كانت إجازته المدرسية تبدأ قبل إجازة الجامعة حيث تعمل رضوى. لم يكن يقبل الانتظار ليسافرا إلى بودابست معاً، بل يصر على أن يسافر لي وحده فوراً بينما تنتظر رضوى بداية إجازتها لتلحق به. كان عمره أقل من خمس سنوات عندما ركب الطائرة وحده أول مرة. رتبت مع طيران الماليف أن يعتنوا به في الطائرة وأن يسلموه لي في مطار بودابست، وفي المطار سمحوا لي بانتظاره تحت سلم الطائرة، وما إن فتح الباب حتى وجدته محاطاً بمضيفتين إحداهما تمسك بيده اليمنى والأخرى تمسك بيده اليسرى وأمامهما شريط أحمر معقود بطرفيّ السلم. صعدت الدرجات ركضاً. فكوا الشريط وأغناهم عناقُهُ لي عن طلب ما يثبت أنه يخصني. قالت لي إحدى المضيفتين وأنا أشكرهما:
— هذا طفل رائع. إنه يتحدث اللغة المجرية كأنه مجري. حماه الله.
أول ما فعله أن خلع قلادة أنيقة معلقة على صدره يحمل تذكرة عليها اسمه واسمي وعنواني وأرقام هواتفي في البيت والعمل.
قلت له إنني ركبت الطائرة للمرة الأولى عندما ذهبت إلى الجامعة وكان عمري تسع عشرة سنة.
ثم سألته:
— من علَّق لك هذه البطاقة على صدرك؟
— المضيفة قالت لي هذه هي هويتك يجب أن تظل معلقة على صدرك حتى تلتقي بأبيك.
في مكتب «أبو ساجي» في المقاطعة أخذت منه الهوية و«تفرجت» عليها وأعدتها له.
شكرنا «أبو ساجي» على سرعة إنجازه حتى لا يتأخر تميم عن جامعته.
اتجهنا إلى مكتب مختص وأصدر لنا تصريح مغادرة عبر الجسر. تصريح المغادرة هذا ضروري للسفر إلى أي مكان خارج فلسطين وهو مكمّل للهوية ويجب إبرازه للضابط الإسرائيلي على الجسر.
بذلك اكتملت أوراق تميم. أصبح بإمكاننا أن نغادر في أي وقت نشاء. لن يغيب عن جامعته كثيراً.
سألته بعد أن أصبحت هويته في يده:
— متى تحب العودة إلى القاهرة؟
— هل يمكن أن نبقى هنا بضعة أيام؟
— والجامعة؟
— ... ...
— أقترح أن نعود غداً صباحاً إلى عمان، نقضي عند ستك ام منيف يومين، وبعدها نعود إلى القاهرة.
— موافق. لكن ليس غداً. بعد غد.

— ماذا تريد أن تفعل؟
— أي شيء.
— عمك حكمت يريد أن نذهب معه إلى بيته في «جِنين».
— عظيم. سأرى مدينة جديدة.
— اتفقنا.
في اليوم التالي ذهبنا إلى جِنين. قضينا يوماً كاملاً هناك، كانت هذه الزيارة الأولى بالنسبة لي أيضاً. كان الحديث دائراً حول بناء الجامعة الأميركية في جنين، وحول إعادة تنظيم المدينة، وكان الجميع مطمئنين إلى استرداد إيقاع حياة طبيعية. أدهشني أن جنين تستطيع تقديم الخدمات الطبية لمواطني إسرائيل من أهلنا الباقين هناك منذ ١٩٤٨ وأن بعض اليهود أيضاً يجيئون من هناك أيضاً طلبا للعلاج الأقل كلفة خصوصاً في طب الأسنان. لذلك تضم جنين أكبر عدد من أطباء الأسنان الفلسطينيين، وفي كل إغلاق يمنع التنقل عبر الخط الأخضر يكون هؤلاء الأطباء أكبر الخاسرين. كان ذلك في سنوات التوقعات التي تلت اتفاقية أوسلو مباشرة. الحواجز والإغلاقات والاجتياحات والجوع والاعتقالات والمجازر ستأتي لاحقاً. الآمال والأحلام والراحة وسهولة العيش والتعلم والتجارة ووعد الاستقلال، سوف تتحطم كلها بالتدريج ثم تتحطم دفعة واحدة.
في المستقبل، بعد سنوات، سوف يجتاح الجيش الإسرائيلي مدينة جنين ويحاصر مخيمها ويمنع كل وسائل الإعلام وكل عربات الإسعاف من الاقتراب، يستبسل أهل المخيم في الدفاع عنه بإمكاناتهم القليلة، ولا يتمكن الجيش من دخوله إلا بعد أن يهدمه فوق رؤوس أهله، بيتاً بيتاً، بالدبابات والجرافات ولا ينسحب منه إلا بعد ارتكاب المجزرة.
المجازر التي تعرّضنا لها وقعت متفرقة وتوزّعت على سنوات أعمارنا لتدخلنا في سباق حقيقي بين موت كثيف سريع التحقق وحياة عادية نحلم بها كل يوم. وذات يوم سأكتب قصيدة عنوانها «لا بأس»

لا بأسَ أن نموتَ في فِراشِنا
على مِخَدَّةٍ نظيفةٍ
وبين أصدقائِنا
لا بأسَ أن نموتَ مَرَّةً
ونَعْقدَ اليديْنِ فَوْقَ الصَّدْرِ
ليس فيهما سوى الشُّحوبِ
لا خُدوشَ فيهما ولا قُيودْ
لا رايةً
ولا عَريضَةَ احتِجاج.
لا بأسَ أن نموت مِيتةً بلا غُبارْ
وليس في قُمْصانِنا
ثُقوبْ
وليس في ضُلوعِنا
أَدِلَّة
لا بأسَ أن نموت والمخدَّةُ البيضاءُ،

لا الرصيفُ
تحتَ خَدِّنا
وكَفُّنا في كَفِّ مَن نُحِبّ،
يُحيطُنا يأسُ الطبيبِ والممرّضات
وما لنا سوى رَشاقَةِ الوداعِ
غَيرَ عابِئين بالأيامِ
تاركين هذا الكونَ في أَحوالِهِ
لعلَّ «غَيْرَنا»
يُغَيِّرونَها.

عدنا من جنين قبل العشاء لنلتقي مع مروان البرغوثي الذي فاتحنا برغبته في التسجيل للدكتوراه في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة وأخذ يسأل تميم عن شروط الالتحاق بالكلية وعن الأساتذة الذين يمكنه التسجيل مع أحدهم. اتفقنا على أن يزورنا في القاهرة وأن يتابع تميم المسألة عندما يحدد مروان الوقت الذي يناسبه.

سوف يزورنا مروان فعلاً في القاهرة وسوف تستقبله رضوى وتميم ويبدأ بالفعل خطوات باتجاه الالتحاق ببرنامج الدكتوراه.

عندما يعود مروان يكون إرييل شارون يعد نفسه للإطاحة بإيهود باراك ويتخذ الخطى الأولى على مهل في سبيل ذلك.

بعد عام واحد سيذهب شارون بصحبة ألف جندي إسرائيلي في زيارة يعلم هو ويعلم باراك أنها استفزازية لكنه يصر عليها. يتمشى الجنرال، الطامع في القفز إلى رئاسة الحكومة، مختالاً تحت حراسة هذا العدد الضخم من الجنود في باحة قبة الصخرة والمسجد الأقصى بصفتهما جزءاً من «أرض إسرائيل». إنه يعرف جيداً ما يفعل. الجنرال يريد الصدام. عندما يؤدي الصدام إلى سفك الدماء فشارون هو الحل بالنسبة للإسرائيليين. سينادون به لقيادتهم.

كان لشارون ما أراد بالضبط. تصاعد رد الفلسطينيين إلى أن تُوّج في ما سيسمى لاحقاً «انتفاضة الأقصى».

وانطلق الثور الإسرائيلي في متحف الخزف.

الفصل السادس عربة الإسعاف

هذا هو معبر «قلنديا» إذاً.
تغير كثيراً هذا المعبر، أصبح يشبه نقطة حدود مفزعة بين بلدين متقاتلين بينما هو يقع بين رام الله والقدس، أي بين مدينتين في فلسطين اتصلتا بفعل التمدد العمراني الطبيعي الذي غطى الستة عشر كيلومتراً الفاصلة بينهما.
بعد اتفاقية أوسلو ولمدة ثلاث أو أربع سنوات كان هذا الحاجز العسكري الإسرائيلي بين المدينتين واحداً من مئات نقاط التفتيش الروتيني المنتشرة في كل مداخل المدن والقرى، لكنه سيتحول بالتدريج إلى نقطة حدود دائمة مشددة الحراسة، لمنعنا كلنا من الوصول إلى مدينة القدس.
لا يحتاج المرء لرواية المآسي الاستثنائية التي تقع هنا. مجرد احتمال وقوعها يكفي ليكون المشهد رديئاً. يكفي تخيل كثافة التحصينات وصلابتها، حديديتها وإسمنتيّتها وتخيل هشاشة الجسد الإنساني، جسد أي إنسان. يكفي تخيل مزاج شخص يحشر هنا لساعات في انتظار تعليمات جنود محصنين يصرخون عبر مكبرات الصوت بالتوقف أو بالمرور عبر بوابات إلكترونية دائرية بقضبان ضيقة أطلق عليها الفلسطينيون، اسم «الحلاّبات»، وهو اسم دقيق، فقد رأيت في ريف المَجَر ما هو أفضل منها لمرور قطعان الأبقار من أجل حلبها.
هنا، بأبطأ إيقاع ممكن، يتم تدقيق الهويات والتصاريح. هنا يتم تفتيش الأجساد، الملابس، الأحذية، الحقائب المشاعر، النوايا والملامح. هنا الكلاب البوليسية تمنح رخصة المرور أو تنبح الوجه بهمّةٍ تنال عليها ترقياتٍ عسكرية في سلّم رُتَب الكِلاب. هنا مكعبات إسمنتية وقضبان وجنود بملامح عديدة، روس وفلاشا إثيوبيون وبولنديون وأميركيون من بروكلين ويهود عرب وشرقيون ودبابات ومدرعات وجرافات وناقلات جنود ووجوه متحفزة طوال اليوم. قلعة حربية تم ارتجالها هنا. مئات السيارات ترمي ركابها ليقفوا صفوفاً في العراء تحت أوصاف الطبيعة، ثم يسمح لهم بالمرور سيراً على الأقدام وهم يجرّون حقائبهم أو يحملونها على رؤوسهم وظهورهم بين الدبابات والرشاشات المصوبة الجاهزة لإطلاق النار عند أي تطور خارج التوقع. هذا في الأيام العادية فكيف الآن. مقر عرفات في رام الله تحطم ثلاثة أرباعه، الدبابات حوله ليلاً ونهاراً تتسلى باختيار زوايا قصفها للجدران والنوافذ والمداخل وتمنع وصول الطعام والماء عن الرئيس والمحاصرين معه من مرافقيه وبعض كوادره وعدد كبير من المناصرين الدوليين من كل الدول الأوروبية تقريباً ومن الولايات المتحدة أيضاً وبينهم يهود ينتقدون وحشية الاحتلال الإسرائيلي ويؤيدون الحقوق الفلسطينية. المخيمات تُقْتَحَم. المعتقلون بالآلاف. ليس المقاطعة وحدها ولا عرفات وحده، البلد كله تحت الحصار، الطرق مقطوعة بين المدن والقرى.
جاء الاقتراح المفاجئ من صديقي فيصل عندما علم برغبتي في الدخول إلى رام الله:
ـــ هل تسافر معي في عربة إسعاف؟
ـــ كيف؟
ـــ أترك لي الترتيبات، سأتصل بك الليلة لتأكيد الأمر.
سافرنا معاً من عمان إلى الجسر، المسافرون قليلون، اجتزنا نقطة الشرطة الأردنية ثم النقطة الإسرائيلية، ومنها إلى أريحا وبدلاً من الذهاب إلى موقف الحافلات في «الاستراحة» توجهنا إلى

المستشفى حيث تنتظرنا سيارة الإسعاف لتأخذنا من هناك إلى رام الله من الطريق الرئيسي وتجتاز بنا حاجز قلنديا دون الاضطرار للنزول منها. لم يكن هذا الأمر مضموناً فهم في بعض الأحيان يفتشون سيارات الإسعاف أيضاً، لكننا قررنا المخاطرة. انتظرنا قليلاً استكمال الاستعدادات للتحرك. ثم حان الوقت. المرة الأولى التي ركبت فيها عربة إسعاف، كانت عندما رافقت أخي منيف. كان المطر الليلي غزيراً فوق مطار عمّان، وبجوار حجرة الحقائب في بطن الطائرة القادمة من باريس، وقفنا على مدرج المطار ننتظر استلام التابوت. أنزله العمال تحت المطر، تابوت خشبي عادي عليه أختام عديدة. استغربت أن التابوت ليس ملفوفاً بالعلم الفلسطيني، أعلم أن منيف مواطن طيب لا صفة رسمية له، ليس ملكاً ولا حاكماً ولا وزيراً ولا ضابطاً كبيراً، ومن قال إن العلم لا يليق إلا بهؤلاء؟ منيف لم يسئ إلى أحد في البلاد، لم يُلحِق الأذى بأحد، لم يعتقل أحداً، لم يعذب أحداً ولم يتسبب في هزيمة من هزائمنا المتلاحقة، وهو لطيف المعشر وكريم وذو كرامة، ولمثله خلقت الأعلام. فهي مرفوعة فوق القصور وفي المكاتب باسمه، باسم المواطن الذي يشبهه، باسمنا جميعاً. أنا وأنت وهو وهي من «الناس العاديين» فهل يكون نصيب المواطن الطيب منا هذا التابوت الخشبي العاري في هذه الليلة الماطرة؟ لو كنت حاكماً لأصدرت تعليماتي بأن يغطى بعلم البلاد كل مواطن يفارق الحياة، هذا أبسط حقوقه على أهله الأحياء. العلَم هو علَم الناس، علَم المواطنين، العلَم هو علَم المَحكوم لا الحاكِمْ.

قبل سنوات عديدة حدثت لي مفاجأة صادمة تتعلق بالعَلَم، عندما توفي بين يديّ في «مستشفى الحزب الشيوعي» في بودابست المؤرخ الفلسطيني البارز «إميل توما». كان مصاباً بالسرطان في مراحله النهائية وجاء من الناصرة للعلاج في موسكو ثم أرسلوه لتنتهي حياته في بودابست. كنا رضوى وأنا نزوره يومياً إلى أن توفي. جاء جورج طوبي من البلاد لمرافقة جثمانه إلى الناصرة، اشترينا من السوق أمتاراً من القماش الأحمر والأسود والأخضر والأبيض وصنعنا علماً فلسطينياً غطينا به التابوت، ورافقناه إلى مطار بودابست. في المطار تلعثم جورج مرتين أو ثلاث مرات قبل أن يخبرنا أنه من الأفضل نزع العلم عن التابوت، وأمام اندهاشنا ذكّرنا بما نسيناه تماماً:

— لن يسمحوا بهذا العلَم في مطار بن جوريون. فإميل توما، مواطن إسرائيلي يحمل الجنسية الإسرائيلية، هل نسيتم؟

نسينا فعلاً يا رفيق جورج.

مؤرخ فلسطين الكبير وكاتبها السياسي ومربّي أجيالها على النضال منذ أوائل القرن العشرين يصبح «إسرائيلياً»!

نسينا فعلاً «يا رفيق».

ونزعنا العلم الفلسطيني عن تابوت المؤرخ.

«منيف» القادم من المنفى لا عَلَمَ له. وإميل العائد إلى الوطن لا علَمَ له. لا علَم للمنفيّ ولا علَم للمقيم. وضعنا منيف في سيارة الإسعاف وصعدنا إلى جواره لنرافقه إلى ثلاجة «المستشفى التخصصي» حيث يقضي الليل، وحيداً، في ثلاجة المستشفى انتظاراً لوداعه الأخير بعد صلاة الظهر في اليوم التالي. جلست بجوار التابوت المغلق على سر غيابه موتاً أو اغتيالاً في محطة «جار دي نور» في العاصمة الفرنسية. لم تكن أم منيف معنا وما كان لها أن تكون. هي تنتظرنا في البيت في الشميساني. عندما ترانا عائدين من المطار فقط سوف تصدق خبر موته. صدّقَتْ. لكنها أيضاً لم تصدِّق، ما زالت تنكر أن الله يمكن أن يفعل بها كل هذا. أما سلافة وغسان وغادة

وغدير ومجيد وعلاء وطلال وصديقتنا عابدة فقد رافقوا تابوته في الطائرة القادمة من باريس وكان لا مفر أمامهم من التصديق. صدّقوا لدرجة أنه كان بوسعهم أن يتندروا على سخرية الأقدار.
أخي مجيد يتساءل معابثاً على ارتفاع سبعة وثلاثين ألف قدم:
— نحن نسافر معاً لأول مرة في طائرة واحدة، يا ترى ممكن تسقط بنا كلنا؟ منيف وسلافة وغسان وغادة وغدير وأنا وعلاء وطلال وعابدة وفتحي وكل الركاب؟
فيجيبه طلال:
— طبعاً ممكن، ربك بيسوّيها، أنت لا تعرفه.
في الصباح الباكر أصرت أمي أن تذهب معنا إلى المستشفى التخصصي لترى منيف.
— أريد أن أرى وجهه،
ظلت تردد الطلب ونحن لا ندري إن كان هذا ينفع أم يضر. هبطنا إلى الدور السفلي حيث ثلاجات المستشفى وكشف صديقنا الدكتور بركات الغطاء عن وجهه. غمرني إحساس غريب بالسكينة والارتياح لمشاهدته قادماً من الغربة، وفيما تلا ذلك من أيام علمت أن الكل مسّتْهُ تلك السكينة وذلك الارتياح، ولا أعرف تفسيراً لهذا الأمر. يبدو أن خبر موت الغريب في المنفى يعني أساساً أن أهله ومحبيه لن يتمكنوا من رؤيته إلى الأبد، كأنه مجرد خبر يُسمَع ولا يُرى. كأنه ضاع منهم وأضاعوه فلم يعد موجوداً في أي مكان، لم بعد له وجود مادي، أو كأنه تحول من جسد إلى فكرة.
عندما رأيت وجهه شعرت أني عثرت عليه ثانية، وشعرت أني استطعت أن أسترده من المجهول، رحت ألمسه بأصابعي، بالضبط كما فعلت أمي، هذا شَعره وهذا جبينه وهذا أنفه وهذه شفتاه، هذا هو منيف بملامحه كلها حقاً وفعلاً. رأيناه للمرة الأخيرة قبل أن تأخذ مكانه في بيتنا صوره المعلقة على الجدران. الوالدة اختارت واحدة وضعتها على المنضدة الصغيرة بجوار سريرها، وطالما سمعتها في الصباحات الباكرة تتحدث معه، في الصباح «صباح الخير يامّه» وفي العيد «كل سنة وانت سالم يامّه» وما زالت إلى اليوم بعد خمسة عشر عاماً من وفاته تتحدث إليه بين الحين والآخر بل وتستشيره في ما تنوي اتخاذه من قرارات وكأنها حقاً وفعلاً تنتظر منه جواباً. عندما كنت أوصلها إلى غرفتها آخر الليل لتنام كنت أقبلها وأغطيها وأطفئ النور قائلاً لها «تصبحين على خير»، أسمعها تقول بعد أن أردّ عليها الباب ردّاً فهي لا تحب إغلاقه تماماً: «تصبح على خير يامّه»، ولا أدري إن كانت، في تلك اللحظة تخاطبني أنا أم تخاطب صورة منيف.
أمام مستشفى أريحا سلمنا على سائق الإسعاف ودخلنا إلى العربة. صعد فيصل والطبيب ليجلسا بجوار السائق وصعدت مع الممرض إلى حجرة السيارة.
سرَتْ في جسمي قشعريرة مباغتة ولم أدر أين أركز نظري أو إلى أين أبتعد به حتى لا أرى ما رأيت:
كان نصيبي أن أجلس على الدكة المستطيلة المثبتة في الجدار الأيمن للسيارة والمخصصة عادة للممرضين أو مرافقي المرضى، أما الجدار المقابل فكان مخصصاً لرفوف الأدوية والأجهزة الطبية. على أرض السيارة، بين جداريها الضيقين، تتمدد سيدة عجوز عيناها مفتوحتان على آخرهما تنظر باتجاهي كأنها تحدق في عينيّ مباشرةً، في عينيّ أنا بالتحديد. جلدها مجرد غشاء مائل للسواد، جلد مشدود ملتصق بعظام الوجه. عيناها تواصلان التحديق، بل تراءى لي أنهما تلاحقانني أينما حركت رأسي.
مرت دقائق قبل أن ألاحظ أن أنابيب طبية موصولة بهذا الجسم النحيل جداً الطويل جداً. إنه يشغل

حيز السيارة كله حتى الباب الخلفي.
الممرض يجلس بجواري يراقب خطوطاً وأرقاماً على الأجهزة المثبتة في الجدار المقابل. إنها حية إذن. لماذا لا تطرف عيناها ولماذا لا تصدر عنها أي حركة تدل على الحياة، ولماذا لا تغير نظرتها التي تلاحقني؟
ها أنا أدخل رام الله برفقة الموت هذه المرة.
كأن الموت كائن أسطوري في الخارج وفي الداخل، خلف النوافذ وأمامها، كأنه لا يفارق البال، هو في المدينة طوال سنوات الاحتلال، وهو وشيك هنا في هذه العربة. وضّح لي الممرّض الأمر:
— يجب أن نجري لها أشعة مقطعية في رام الله، إنها تحت العلاج وأمامها فرصة للشفاء إن شاء الله. مسكينة. تصاب بهذا المرض ونحن تحت الحصار. المهم أن نجد لها مكاناً في مستشفى رام الله، حتى ممراته تكتظ بالشهداء والجرحى في هذه الانتفاضة.
ثم سألني فجأة سؤاله الذي أرسل القشعريرة في روحي:
— هل تعرف المرحوم حسين البرغوثي، هو من كوبر لكنكم البراغثة عائلة واحدة، أكيد بتعرفه؟
— طبعاً، رحمه الله.
يبدو أنه لم يسمع جوابي فاستمر يعرّفني بحسين:
— الله يرحمه. شاعر وأستاذ قي الجامعة وكاتب مسرحيات، وشاب حلو. كنت أشوفه في مستشفى رام الله وحبيته وزعلت إنه مات.
يستولي عليّ وجه حسين الذي غاب ولم يغب.
أدرك الممرض أنني لم أعد في عربة الإسعاف وأنني لم أعد أتابع كلامه.
في مقهى زرياب، بجوار المدفأة الأنيقة التي صممها صديقنا تيسير بركات صاحب المكان نجلس أنا وحسين البرغوثي ومعنا عدد من الأصدقاء، بينما تيسير يقطع شرحه المشوّق ليستقبل ضيفاً آخر، أو ليصدر تعليماته لمعاونيه، ينضم لنا آخرون باستمرار حتى تبدو مائدتنا وكأنها ندوة عامة بجوار المدفأة وطقطقة الحطب المشتعل والشرار المتراقص بينما أمطار رام الله تغمر المدينة. حسين يدخن بتلذذ ويجادل في الشعر والرواية والفلسفة والسياسة دون فاصلة واحدة في جمله المتلاحقة كأنه يخشى أن يقاطعه أحدنا فيذكرني بالبيت الفاتن لمایاكوفسكي:
الكلمات تخرج من فمي
كخروج العاهرات من مبغى يحترق.
هذه عادته لكنها هذه المرة بدت غريبة مشوبة بالتوتر وعصية على التفسير. ينضم إلينا تيسير فأبدي له إعجابي بحفرياته الخشبية الجديدة التي ملأ بها جدران المقهى، وأستأذنه في أن يرافقني في جولة لمشاهدتها عن كثب. تيسير يرسم على الخشب باللون وبالحفر وبالحرق، بموهبة اعترف بها المختصون والنقاد وحملته إلى معارض الفنون في عدد من دول العالم وبنجاح دائماً، وهو مقبل على الحياة كأنها ربع ساعة لا أكثر، ابن نكتة، وصاحب مغامرات ظريفة جاء من مسقط رأسه غزة إلى رام الله في جولة قام بها سيراً على الأقدام للتعرف على مدن فلسطين وقراها. رأى الجبال للمرة الأولى في حياته وتولّع بها وبألوانها وانحناءاتها، فقرر أن لا يعود أبداً إلى غزة المنبسطة والمفرودة كشرشف مكويّ. حمل ألوانه وفرشاته وطاف بالقرى ينزل ضيفاً على أي بيت يستضيفه فيها، أو يستأجر غرفة حيث يتاح له ذلك، واندفع يرسم ويحفر وينحت ويصمم ويلون، ووضع فنه في «زرياب» في قلب رام الله رافعاً فكرة المقهى والمطعم إلى مقام الجاليري

والمنتدى الثقافي وأتاح له ذلك توفير فرص عمل لعدد من الشباب، وفي المساء تنضم له زوجته وأولاده في لقائهم العائلي شبه اليومي. قلت له بعد أن ابتعدنا عن طاولتنا وانفردت به إنني قلق على حسين فهو لا يبدو طبيعياً الليلة، وسألته إن كان يعرف شيئاً لا أعرفه، وعندما همّ بالإجابة جاءه الجرسون لشرح مشكلة طرأت فتركته وشأنه لكنه استدار وقال لي بصوت منخفض، سأشرح لك لاحقاً.

في طريق عودتي إلى مائدة حسين لمحت نامق التيجاني على مائدة بعيدة فشعرت برغبة في القيء. غادرت المكان على الفور وبالهاتف النقال شرحت لحسين بسرعة أني رأيت نامق فقرفت وغادرت، ضحك وقال لي:

— هذا النامق سيظل وراك وراك. وهو لن يختفي من المكان إلا إذا قررت أن تخرجه من رأسك.

نامق التيجاني يصادفني فعلاً في كل مكان ويفسد عليّ كل الأمكنة. كأنه أكثر من نفسه، كأنه أكثر من شخص واحد.

انشغلت ولم أعد إلى زرياب لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، ولم ألتق بحسين. وذات صباح خرجت أبحث عن هدية أو باقة ورد لسيدة دعتني إلى غداء سمك بعد أن سمعتني أتغزل في السمك ذات يوم، وعلى مفترق الطريق أمام محل رُكَبْ، وجدتني وجهاً لوجه مع حسين يحتضن طفله الوحيد آثَر، ويمسك يد زوجته بترا، تبادلنا التحية، وسألته عن أحواله. لم أقل له إني كنت قلقاً عليه في سهرة زرياب واكتفيت بكلمتين:

— طمني عنك؟

— يا ريت.

التفتّ سريعاً إلى وجه بترا لعلي أجد تعبيراً يدل على أنه يمزح مثلاً، فوجدتها ساهمة حتى أنها لم تلحظ التفاتتي نحوها.

— ماذا تقصد؟

— لن تطمئن يا صديقي.

— لديك أخبار سيئة؟

— لدي واحد من احتمالين، إما الإيدز أو السرطان.

— ... ...

— أي والله. زي ما باحكي لك.

— تعال نجلس في مكان ما.

— لا. قال لي الدكتور إن مظاهر المرض الذي تشكو منه ...

قلتُ مُقاطعاً:

— متى ذهبتَ للدكتور؟

— من فترة. قال سنُجري فحصاً للأيدز أولاً فإذا كان سلبياً فعندك السرطان.

— ... ...

— ... ...

— أجريت الفحص؟

— طبعاً، ماذا يمكن أن أفعل؟

— متى النتيجة؟

— بعد أسبوع.
نظرت إلى بترا وآثر، ومرة أخرى إلى وجه حسين، ودّعتهم ولم أكمل طريقي إلى الغداء واعتذرت للسيدة.
جبال كوبر ووديانها وحقول لوزها وشوارع رام الله وممرات الجامعات تعرف حسين البرغوثي من شَعره الطويل المتموج الخصلات على وجه بالغ الجمال، ومن ابتسامته ومن صندله البسيط وملابسه المهملة التي هي غالباً تي شيرت وشورت، والمقاهي تعرفه من جلساته محاطاً بمحبي الأدب والشعر من طالباته وطلابه والمعجبين بكتاباته وشخصيته. في مستشفى رام الله لا يعرفه أحد. كان عليه أن ينتظر النتيجة الرهيبة من يدي ممرضة خاصمتها الوسامة وتركت لها ملامح لا تشجع على التفاؤل بأي شيء تكون هي مصدراً له.
عندما تأكد من براءته من الإيدز رقص مبتهجاً... بالسرطان.
السرطان معركته «وحده»، لن يشمل ابنه «آثر» ولا زوجته «بترا».
كان آثر في لحظات فرحه يزغدم أأو، أأو أأو فأخذ حسين ينط في شوارع رام الله مردداً «أأو، أأو أأو»، مؤجلاً إدراك معنى ثبوت إصابته بالسرطان إلى أجل لا يرغب في تسميته أو تحديده، ويبدأ استعداده الأسطوري للموت، ونتابعه وهو «يمشي نحو مصيره وحده» كما سيكتب لاحقاً في الكتاب الذي وصلني بعد موته والذي أعطاه عنواناً دالاً «سأكون بين اللوز»:
لم يعد لي مكان في كل هذه الانتفاضة، إلا التردد بشكل مملّ أيضاً، على مستشفى رام الله، فهو الآن كعبتي أو حائط مبكاي الأخير. هناك متسع لي بين الولادات الجديدة في الطابق العلوي، وبين ثلاجة الموتى تحت...جرحى وشهداء، وأنا تائه أسأل عن دكتور أمراض الدم، فترد ممرضة متوترة «نحن في حالة طوارئ، ألا ترى؟» فأدرك أنني شخص زائد عن الحاجة، مريض متطفل يمشي نحو مصيره وحده.
كان على الموت أن لا يعمّ ويشيع فينا إلى هذا الحد حتى يكون موت الشاعر «واضحاً»، وحتى ترتفع جنازته على ما يستحقه من ضوء. كان على الموت أن يُخْلي الأرصفة من الشهداء ليوم واحد على الأقل، ويباعد بين أعصانهم بيديه، حتى نتمكن من رؤية القادم الجديد، الآتي من جنائن اللوز، وتقديم التحية لنعشه الخفيف، الحساس، الموهوب، والتعبير عن امتناننا لما مثّله في وعورة حياتنا من صحو وندى، ولمباركة اختلافه عن صورة الشاعر «القديم»، وعن صورة الشاعر «الحديث» أيضاً، فقد صنع لنفسه صورته التي كانت صورته حقاً، الفيلسوف، المشاغب، الهادئ، الصاخب، الناقد، القوي، الهش، الأستاذ، التلميذ الذي صنع أتباعاً، ولم يتبع أحداً. كان على الموت أن يجعل فوزه بالشاعر مدوياً وراعداً وأن يفسح الطريق لوداعه بينما ضوء القمر يجرح، كما يجرح حد البلطة قالب الرخام، معلناً هبوط موسيقاه من جنائن اللوز في سفوح قريته إلى جنائن اللوز في قمم خياله. إنه عائد إلى جنائن اللوز في «كوبر» لكي ينهي عمره عندها و«ينضج» مع ثمارها، وفي هذه البرهة الشخصية الحميمة سوف تتجسد البلاد كلها وتصعد مع الكلام وبه إلى ما يشبه السحر والأسطورة بدءاً من قمرها الأليف الذي لا يشبه أضواء النيون في المستوطنات، إلى كهوفها المائية التي لا تزال تستقر فيها عظام الأسلاف، وطيورها وأشجارها وحيواناتها ورعيانها وربابة الجد والنايات التي تسمعها ولا تراها. هنا تجليات روح تلوذ بأنبياء كان لا بد أن يطلعوا من وعورة الليل وجبال الألغاز، كما تلوذ «بصحن سَلَطة» صغير يجمع الشاعر خضارها من جنائن الدار فيغدو صحن السَّلَطَة هذا احتفالاً ديونيسياً بالحياة. هنا كل شيء عتيق وراسخ وله

اسمه الذي لا يغيره الغزاة الطارئون ولو غيروه. هنا قُطّاع طرق وشعراء وتواريخ عائلية تربطها الأساطير بالغابرين من الفلاسفة والأباطرة وأرواح الشياطين وطقوس الطبيعة ذات الشراسة والحنان. هنا الأدوية المؤلمة والعلاج الكيماوي وبياض المستشفى، وبرتقالة واحدة بجوار سرير الشاعر ينظر إليها أحد العابرين بنفور لأنها «برتقالة مريض». هنا يعيش كل الموتى القدماء في أنواع الصمت الصاعد من البراري وفي موسيقى الربابات وجذور الأشجار وهدير العتمة الممطرة وإليهم سوف ينضم جسد الشاعر عندما «ينوّر» مع اللوز في موعده، لهذا عاد إلى كوبر ليموت أو ليولد لا فرق فقد استطاع الشاعر أن يسقط الحد بين هذين العذابين أو النعيمين اللذين يبدآن بالبكاء.

هكذا وجدتني أعيد كتابة موته في مقدمتي لطبعة مصرية من كتابه ولم أذكر فيها أن الموجع في حكاية حسين البرغوثي أن بعض أفراد العائلة لم يعترفوا بقيمته حياً، البعض كان يسخر من شَعره «النسائي» ومن ارتدائه للبرمودا الكاكي وإلقائه المحاضرات حافياً، الشاعر ينتزع مكانته بين أهله بموته. حتى الكتّاب الذين أكلتهم الغيرة من سطوته تنافسوا في «حبه ميتاً».

كان الممرض يسند رأسه إلى جدار العربة مفتوح العينين وقد ترك لي لحظة انسحابي من الحديث، بكرم. السيارة تسلك الطريق المعتاد بين أريحا ورام الله. لا حواجز في هذا الطريق، ويبدو أن كل شيء على ما يرام .

لم أستطع أن أرفع عيني عن تلك السيدة. كم تمنيت أن تفيق، أن تنطق بكلمة، أن تشكو سوء حالتها فأطمئنها، أن تسأل عن أولادها فأشرح لها أخبارهم، أخذني الخيال إلى واحد في الخليج وآخر في السجن وثالث عالق على الجسر، هذا مستحيل، واضح أنها بلا أولاد وبلا زوج، لو تعرضت ستي إم عطا رحمها الله لهذا الوضع وأنا في بودابست وابنتها في عمان وابنها في الكويت فهل ستكون ممدة هنا مثل هذه السيدة؟ هل تعرف هذه السيدة الغريبة النائمة هنا أنني أسافر الآن في حمايتها وأنها هي التي تحميني وهي التي تتستر على خططي وتتواطأ معي أنا ابن بلدها الذي لم تقابله يوماً والمؤكد أنها لن تقابله ثانية من الآن حتى الأبد؟

فجأة تقف السيارة ويقترب منها جنديان إسرائيليان.

في البداية طلب أحدهما أوراق السائق، تحادثا بالعبرية لدقائق، عاد السائق وأخرج أوراقاً أخرى من السيارة وقدمها للجندي الذي تفحصها جيداً ثم طلب منه فتح الباب الخلفي للسيارة. وقف الجنديان معاً وقبل أن يكمل السائق فتح الباب فتحة كامله، نظرا إلى وجهي أولاً ثم إلى وجه السيدة المريضة. صاح به أحدهم وهو يشيح بوجهه بعيداً:

ـــ سكِّر باب، خلص. روخ إمشي.

لم يستطع الجندي النظر في وجه المرأة المسجاة في السيارة. يتركنا نمر. يقول لي الممرض:

ـــ نظاراتك مناسبة تماماً. حسبوا أنك طبيبها المعالج.

أقول لنفسي هل ساهمت هذه السيدة في تهريب كاتبين فلسطينيين دون أن تدري؟ عندما استدار فيصل لمحادثتي بعد أن استأنفنا طريقنا رأى وجهها وبدا عليه الاضطراب، سمعت الطبيب يشرح له عن حالتها دون أن أميز كلامه. فيصل يعاني من ديسك في فقرات الظهر وأنا أعاني من ألم دائم في فقرات العنق.

ـــ في الحقيقة مكاننا الطبيعي سيارة الإسعاف. نحن لسنا متسللين، معك هوية ومعي هوية، نحن مواطنان. ولكننا عجوزان لا نتحمل «قلندهار».

ضحكت للتسمية وظننتها من اختراعات فيصل، وهو شرح لي أن الناس هم الذين أطلقوا على حاجز قلنديا هذه التسمية المقترضة من «قندهار» الأفغانية.
بدت على يسارنا مستوطنة معاليه أدوميم، تمددت واندلقت حتى كادت تلامس الشارع، نحن نقترب الآن أكثر من حاجز قلنديا لكنه لم يظهر بعد.
فجأة شعرت بجفاف في الحلق.
كأني بلعت تراباً،
لم تخنقني يدٌ، لكني شعرت كأنّ يداً تخنقني،
إنه الجدار.
الجدار الذي يفصل القدس عن رام الله وعن أراضي الضفة كلها.
هذا الجدار لم يكن هنا في المرة السابقة، لا الأخبار ولا بيانات الإدانة ولا البيانات الرسمية حول طوله وعرضه وارتفاعه ولا حتى صوره الفوتوغرافية والتلفزيونية يمكن أن تجسد كل هذا القبح عند رؤيته رأي العين. يكفي أن ترى شخصاً من لحم ودم، أي شخص، يسير بجوار الجدار حتى تضطرب، ليس من الضروري أن يكون هذا الإنسان فلسطينياً أو متعباً أو جريحاً أو شيخاً أو طفلاً أو ذا مشكلة من أي نوع حتى تضطرب، مجرّد شخص وهذا الجدار في لقطة واحدة، هذا يكفي لتسري القشعريرة في عمودك الفقري. يكفي أن ترى قطة تركض تحت ظله، أو شجرة تحركها الريح بقربه أو علبة صفيح فارغة مرمية تحته، حتى تشعر أن الطبيعة، بهوائها وروائحها وأعشابها وجوّها، تعرضت إلى تدخّل قاس فشوّهها. إسمنت يتلوى بين البيوت تعلوه الأبراج العسكرية على مسافات غير منتظمة. التقارير والمقالات وخطب السياسيين ونشطاء حملات التضامن مع الشعب الفلسطيني تتحدث عن تشويهه للأرض. ما رأيته فضلاً عن ذلك هو تشويهه للسماء. نعم. هذا الجدار يشوّه السماء ذاتها. إنه يشوه الغيوم التي تمرّ فوقه. يشوه المطر النازل عليه. يشوّه ضوء القمر حين يلامسه ويشوه أشعة الشمس حين تسقط بجواره. لكن المسألة ليست مسألة جمالية بالتأكيد، فهذا الجدار محاط بأكاذيب انطلى بعضها على إعلامنا الفاشل فراح يرددها بغباء. أكاذيب من طراز أنه جدار «أمنيّ». هذا الجدار ليس أمنياً بل هو جدار السرقة التاريخية الكبرى، سرقة المزيد من الأرض والشجر والماء. جدار لترحيل الفلسطينيين بعد تجفيف مواردهم بفصلهم عن أراضيهم ومحاصيلهم وأحواضهم المائية، إنه مبنيّ على أراضي الضفة، ولو كان أمنياً كما تدعي إسرائيل لتمّ بناؤه على حدود ال ١٩٦٧. إنه جدار لتفريغ الضفة من أكبر عدد من سكانها لأنه يعيق الصناعة والزراعة والتعليم والاتصال الجغرافي والاجتماعي بين الناس. إنه جدار «الترانسفير الصامت». هذا الجدار يضع البيوت في السجن، السجون في الدنيا كلها صممت ل«الأفراد» من المجرمين بعد إدانتهم عدلاً أو ظلماً، هذا الجدار مصمم لسجن جماعة إنسانية كاملة، يسجن تحية الصباح بين الجيران، يسجن رقصة الجدّ في عرس حفيده، يسجن مصافحات العزاء عند موت الأقارب، يسجن تعلّق يد الأم بيد ابنتها على سرير الولادة، يفصل بين الزيتونة وزارعها والتلميذ ومدرسته والمريض وطبيبه والمؤمن وصَلاتِه. يسجن المواعيد الغرامية بين المراهقين، الجدار يجعلك تشتاق إلى الألوان. يُشعرك أنك تعيش داخل ديكور مسرحي لا في الحياة الواقعية. إنه يسجن الزمان داخل المكان. الجدار مفردة لا تعريف لها إلا في قاموس الموت.
هو خوف أطفالنا وخوف دولتهم. فالجدار خوف جانِبَيْه. وهذه هي إبْليسِيَّتُهُ الكبرى. أقول لنفسي هذا جدار لن تهدمه القرارات الدولية ولا منازعات المحاكم ولا الأصوات الإسرائيلية المحبة

للسلام والمؤمنة بحق الشعب الفلسطيني في الحرية وتقرير المصير. أنا واثق أنه سيزول بطريقة أخرى ذات يوم. هذا الجدار سيهدمه عدم التعود عليه، ستهدمه الدهشة لوجوده. هذا الجدار سيسقط ذات يوم، لكنني الآن في لحظة حزني هذه أراه قوياً وخالداً. ليس أقوى من هذا الجدار إلا العصافير والذباب وغبار الطريق. ثم أقول لنفسي: هذا هو الجدار الأصغر، فالجدار الأكبر هو «الاحتلال». أليس الاحتلال جداراً أيضاً؟ أقول لنفسي إنني فقدت الإحساس تماماً. وأقول لنفسي: بما أنني لم يعد يبكيني شيء فربما يجدر بي أن أضحك. وكان الضحك سهلاً: ضحايا الغيتو الغربي يعيدون إنتاجه هنا في الشرق! في الألفية الثالثة يعود اليهود لوضع أنفسهم في الغيتو مرة أخرى. بإرادتهم هم هذه المرة. قال ذلك بعض عقلاء الساسة الإسرائيليين ولم يصغ لهم أحد. ففي الصراع الداخلي على صناعة القرار الإسرائيلي ينتصر دائماً الجانب الأقل ذكاءً، الجانب الذي يرى في «القوة القصوى» حلاً لكل المشاكل. وفي الجدال بين العقل المدني والعقل العسكري للدولة اليهودية، ينتصر العسكر دائماً. إنها دولة الكاكي التي، على امتداد التاريخ، لا تحب الألوان. لا يكفي الجدار أنه لا لون له، إنه يفسد كل الألوان حوله. يفسد ألوان الثوب الريفي المطرز لفلاحة تنتظر أربع ساعات أمام إحدى بواباته أو تحت أحد أبراجه. يفسد الزي المدرسي لطفلة تنتظر، في ضجر، السماح لها بالوصول إلى الحصة الأولى.

والجدار يغري ضحاياه بالقفز عليه ولو في الحلم.

يغري بأن يتمنى الأقوياء الأشدّاء لو خلقهم الله عصافير تطير، أو لبلاباً يتسلق.

يغري بالتسلل والاختراق كما في شهوة الرسوم المتحركة.

يغري بالمهدّات والمثاقب والمتفجرات.

يغري بجعل مجرد القدرة على الحركة انتصاراً لا مثيل له.

إسرائيل قررت تعليبنا. كل تقاطع هو علبة اسمنتية ونحن محشورون بداخلها. حركتنا في مكاننا وإلى أي اتجاه مرهونة بأشارة من يدهم. نعم. بإشارة من يدهم هم. وإلا فما معنى الاحتلال؟ إنه الركود وتعذّر الحركة إلى حد الشَّلَلْ، هو تعذر الطموحات الكبرى والسقوط في الأحلام الهيّنة. إنه احتفاء المقهور بانتصارات تشبه غيوماً مسرعة سرعان ما تمحى.

نعم. مما لا يُغْفَرُ للاحتلال العسكريّ الطويل أنّه يُضَيّقُ أحلام ضحاياه. إنه يقذف بهم أو بمعظمهم إلى هوّة الأمنيات الصغيرة و«الأحلام» البسيطة. وكَفلسطينيٍّ إرادتُهُ مُحْتَلَّة كَأَرْضِهْ، وتاريخُهُ مُعَرَّضٌ لِلْمَحْو والإنْكار، وخَريطةُ بِلادِهِ مَفْرودَةٌ على طاوِلةِ الأسْيادِ الأَقْوِياء، وقد ألقَوْا فَوْقَها مقصّاً مَعْدنياً فائِقَ النَّشاط وجاهزاً للعَمَلِ كلَّ ساعة، أُدْرِكُ تَماماً أنّ المَقْموعينَ والمَقْهورين في هذه الدنيا لا يُحَلِّقونَ عالياً في غُيوم المُطْلَق السامي، والبَهِيّ التامّ، بل يَحْفُرونَ عَميقاً في التُّرابِ بَحْثاً عن جذْرٍ حَيّ، ونَبْتَةٍ مُمْكِنَة، وشَجَرٍ يُمْكِنُ أنْ يَكْبُرَ ذاتَ يَوْمْ. نَعَمْ، الأزمات الوجودية الطّويلةَ إلى حَدِّ المَلَلْ، والاعْتِداءات اليومية المُمْتَدّةَ على اتّساعِ عَشَراتِ السّنينْ، تَحْبِسُ ضحاياها في «الأحْلامِ البَسيطَة»، كَحُلُمِ الانْتِقالِ مِن رَصيفِ الشّارِعِ إلى رَصيفِهِ المُقابِلِ بِسَلامْ، وصولِ الطفل إلى مدرسته الابتدائية والعودةِ منها بحافلة المدرسة لا على أكتاف رفاقِه المذهولين، التسكّعِ الآمِنِ على الشاطئ، الحلم بتوفّر البنْجِ في المستشفى، وكُوب الماءِ عند العطش، الحصولِ على تصريح بزيارة الابنِ المُعْتَقَلْ، الثرثرة السخيفة في المقهى، النجاحِ في تَجْديدِ جَواز السَّفَرْ، التَّمَكُّنِ من دَفْن الجَدَّةِ في مسقط رَأْسِها، البقاءِ خَمْسَ دقائِقَ إضافية بجوار الحَبيبْ والحصولِ على إذْنٍ جُنْدِيٍّ مُراهِقٍ يعلك اللِّبانَ بمُرور السيدة إلى مستشفى الوِلادَةِ قَبْلَ أن تَضْطَرَّ أن تَلِدَ مولودَها تحت أقدام

المراهقين بالزيّ العسكريّ. وللتَّذْكيرِ فقط أقول لمن يريد أن يسمع، إن الأَحلامَ تُصْبِحُ أَكْثَرَ «خُطورَةً» عِنْدَما تُكونُ أَحْلاماً «بَسيطَة».
السيارة تصل بنا إلى المفترق.
السهم الأيمن على اليافطة يشير إلى رام الله.
السهم الأيسر إلى القدس.
هذه إذن «قَلَنْدهارُنا» الموعودة.
لا يعرف المرء متى يعمل الحاجز ومتى يغلقونه. واضح اليوم أن الحاجز يعمل.
— نحن محظوظان يا فيصل، باب الجحيم مفتوح. تهيأ لفرح الدخول يا صديقي.
— أمامنا وقت طويل في المطهر يا سنيور أللليغيري.
— هذه الكوميديا ليست إلهية أبداً، إنها موحلة كما ترى.
— لا تنس أن هذا هو وحل الأراضي المقدسة؟ ال Holy Land وبالتالي بمكننا أن نسميها الكوميديا الإلهية الموحلة.
— وهذا هو معبرك إلى الفردوس أيها الشاعر.
— الفردوس المسترد أم الفردوس المفقود يا مستر ميلتون؟
— بدأنا نهذي.
— نعم نحن نهذي.
— هل نهذي حقاً؟
— لا. نحن لا نهذي. الأرض المقدسة تهذي.
— الأرض المقدسة أم نحن؟
— الأرض المقدسة نحن.
— نحن الأرض المقدسة.
— الأرض المقدسة مكدّسة في سيارة إسعاف.
— عدنا نهذي.
— نعم، نحن نهذي.
— لكننا لا نهذي
— إن أردت الجد نحن لا نهذي.
— ما هذ الذي نفعله الآن؟
— نهذي.
— أتظن أننا سنجنّ؟
— لا. اطمئن. نحن أجبن من ذلك.
— تحيا الشجاعة.
— يحيا الجبن.
— عدنا نهذي.
— وماله؟ شو الغلط؟
— وشو الصحّ؟
— انت رجل صاحب قضية وكاتب قد الدنيا، وتهذي؟

ـــ ماذا تنتظر مني وأنا متسلل كالفأر في عربة إسعاف؟ هل تنتظر مني أن أزأر؟ ماذا تنتظر مني؟
ـــ أنا أنتظر جودو.
ـــ تنتظر جودو فيطلع لك الأخ شلومو.
ظن رفاق رحلتنا أننا جننا فعلاً أو أصابتنا لوثة، علّق الطبيب:
ـــ أدباء يا عمّي وشعراء! نحن نتعامل مع الأحشاء والمشارط، وأنتم في ملكوت آخر. انتبهوا. قرّبنا من الحاجز. من يدري ربما خطر ببالهم فحص القوى العقلية أيضاً لعابري قلنديا.
طابور الانتظار بدأ من هنا، مئات البشر خارج سياراتهم بانتظار دورهم في التفتيش، زمامير السيارات متقطعة وحادة وغير مجدية وغبية. هذا يدخن وهذا يأكل «ساندويش» ملفوفاً بورق جرائد وهذا يسبّ الدين وهذا يصرخ ولم نصل بعد إلى التقاطع. أطفال وعجائز مقعدون ومرضى، شباب بالجينز، محجبات ببنطلونات الجينز، أيضاً ومنقبات، سيدات أنيقات أو متأنّقات بحقائب «جوتشي» وكعوب عالية، فلاحون وشيوخ وقساوسة ورجال أعمال وموظفون وطلاب. يقول علماء النفس إن الازدحام يولّد «كراهية الآخر» وهذا الآخَر هو الشخص الذي يقف أمامك في الطابور. تريد له أن يتزحزح، أن يعطيك مكانه، أي تريد اختفاءه من أمامك، يحدث هذا للبشر وللسيارات في ساعات الذروة وأمام شبابيك البنوك والبريد والمطارات. في قلنديا يجعلك الازدحام ساخطاً على نفسك وعلى ابن بلدك وعلى الاحتلال معاً. في الصعود إلى حافلات الجسر أو النزول منها وأمام طوابير فحص الحقائب تتطاير انتقاداتك لمواطنيك:
لماذا هي بدينة إلى هذا الحد؟ لماذا يسافرون بكل هذه الأمتعة؟
انظر إنها تحمل سلة أيضاً، أليس في فلسطين بطانيات حتى تحمل هذه العجوز بطاطين من عمّان!
لماذا لا يتوقف هذا الطفل المعتوه عن البكاء؟
كل هذا وأنت لا تعلم ما الذي يقوله عنك الواقف وراءك في نفس الطابور. إنه أيضاً يعتبرك متلكّئاً كأنك تتعمد التلكّؤ ويسخط عليك لا على من أعاقك.
والانتظار الطويل في الازدحام يولد «الحاجة» إلى أشياء كثيرة. والحاجات تخترع من يوفرها، وهكذا يتكاثر عارضو الخدمات العجيبة: كرسي متحرك بالإيجار لنقل العجوز والمريض والحامل، أو عتّال قويّ العضلات يقوم بالمهمة، أو حمار نشيط بالإيجار أيضاً، وكل ذلك يُتفق عليه بعد مساومات مملة. حسبة خضار كاملة تم بسطها هنا، عربات تبيع الأطعمة والمشروبات والآيس كريم والشاي والقهوة والجوارب والملابس الرخيصة والقبعات والفلافل والكباب ولعب الأطفال ودواليب الهواء الملونة إلخ.
أدرك أننا وصلنا عندما أرى الدبابة الأولى، ماسورة مدفعها تكاد تلمس مرآة سيارتنا، شيئاً فشيئاً يتضح المشهد الحربي كله، دبابات أخرى موزعة على جانبي المعبر، حفر وصخور وتلاّت صناعية على جانبي الطريق تمنع أي خروج عن الإسفلت. على الجميع أن يمر بين المكعبات الاسمنتية وفوق رؤوس هؤلاء المئات، يرفرف علم إسرائيل بنجمته السداسية. وكما لو أن رفعه في الهواء لا يكفي، فقد رسموه أيضاً على مكعبات الإسمنت.
صفوف السيارات لا نهاية لها والوقت لا مقياس له هنا. الوقت هنا لا تقيسه ساعة يدك، إنه يقاس بقدرتك على الصبر. يمر الوقت ما دمت تملك القدرة على الصبر، وعندما تفقدها فإنه لا يمر. يتركك الانتظار مُسَمَّراً أمام بلادته كأنك تتفرج بلا عينين على لوحة تيس لا وجود له، لم يرسمها

أحد، معلّقة على جدار غير موجود.
أخيراً نصل إلى قلب نقطة التفتيش. نصل إلى «قلب الظلام».
بدأ الرذاذ الناعم يتساقط. يقف جندي على مقربة منا بكلبه البوليسيّ الضخم بينما يتقدم جندي ثان يطلب أوراق السائق ويأمره بهدوء:
— إفتح باب سيارة.
يتكرر نفس المشهد. الجندي لم يستطع النظر في وجه المرأة المفتوحة العينين، الواضحة الأسنان. يسمح لنا بمواصلة الطريق.
نجتاز الموقع بأكمله.
نتوقف خلف سيارة مضاءة المصابيح مركونة على جانب الطريق. كان أبو ساجي بانتظارنا في سيارته الخاصة.
ننزل من سيارة الإسعاف بحقيبتينا. نودّع الطبيب والسائق والممرض. نشكرهم. هم سيكملون طريقهم إلى مستشفى رام الله لمتابعة فحوص السيدة، فيصل وأنا ندخل في عناق مع أبو ساجي:
— الحمد لله على السلامة. شو؟ مغامرات على كَبَرْ؟
— شعور جميل أن تكون أخبث من الاحتلال. نحن مجرد كتّاب، نقاومهم بألعاب كهذه اللعبة ونفرح عندما لا يكتشفون أمرنا. رحلة عجيبة.
أوصلني أبو ساجي إلى فندقي وأخذ فيصل معه، اتفقنا على لقاء قريب في منزله.
في فندق «الرويال كورت» المُطِلّ على «منتزه رام الله» بسَرْواتِهِ الأمامية الثلاث، أخرج ملابس نومي من حقيبتي الصغيرة، أغطس في مياه البانيو الدافئة، أتمدد متنعماً برغوة الصابون، أغمض عينيّ لحظات معدودة، أرى السيدة ممددةً بجواري على النقّالة، تحدّق فيّ بعينيها المفتوحتين على آخرهما، تماماً كما رافقتها ورافقتني في عربة الإسعاف وصوت الممرض يرن في أذني:
«أمامها فرصة للشفاء إن شاء الله».

الفصل السابع ساراماغو

في طريقي إلى مركز خليل السكاكيني الثقافي، لمحته لمحاً يسير على الرصيف المقابل. إنه «نامق التيجاتي». انقبض قلبي أولاً وتشاءمت ثانياً وانزعجت ثالثاً لنهار يبدأ بهذا الشخص البغيض الأملس.
لم يكن من كبار فاسدي السلطة، بل مجرد فاسد صغير مبتدئ يوجد الآلاف مثله في كل مكان. الفاسدون الكبار لم يعد مرآهم يثير إلا اللامبالاة. هم فاسدون بشكل راسخ وعريق ومفروغ منه. لا أمل في صلاحهم، فسادهم كلاسيكي ولا مزيد. أما هو فخريج جامعي شاب في بداية حياته العملية، لم يكن فساده حتمياً، أولئك «انتهوا» فاسدين وهو «يبدأ» فاسداً. فَسادُه فَسادٌ يانع، طازج. متورد الخدّين، فَسادٌ قويُّ العضلات، فَسادٌ يمارس رياضة كمال الأجسام، فَسادٌ يُدَلِّكُ نَفْسَهُ إن لم يجد من يُدَلِّكُه، فَسادٌ يتريض صباحاً ويتغذى جيداً ولا يتنازل عن طبق الحلو، الكنافة النابلسية أو التيراميسو، البقلاوة أو التشيز كيك، أيّ شيء دبق يفي بالغرض بعد الدسم. إنه فَسادٌ مَرِنُ المفاصل، قوي العظام، حادّ البصر، بارع في استخدام حاسة الشم عن بعد. فَسادٌ يعرف الاتجاهات والطرق، سريع الخطى. وهو فَسادٌ مُعْدٍ. سريع الانتشار بين ذوي الاستعداد والقابلية. النامق يهين نفسه لكي يهيمن، تبصق في وجهه فيتأمل الأمر على مهله، يتأمله «بِرَواقْ»، فإن كان للبصقة ثمنٌ يجنيه سيبتسم لك، وإن كانت احتقاراً مجانياً يشعر أنه انتصر لأنك لم تقتله هذه المرة واكتفيت بالبصاق فقط فيحمد حظه السعيد. لكنه بعد أن يشعر بالأمان في غيابك، يمنح نفسه كل الوقت لتدبير مكيدة تنال منك. هذا شاب يريد أن يصعد، أن يجمع المال بأي طريقة وبكل طريقة، وهذا لم يعد يستوقف أحداً، فبين الطموح والطمع خيط واهٍ لا يكاد يبين، لكن رذيلة هذا الشاب هي لسانٌ يمدح قبل أن يؤذي، وفَمٌ يُقَبِّلُ قبل أن يَعُضّ، ويَدٌ تُعانِقُ قبل أن تَطعَنْ. أمثاله يهيئون أنفسهم ليكونوا هم مستقبلنا، برضى السلطة. في المقابل، يواجههم شباب نظيف القلب والعقل، يهيئ نفسه بكل قوة ليكون هو مستقبلنا، برغم أنف السلطة.
قطع نامق الشارع مسرعاً باتجاهي.
عندما أَوْقَفَت اندفاعَهُ شاحنةٌ مارّة، كنت قد دخلت المركز وصعدت الدرج القديم المؤدي إلى غرفة محمود درويش، فنجوت.
كنا اتفقنا في عمّان على هذا اللقاء، تحدثت معه في برنامج زيارة وفد برلمان الكتاب العالمي، وإعداد قاعة المبنى للمؤتمر الصحافي المنتظر، جاء الكتّاب وتحدثوا وسمعوا من الكتّاب الفلسطينيين وعبروا عن تضامنهم ورغبتهم في رؤية الوضع مباشرة على الأرض. تجولنا معهم في مخيم الأمعري للاجئين، الواقع في قلب رام الله.
كان ضرورياً أن يشرح لهم أحدنا مَن لاجئ عند مَن. وكيف أصبح في رام الله الفلسطينية مخيمات للاجئين الفلسطينيين، فبعضهم لا يعرف أن هؤلاء اللاجئين من مدن وقرى الساحل الفلسطيني جاءوا إلى هنا بعد أن دمرت بيوتهم وممتلكاتهم إثر نكبة ١٩٤٨، أي أنهم اتخذوا لأنفسهم ملاذاً في مدن داخل وطنهم لم يتم احتلالها في النكبة، فلجأوا إلى الضفة وإلى غزة. وأقاموا في تسعة عشر مخيماً في الضفة الغربية، (وبعد قليل سأشرح مشكلتي مع هذه التسمية الخاطئة عن قصد، والخطيرة دون أن ندري: «الضفة الغربية») هي مخيّمات بلاطة، طولكرم، جنين، عسكر،

الدهيشة، شعفاط، الجلزون، قلنديا، العرّوب، نور شمس، الفوّار، الفارعة، مخيم رقم١، عقبة جبر، عايدة، دير عمار، عين السلطان، بيت جبرين، ومخيم الأمعري. هذا بالطبع عدا مخيمات غزة التي ستحتل صدارة نشرات الأخبار في المستقبل لتكرر الهجمات الإسرائيلية ضد سكانها وهي جباليا، رفح، الشاطئ، النصيرات، خان يونس، البريج، المغازي ودير البلح. البعض الآخر لجأ إلى الأردن وسورية ولبنان وغيرها. وكل قصف أو اجتياح لمخيم من هذه المخيمات هو بالنسبة لساكنيها نكبة ثانية وثالثة ورابعة. آلة الدمار الإسرائيلية طردتهم من غرب فلسطين فلجأوا إلى شرقها.

فأي تفكير جهنميّ أدى إلى أن يسمّى «شرق فلسطين» «الضفة الغربية»؟

تفتح خريطة فلسطين التاريخية فتجدها تقع بين البحر الأبيض المتوسط غرباً ونهر الأردن شرقاً. احتلت العصابات الصهيونية فلسطين الغربية الواقعة على ساحل البحر المتوسط فلجأ بعض سكانه إلى فلسطين الشرقية الممتدة حتى نهر الأردن. ولأن المطلوب محو اسم «فلسطين» من الخريطة ومن التاريخ ومن الذاكرة، نسبت هذه المنطقة إلى نهر الأردن فسميت باللغة العربية وبكل لغات العالم «الضفة الغربية» وهكذا اختفى اسم «فلسطين» نهائياً من كل خرائط الدنيا.

فإذا كان غرب البلاد أصبح اسمه «إسرائيل» وشرقها أصبح اسمه «الضفة الغربية» فأين تقع فلسطين؟

هكذا، لكي تضيع فلسطين أرضاً كان يجب أن تضيع لغةً أيضاً.

وأنا كلما سمعت كلمة «الضفة الغربية» أفكر بخطورة التلوث اللغوي المقصود الذي أدى بالفعل إلى اغتيال اسم «فلسطين».

هذا ما لم يدر بخاطر الشاعر الصيني «بي داو» عندما صدم بحالة الإنكار التي صادفها أمام القنصلية الإسرائيلية في سان فرانسيسكو، حين قال للشاب الواقف أمامها، إنه يريد السفر إلى فلسطين، فقال له ذاك الشاب:

— إن هذا البلد لا وجود له على الخريطة يا سيدي!

في المستقبل سوف تنشر مجلة «نادي القلم الدولي» Pen International قصيدة كاملة لي على غلافها الخارجي، وهذا تكريم منهم بلا شك، كانت القصيدة بعنوان «تفسير»

شاعرٌ يَكْتُبُ في المَقْهى.
العجوزْ، ظنَّتْهُ يَكْتُبُ رسالةً لوالدتِهْ،
المُراهِقَة، ظَنَّتْهُ يكتب لحبيبتهْ،
الطفل، ظَنَّهُ يرسمْ،
التاجر، ظَنَّهُ يَتَدَبَّرُ صَفْقَة،
السائح، ظَنَّهُ يكتُبُ بِطاقَةً بريديَّة،
الموظَّف، ظَنَّهُ يُحْصي دُيونَهْ
رَجُلُ البوليس السِّرِّيّ،
مَشى... نحوَهُ... بِبُطء!

لكن إدارة المجلة، بدلاً من أن تكتب في الفهرس: «مريد البرغوثي — فلسطين» كتبت «مريد البرغوثي — السلطة الفلسطينية»!

عندما طالبتهم بتفسير الأمر قالوا إنه لا يوجد بلد في العالم اسمه فلسطين، وكان ردي: وهل

«السلطة الفلسطينية بلد»؟
ليست إسرائيل وحدها المسؤولة عن طمس اسم فلسطين إذن، إنه العالم. الدكتاتوريات العربية أكثر من سواها وقبل أوروبا وقبل كل الدول الغربية المتحالفة مع إسرائيل ساهمت ولا تزال تساهم في هذا الاغتيال اللغوي وهي لا تقل إجراماً عن إسرائيل في هذه الناحية على الأقل.
لم أشرح هذا كله لمن معي في وفد الكتاب فالموقف لا يسمح بالإسهاب. كل ما أردت الإشارة إليه أن دولة إسرائيل لا تزال تلاحق اللاجئين في ملاذاتهم منذ ستين سنة، هكذا أصبحت مجازر مخيمات اللاجئين التي تحمل أسماء جنين وصبرا وشاتيلا وبرج البراجنة وتل الزعتر وسواها جزءاً من سياق تشريد الضحية مرتين وقتلها مرتين. نعم مرتين، وربما أكثر، وإلا فما معنى الاحتلال؟
هنا في مخيم الأمعري رأى الكتّاب الضيوف ورأينا تكتيكات الجيش الإسرائيلي المتبعة في اقتحامه:
يدخلون أحد البيوت، يعتقلون كل سكانه، يقيدونهم بسيور مطاطية، ثم، بأسلحة تفجير خاصة طورتها إسرائيل لمثل هذه الغارات، يحدثون فجوة ضخمة في الحائط المشترك مع البيت المجاور ويقتحمونه، وهكذا تفاجأ الأسر الفلسطينية، بجنود ينبثقون من الحائط كما في الكوابيس. بعد ذلك يهدمون جداراً آخر لاقتحام البيت التالي، يقتلون من يريدون قتله ويعتقلون من يريدون اعتقاله، وهكذا من بيت لبيت ومن فجوة لفجوة، تنشق الجدران عن جنود «جيش الدفاع» كما في أفلام رامبو وحروب هوليوود. نحن وضيوفنا دخلنا مثلهم من إحدى هذه الفجوات واستمعنا لرواية الأهالي عن هذا النمط المتكرر من الاقتحامات. بعضهم دلنا على مواقع الفجوات في الجدران من آثار اقتحامات سابقة بعد أن رمموها بشكل عشوائي وبمواد بسيطة.
عندما تجولنا في أزقة المخيم شبّه أحدهم الأمهات الفلسطينيات الواقفات صفوفاً أمام بيوتهن ب«جوقة المرتّلات في التراجيديا الإغريقية».
قلت في نفسي هذا مخيم السائق محمود. «أنا من مخيم الأمعري» قفزت عبارته إلى مسامعي فور دخولنا المخيم، ما الذي جرى له ولعائلته؟ قلت سأسأل عنه حيث يعمل صباح الغد لكنني لم أرد أن أسأل في الحقيقة لئلا أسمع الإجابة التي لا أريد.
أما اقتحام الجيش للبيوت داخل المدن فيتم باختطاف شخص ما واتخاذه درعاً بشرياً، يرغمونه على الصعود إلى الدبابة كما حدث مع صديقي حسام ذات مرة، ويطلبون منه تحت تهديد السلاح قرع جرس بيت من بيوت الجيران التي يريدون اعتقال أحد أفرادها معلناً عن اسمه، فيفتحون له الباب مطمئنين، فيندلق الجنود إلى الداخل. كل ما فعله حسام أنه اصطحب زوجته في اليوم التالي، زائراً جيرانه مفسراً لهم الأمر، لكنه اكتشف أنه لم يكن بحاجة للتفسير. الجيران، ككل سكان المدينة، تعودوا على هذا الأسلوب لكثرة تكراره وسبق أن تعرّضوا لما تعرّض له.
دخلنا إلى مدرسة هي مركز تدريب على الكمبيوتر في «الأمعري»، فوجدنا الأرض ركاماً من الأوراق والبلاستيك والأسلاك والوصلات وأجهزة الكمبيوتر منبعجة متفسخة والكراسي محطمة وحفر الرصاص على كل الجدران. عندما سألنا عن مصير الأطفال قالوا لنا إن الجيش أخرجهم أولاً ولم يصبهم بأذى. كان الهدف هو تدمير المدرسة وأجهزة الكمبيوتر فقط. ولا يعرف معنى تدمير مدرسة فلسطينية في مخيم للاجئين إلا من عاش أو سمع حكاية الفلسطينيين مع التعليم والدراسة. فبعد التهجير الجماعي الذي نجم عن النكبة عام ١٩٤٨ عاش اللاجئون في خيم نصبتها

لهم وكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة «الأنروا» في الأردن وسورية ولبنان، وكانت تقدم لهم ما يسد الرمق من المعونات كالطحين والبرغل والسكّر وبعض الملابس وتوزع ذلك كله في أكياس من الخيش يصنع منها اللاجئون بدورهم ثياباً رثة المنظر وسراويل داخلية، وكنت ترى الأطفال أمام خيمهم وعلى مؤخراتهم أعلام أميركا وبريطانيا وكندا وغيرها وتحتها كلمات مثل «هدية من كندا» أو «من الشعب الأميركي» أو «النقطة الرابعة» بشعارها الشهير الذي هو يدان تتصافحان. المهم أن الأنروا كانت ترفض إقامة مدارس لهؤلاء الأطفال رغم إلحاح ذويهم، فهم وقد تحولوا إلى فقراء لا يريدون أن يتحولوا إلى جهلاء وأميين. قال لي أحد المدرسين الأوائل في تلك المخيمات إنه تمكن من إنشاء أول مدرسة في المخيم بعد عامين كاملين من النكبة أي عام ١٩٥٠ وأنه وضع ستّين طالباً في الخيمة الواحدة. وكل ما قدمته لهم الأنروا هو الطباشير والسبورة السوداء. أحضر لوحاً خشبياً وكتب عليه كلمة «مدرسة» وتحتها كلمة School بالإنكليزية وثبت اللوح على رأس خشبة ودقها في العراء. كان الأطفال يعتبرون المدرسة نعيماً مقارنة بسأم المخيم. إلى هذا الحد، حد الشغف واللهفة.

كان وجع أهالي مخيم الأمعري على هدم مدرسة الكمبيوتر وجعاً حقيقياً رغم أنهم كالعادة تعلموا أن يتجاوزوا أوجاعهم بسرعة. ففي الصراعات الطويلة يعيش الطرف الأضعف ما يمكن أن أسميه «وجعاً تاريخياً». في هذه الصراعات تتكرر الحادثة والكلمة والدمعة، يتكرر كل شيء، يتكرر اليأس ويتكرر الأمل. تتكرر البطولة والخيانة. يتكرر الدم وتتكرر المراثي. في الصراعات الطويلة لا حاجة بنا لانتظار المجزرة حتى يعقبها الوجع، ولا حاجة بنا لانتظار تكوّن الواقع حتى يتكوّن الفن. هناك دائماً في ما كتبناه في الماضي ما يصلح تماماً لوصف المستقبل.

إن أقسى درجات المنفى أن لا يكون الإنسان مرئياً. أن لا يُسمح له بأن يروي روايته بنفسه. والشعب الفلسطيني يرويه أعداؤه ويضعون له التعريف الذي يناسب حضورَهم وغيابَه. يلصقون على جبينه الوصمةَ التي يريدون. مسموحٌ للطرف الأضعف في أي صراع أن يصرخ، مسموح له أن يشكو، مسموح له أن يبكي، ولكن ليس مسموحاً له أن يحكي حكايته أبداً. الصراع على الأرض يصبح صراعاً على الحكاية. وشيئاً فشيئاً يكتشف الضعيف أن عدوه لا يأذن له بأن يكون «مظلوماً». العدو يأذن له أن يكون «مخطئاً» فقط. وناقصاً فقط، ويستحق الألم لأنه يجلبه لنفسه نتيجة نقصانه وعيوبه هو لا نتيجة لسلوك العدو. وهذه أقسى حالات غياب العدالة. وغياب العدالة منفى، والتنميط منفى وسوء الفهم منفى. وبهذا المعنى فإن الشعب الفلسطيني كله منفيّ لأن حكايته غائبة. في هذه الزيارة رأى عدد قليل من كتّاب العالم بعض ملامح الرواية الفلسطينية وأصبح منفانا أقل قليلاً.

كنت أسير مع الكتاب وأرى الأمهات، مرتّلاتِ التراجيديا الإغريقية، يحاولن الاحتجاج على مآسي الفقد وتكرار القتل بالتواصل مع هؤلاء الأجانب بلغة لا يعرفونها.

في حديث لمحطة إذاعية قال ساراماغو:

كل ما اعتقدت أنني أملكه من معلومات عن الأوضاع في فلسطين قد تحطَّم، فالمعلومات والصور شيء، والواقع شيء آخر، يجب أن تضع قدمك على الأرض لتعرف حقاً ما الذي يجري هنا. يجب قرع أجراس العالم بأسره لكي يعلم أن ما يحدث هنا جريمة يجب أن تتوقف. إنها أمور لا تغتفر يتعرض لها الشعب الفلسطيني.

لكن الدنيا قامت ولم تقعد بسبب مقارنة ساراماغو في هذا الحديث بين جرائم الاحتلال الإسرائيلي

وجرائم النازي عندما قال إن الفلسطينيين يعيشون في معسكر اعتقال كبير وشبّه رام الله بأوشفيتز.
لم يجد برايتن برايتنباخ صعوبة في مقارنة الوضع بما عاشه في ظل نظام الفصل العنصري في بلده جنوب إفريقيا، والروائي الأميركي راسل بانكس أثاره أن «جنود الاحتلال يبدون شباناً أنيقي المظهر، «انظر، هذا الفتى يقوم بعمله بصورة أفضل مما يجب»، الجندي الأنيق المظهر يتفحَّص بطاقات الكتاب على الحاجز العسكري، بملامح خالية تماماً من أي تعبير. لكن ما أقام الدنيا ولم يقعدها كان خوسيه ساراماغو إذ قارن بين الوضع في رام الله وأوشفيتز.
انبرى لمهاجمته أهل السياسة الإسرائيليون وأهل الأدب أمثال عاموس عوز وأ.ب. يهوشواع ومعظم مثقفي إسرائيل (المناصرين للسلام إلى أن تحاربنا حكومتهم فيناصرون الحرب!) واتهموه بمعاداة السامية وب«العمى الأخلاقي» ومن بعيد أطل برأسه الروائي المجري إمري كيرتيس ليضم صوته المتوّج بجائزة نوبل إلى الأصوات التي قررت أن ساراماغو كاتب «رديء وفاشل» أصلاً، ومعاد للسامية في كل الأحوال! طالب البعض بإزالة رواياته عن رفوف المكتبات ومقاطعة كل ما ينشر، أما وزارة الخارجية الإسرائيلية فقالت «إن السيد ساراماغو وقع ضحية الدعاية الفلسطينية الرخيصة».
فكيف رَدَّ ساراماغو؟
ساراماغو قال:
— «إني أفضِّل أن أكون ضحية الدعاية الفلسطينية «الرخيصة» بدلاً من أن أكون ضحية الدعاية الإسرائيلية «الباهظة التكاليف»!
في المستقبل، بعد زيارة وفد الكتاب بأيام قليلة، عندما يقوم الجيش الإسرائيلي باقتحام مخيم جنين، وبسبب وجود عدد محدود من المقاومين الفلسطينيين داخل المخيم تقوم طائرات الأباتشي وال (إف — ١٦) بقصفه، وتنجح في مسحه عن وجه الأرض. وتتقدم الجرافات والبولدوزرات تهبّط البيوت بمن فيها.
سيقوم العالم كله ضد مجزرة جنين ولكنه سرعان ما تأمره أميركا بالقعود، فيقعد.
يقرر مجلس الأمن إرسال لجنة تحقيق دولية للكشف عما جرى في المخيم.
يصل أفراد اللجنة إلى جنيف في طريقهم إلى إسرائيل.
إسرائيل تعلن أنها ترفض استقبالهم.
ينتهي الأمر عند هذه النقطة. بكل بساطة. ينتهي الأمر. ويعود الوفد من حيث أتى.
نذهب إلى بير زيت لزيارة الجامعة. نجتاز حاجز سُردا سيراً على الأقدام كما يجتازه أساتذة الجامعة والطلاب وسكان القرى المجاورة من موظفين وحرفيين وتجار ومرضى، وفي الجامعة يجري لقاء مع الأساتذة. بعد الاجتماع يطلب منا رئيس الجامعة أن نكتب كلمات قصيرة ونوقع بأسمائنا جميعاً على لوحة بيضاء ستحتفظ بها الجامعة تذكاراً للزيارة. كنت أقف بجوار ساراماغو أنتظر أن ينتهي من كتابة كلمته، حتى أكتب كلمتي. أراه يرسم وردة ويكتب تحتها بالبرتغالية:
«الدولة الفلسطينية» ثم يكتب تحتها
قطرة ماء من أجل هذه الوردة.
ويوقع:
خوسيه ساراماغو.
يمر العشاء كما تمر العشاءات الكبيرة، أحاديث جانبية لا تكتمل تقطعها مصافحات مهذبة

وعبارات تعارف ومجاملة وتعليق على الطعام ومقدار لا بأس به من النميمة. لا يخلو الأمر من طرائف تتعلق بسلوك هذا الكاتب أو ذاك. في اليوم التالي سوف يتم اللقاء المرتجل مع ياسر عرفات، في مقره المحاصر في مبنى المقاطعة، دون جديد، سوى ما لاحظه الوفد من بساطة مكتبه وإجاباته المجازيّة على أسئلتهم.
مكتب «الرئيس الفلسطيني» غرفة مستطيلة فيها عدد من المقاعد، ومكتب خشبي عادي على يمين الداخل تكتظ عليه الأوراق والملفات والأدوية والأقلام، وراء المكتب خزانة خشبية بسيطة الشكل وعلى سطحها أشياء عديدة ملقاة على غير نظام، لم أتأملها.
بالنسبة لي هذه هي المرة الثالثة التي أدخل فيها مقراً يقيم فيه عرفات. الأولى كانت قبل ربع قرن تقريباً لأداء واجب اجتماعي بحت، كنت في بيروت وكان يجب أن أذهب مع أصدقاء لتعزية أبو اللطف في وفاة شقيقه وكان عرفات قد فتح بيته للعزاء تكريماً لرفيقه عضو اللجنة التنفيذية للمنظمة. والمرة الثانية عندما جئت من بودابست مدعواً للمشاركة مع شعراء البلدان العربية في ملتقى الشقيف الشعري في بيروت، تخليداً لذكرى تحرير قلعة الشقيف في الجنوب اللبناني من الاحتلال الاسرائيلي على يد القوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة. وكان عملاً بطولياً حقاً فقد استولى الشباب على القلعة الشاهقة الارتفاع من مواقعهم في الوديان والسفوح. كان من بين الكتّاب المدعوين سعدي يوسف وأمل دنقل وممدوح عدوان والياس خوري ولميعة عباس عمارة ويحيى يخلف ورضوى عاشور التي جاءت من القاهرة وبرفقتها تميم وعمره أقل من ثلاث سنوات. تلقينا جميعاً دعوة للغداء في بيته. في الغداء اصطحبنا تميم معنا فأجلسه أبو عمار في حجره طوال الوقت، ويحتفظ تميم إلى اليوم بصورته في حجر الرئيس يحيط بهما الشاعران أمل دنقل وسعدي يوسف وآخرون من الكتاب العرب والقيادات السياسية الفلسطينية واللبنانية. واليوم، هذه زيارتي الثالثة.
وقد يبدو هذا الأمر طبيعياً لو لم يكن بيت عرفات ومكتبه مزاراً متاحاً يؤمه كوادر المنظمة وفتح والفصائل والأحزاب الأخرى، ويقصده إلى جانب المناضلين الحقيقيين وأصحاب القضايا السياسية الجادة، كل من أراد معونة مادية أو سلفة أو تذكرة سفر أو مصاريف حفل زواج أو قسط ابن أو بنت في الجامعة، وكل من أراد النميمة والغيبة والدسّ أيضاً. كانت جلسته في جزء منها جلسة فواتير. ويعرف الكل عبارته الأكثر شهرة عند الجميع إذ يشير إلى طلبات المساعدة بكلمتين اثنتين هما «يُصرف له» مشفوعةً بتوقيعه.
وعرفات يحب أن يُطلَب منه ويحب من يَطلُب منه، إنه يرتاب في أي شخص بلا مطالب مادية. لم أحضر أي انتخابات داخلية إلا ورأيتها أنا وغيري تطبخ علناً قبل وقوعها، ودائماً من أجل الوصول إلى نتيجة ترضي الرئيس، وعند إعداد ذلك الطبيخ الانتخابي يعرف الرئيس على أي من كوادره يعتمد. فهو يعطيك ولا ينساك، لأنه ذات يوم سيعوّل عليك.
من هنا كان حرصه على الاحتفاظ بحقيبة الماليّة في أي تشكيل لفتح أو لمنظمة التحرير الفلسطينية إلى جانب رئاسته لكلتيهما. لم أكن راضياً عن كثير من سياساته ولا عن قبلاته المتبادلة مع الحكام العرب وميله لتنفيذ إملاءاتهم واستعانته بعناصر سيئة لخدمة قضية تستحق أن يستعان بأفضل عناصر شعبنا لخدمتها، لكني رغم ذلك كله كنت شأني شأن الشعب الفلسطيني كله لا أرى في أخطائه أخطاء المجرم بل أخطاء الضحية. كان يواجه من الصعوبات ما لا يحمله جبل.
أقول لنفسي في ما يشبه النقد الذاتي:

هذا قائد حركة تحرر في المنفى يحيط به عشرون نظاماً عربياً يرونه خطراً عليهم، يتمنون فشله، يتحالفون مع أعدائه، يمنعونه من القول والفعل والحركة، في أحيان تكررت، يرفعون في وجهه السلاح ويطاردون كوادره وفدائييه من الأردن إلى لبنان إلى اليمن وليبيا وسورية والسودان حتى حشرت الثورة كلها في «فندق سَلوى» في تونس. كان يداري ويواري ويجامل ويقدم تنازلاً هنا ليكسب نقطة هناك وكان بالضرورة يخطئ، مرة أخرى خطأ الضحية لا خطأ المجرم. ها هو يعيش هنا في «المقاطعة» تحت قصف الدبابات الإسرائيلية وفي ظل تخلّي كل الحكام العرب عنه، وكيف أن بعضهم يرفض الرد على مكالماته الهاتفية، فأشعر أنه يخصّني. أظل أسأل نفس السؤال الذي يسأله «حنظلة» طفل ناجي العلي، السؤال الذي ختمت به إحدى قصائدي المهداة إلى الرسام العظيم قبل خمس وعشرين سنة:

أبي يا أبي كيف أوصلتني ها هنا؟

أبي يا أبي كيف أوصلتنا ها هنا؟

سأله الشاعر الصيني بي داو ما الذي تغير حوله في هذا العالم وقد عايش أحداثه طوال عقود.

عرفات طلب من مساعده أبو ردينة أن يحضر له مجسّماً ما فلم يجده، فقام بنفسه مستأذناً ضيوفه الكتّاب وأحضر من فوق خزانة خشبية في طرف الغرفة المستطيلة مجسماً لمسجد وكنيسة وكنيس، وقال له:

— قد أكون الزعيم الوحيد في العالم الذي يضع في مكتبه مجسماً كهذا. الأديان الثلاثة هنا في مكتبي.

بدا على الوفد السرور.

أما أنا فقلت لنفسي: «ها هو يخطئ مرة أخرى». هذا الاعتداد بتسامحه الديني جميل كموقف فكري عام، لكن من قال إن خلافنا مع إسرائيل خلاف دينيّ؟

هذا الخلاف لم يبدأ من السماء ولن يحل في السماء بل هو خلاف على هذه الأرض، بدأ بسبب احتلالها ولن يجد حلاً إلا بإنهاء الاحتلال.

مشكلتنا مع اليهودي ليست في سمائه بل في خوذته التي تدّعي أنها السماء، وفي بندقيته المصوَّبة على رؤوسنا منذ عشرات السنين.

يسقف اليهودي رأسه بالخوذة فيطير سقف البيت الفلسطيني. خوذة المستوطن اليهوديّ هي خيمة اللاجئ الفلسطينيّ.

كان عرفات لثلاثين عاماً يغرق تدريجياً في أخطائه، وكان أعداؤه وأعداؤنا يدفعون به لإغراقه نهائياً وكان معاونوه ومستشاروه الذين اختارهم أعجز من أن ينتشلوه لأنهم لم يتعلموا إلا انتشال أنفسهم فقط عند كل محنة. وكان خصومه الفلسطينيون من الفصائل الأخرى أضعف من مكائده وتكتيكاته فخسروا، في معاركهم ضد نهجه، كل جولاتهم.

كان عرفات بارعاً في هدم خصومه، ولم يكن بارعاً في هدم أعدائه.

عندما وقفنا لوداعه في نهاية اللقاء طلب منا الانتظار قليلاً.

قام إلى مكتبه في الطرف الآخر من الغرفة، قرفص يبحث في الأدراج عن شيء ما، ثم عاد إلى مكانه الأول وفي كفيه علب بلاستيكية مربعة صغيرة الحجم، يحشرها بين يديه وصدره لئلا تسقط، ثم أخذ يفتح العلب واحدة واحدةً، ويخرج مها دبابيس عادية صغيرة يعلق دبوساً منها على صدر كل ضيف من ضيوفه كأنه يعلّق على صدره أرفع الأوسمة!

عندما وصلني الدور وأعطاني واحداً تأمّلتُ الدبوس.
شارة بلاستيكية مستديره، صغيرة بحجم القرش، مكتوب عليها «بيت لحم ٢٠٠٠»؛ و«بيت لحم ٢٠٠٠» هو مشروع سياحي مضى وانقضى منذ عامين لتهيئة المدينة لاحتفالات الألفية الثالثة ومن الواضح أن هذه الدبابيس التي وزعها على ضيوفه هي القليل الذي تبقى من آلاف مثلها علّقها أهل المدينة وزوّارها على صدورهم في تلك المناسبة.
أراد أن يعطي تذكاراً رئاسياً لضيوفه فلم يجد إلا هذا الدبوس البلاستيكي المتواضع، وهو سجين هذا الحصار الذي يعزّ فيه الرغيف وكأس الماء. لكن ياسرعرفات قدّمه بلمسة المضيف المعذور الذي «يجود بالمَوجود»، وبمودَّة مَن لا تعوزه الحيلة في أصعب الظروف.
في المستقبل، عندما يأتيني خبر وفاته وأنا في جولة أدبية في أجمل بقاع الريف الإنكليزي قرب «حائط هدريان» في شمال إنكلترا، أبلغتُ منظِّمة الجولة بأنني أريد العودة في صباح اليوم التالي إلى لندن. وقد كان.
قطعت جولتي الأدبية. عدت وحدي إلى لندن، لا لكي أفعل شيئاً ولكن لأني ببساطة لم أكن قادراً على الاستمرار في جولة في «أجمل بقاع الريف الإنكليزي» في يوم كهذا.
دار الشريط الطويل في البال. هذا زعيم عربي، طعامي أفضل من طعامه، شرابي أفضل من شرابه وملبسي أكثر أناقة من ملبسه، صورته معلقة على حائط مهشّم، إطارها دويّ الراجمات والقنابل والرصاص الذي يستهدفه، في ليلِ مَقرّهِ المضاء بشمعة أو شمعتين تم العثور عليهما بالصدفة في المكان، تخلى عنه كل الزعماء العرب، لم يرسلوا له رغيفاً أو كوب ماء، لم يطالبوا شارون بفك حصاره، بل إنهم بسبب سياساتهم المتواطئة مع السياسة الإسرائيلية والأميركية ظلوا يضغطون عليه ويدفعونه دفعاً لتقديم التنازلات والمزيد من التنازلات. لم تكن خطيئة توقيعه اتفاق أوسلو إلا واحدة من نتائج ضغوطهم عليه ويأسه من أي خير تأتي به أنظمتهم الراجفة المصابة بداء سمّيته داء «الخوف من النصر».
هؤلاء هم نفس الزعماء الذين كم تسابقوا لالتقاط صورة إلى جانبه ليكتسبوا ودّ شعوبهم من الباب الفلسطيني. لم يعد الأمر «سياسياً» بالنسبة لي، بل أصبح مشهداً وجودياً حيناً وحيناً آخر مشهداً لمصائر البشر وتقلب دولاب «الفورتونا» بتلك المصائر من أعاليه إلى قاعه. هو نفس المشهد الذي ملأ رفوف المكتبات بالتراجيديات الإغريقية التي ترتجف الطبيعة من أناشيد جوقاتها الحزينة حاملة النذر وسوء الطالع، والتي علّمت الأيدي معنى إسدال الستار في الفصل الخامس.
حملته المروحية من ساحة المقاطعة إلى مستشفاه الباريسي كطفل يوزع القبلات على يمين الهواء وعلى يسار الهواء بتكرار غريب، هي ذاتها القبلات التي طالما انتقَدْتُها في حياته حين يطبعها على خدود هؤلاء الزعماء الذين خافوا الاقتراب منه حتى لا يلومهم سيد البيت الأبيض، وصدّقوا تهمة الإرهاب الأبدية التي التصقت به وبشعبه كله لتستمر العدالة في غيابها المُدَبَّر. فالعدالة لا تغيب بالصدفة ولا تختفي إلا تحت حذاء عسكري أو تحت لسان أخرس. قبلاته هذه هي الآن قبلات للشعب الذي خرج يودّعه إلى رحلة العلاج التي... لن تعالجه.
أنا المواطن البسيط الذي لم أؤيد سياساته أتنعّم في «أجمل بقاع الريف الإنكليزي» وهو في حصاره الطويل في حاجة إلى نصف علبة سردين، وهو بين أيدي أطبائه في حاجة إلى جرعة هواء، وهو في كفنه في حاجة إلى مترين من الأرض في مدينته القدس، لعلّ ترابها يضم إلى ذاكرتها جسدَه القصير وحكايتَه الطويلة. لكنه أيضاً «الرئيس» العربي الوحيد الذي قال «لا»

لرئيس أقوى دولة في العالم، ورفض التنازل، ومات موتاً ملتبساً لن يتضح إلا عندما يحقق عِلم السموم وبحوثها تقدماً عظيماً يكشف الأسرار.
رآه البعض أباً. ولم أره «أباً» على الإطلاق. أنا من الأساس لا أحب للزعيم أن يكون «أباً» ولا أحب للمواطنين أن يكونوا «أبناءً» ولا أحب للوطن أن يكون «عائلة».
لكن طريقته في الموت البسيط كانت أكثر تعقيداً من أن أمرّ عليها كَسُنَّةٍ مكررة من سُنَن الحياة.
هنا مقدار من لوم الذات ومن بعض الندم على مواقفي السابقة، وهنا مقدار من الحيرة في تحديد إرثه التاريخي وفي تسمية دقيقة لما سيبقى منه للتاريخ.
لكن مهلاً. هو قام بدوره كسياسي يصيب ويخطئ وقمت بما أظن أنه دور المواطن، وهو دور لا يقتصر على التصفيق.
إنسانية الزعيم لا تظهر في ممارسة اللعبة السياسية بل تظهر في لحظات غياب السياسة. كان يزورنا في دار الإذاعة بالقاهرة ويكون غداء الجميع أقراصاً من الفلافل، مفرودة على ورق الجرائد أو على مسودات تعليقاتنا السياسية المعدة للميكروفون والتي أردنا لها أن تشعل الأرض تحت الاحتلال وأن تشعل الثورة في صدور الفلسطينيين، وإن قررنا الاحتفاء يكُنِ الغداء سَمَكاً مقْلِيّاً من مطاعم توصيل الطلبات الجاهزة، بسكاكين وشوكات من البلاستيك الذي ينكسر عند أول لقمة فنستبدل به أصابعنا. نشرب الماء في أكواب من الورق أو البلاستيك ونقف صَفّاً أمام حنفيّة بائسة في مبنى الإذاعة الفقير، قبل أن يدور الكلام ثانية، فيقول ما نرضى عنه وما لا نرضى.
كنت أقول لزملائي في «إذاعة صوت فلسطين»، «لو نجح هذا الرجل في إزالة الاحتلال وأصبح رئيساً «لجمهوريتنا الفلسطينية المستقلة» فسيكون الرئيس العربي الوحيد الحاصل على منصبه باستحقاق النضال والعرق والسهر لا بالانقلابات ولا بالانتخابات المزورة ولا بالاستفتاءات المعروفة النتائج سلفاً ولا بدعم السي آي إيه والبنتاجون». فما الذي حدث؟
منحته اتفاقيات أوسلو نسخة مصورة «فوتوكوبي» عن المنصب الرئاسي. وها هو يذهب من الحصار إلى الغياب الأبدي وما زالت فلسطين المستقلة تنتظر. وسوف يطول الانتظار. وسوف يكون انتظاراً موجعاً، موجعاً ربما أكثر مما تخيل الرجل.
الكارثة الحقيقية التي يعيشها الفلسطينيون هذه الأيام هي وقوعهم تحت قيادة التلاميذ في غياب الأستاذ.
على يد هؤلاء التلاميذ، وبفضل تخبطهم بين المشروع الوطني وعجزهم عن الدفاع عنه، تحولت السلطة الفلسطينية إلى مجرد NGO ضخمة، تعيش على مساعدات الدول الأوروبية مالياً، وهي لا تدرك أن أوروبا بإنفاقها المالي على السلطة الفلسطينية إنما تموّل الاحتلال العسكري الإسرائيلي وتطيل من عمره. إسرائيل تحتل البلد وأوروبا تدفع مصاريف الاحتلال والسلطة تنفذ الشروط الإسرائيلية. نعم. من حركة تحرر عنيدة في مثابرتها وعنادها إلى مجرد NGO بدينة مترهلة يلوّحون لها بالعصا والجزرة، تخشى الأولى فتلهث بسذاجة وراء الثانية، غير مدركة أن الجزرة بالتحديد هي التي تجسّد اللؤم الاستعماري طوال التاريخ. فلا أحد يبتلع العصا ليختنق بها، بل إن العصا ربما تحفز على المقاومة والتحمّل والتحدّي وتجعلك تبحث عن مصدر قوتك لتحمي نفسك على الأقل. أما الجزرة فهي التهديد الحقيقي. الجزرة ناعمة وطرية وحلوة المذاق من أحد طرفيها فقط، لكنها، شيئاً فشيئاً، تزداد غلظة وخشونة وتخشباً في طرفها الثاني. «الجزرة» الاستعمارية هي «العصا» الحقيقية في واقع الأمر.

هذا ما لم تتعلمه السلطة.
هذه السلطة تسير، وأحياناً تركض ركضاً نشيطاً مخلصاً متفانياً، خلف الوعد المفخخ، لكنها تتعرقل بذيل سروالها وتكبو مع كل خطوة. عندما تقوم ثانيةً من كبوتها وتحاول استئناف سيرها وسيرتها، تجد أنها ابتعدت عن الناس واستخفت باحتياجاتهم الصغيرة الملحة، وأصبحت في وادٍ غير واديهم، وفقدت السيطرة حتى على أعوانها ومؤيديها. الابتعاد عن الناس والاستهتار بهم كأفراد هو وصفة الكارثة في كل عمل سياسي. ويكاد يكون هناك إجماع بين الفلسطينيين على أن الاقتتال الداخلي المسلح والدامي بين فتح وحماس ما كان يمكن أن يقع لو كان عرفات حياً، ليس لأنه قديس، فحتى القديس ذاته لا يمكن أن يظل قديساً بعد أربعين سنة متصلة في السلطة، ولا بد له أن يرتكب سلسلة أخطاء وخطايا، وقد ارتكب الرجل قليلاً أو كثيراً منها، لكن عرفات كان يعرف كيف «يسيطر على أعوانه» مهما بلغ بهم الشطط، ويعرف كيف يبرّد نار خصومه في الفصائل الأخرى. الحرب الأهلية الدامية، حتى وإن أوصلته الظروف إلى حافتها أحياناً، ليست من المفردات السياسية لياسر عرفات.
في اليوم التالي كان لقائي بمروان البرغوثي. أدركت أن غيابه عن نشاطاتنا مع وفد الكتّاب العالميين راجع لحذره الأمني، وهو القارئ الجيد والمتابع للكتابات السياسية والأدبية في العالم العربي، لكنه تابع مواقف وتصريحات كريستيان سالمون وولي شوينكا وبرايتن برايتنباخ وساراماغو وكونسولو من مَكْمَنِه، وتحدث طويلاً عن ضرورة أن تعود فلسطين لتصبح الملتقى الأخلاقي لأصحاب الضمير في العالم كله.
لم أكن أعلم ولا هو كان يعلم أنه بعد أيام، سيتم اعتقاله ليغيب طويلاً في سجون الاحتلال، وتخسر فلسطين جهد أحد رجالها النظيفين.
الحدث الأجمل في زيارة الكتاب كان في مسرح القصبة في رام الله، في أمسية القراءات المشتركة بين الشعراء الفلسطينيين والكتاب الضيوف، كان نجم الليلة هو الجمهور الذي تجاوز الألف من النساء والرجال الذين جاءوا إلى المسرح من كل مكان رغم الحصار، سهروا حتى منتصف الليل، رغم مخاطر الحواجز ومنغصاتها، من أجل الشعر والأدب وللترحيب بضيوفهم الكتاب. أصغى الجمهور لقراءات بلغات لا يعرفونها إصغاء احترام ومتعة تسمع فيه رنة الإبرة، وكانوا في نهاية الأمسية قد مسَّهم سحرها فصفّقوا واقفين لدقائق طويلة. مسرح وسينماتيك القصبة هذا كان سابقاً دار سينما الجميل القريبة جداً من بيتنا في عمارة اللفتاوي وقد حوّله المخرج والممثل السرحي جورج ابراهيم إلى وضعه الأنيق الحالي. أحب أهل رام الله المكان ونشطت فرق المسرحيين المحترفين والهواة في تقديم أعمالها المختلفة على خشبته.
في المستقبل التالي مباشرة لهذه الأمسية النادرة، بعد ثلاثة أيام فقط من سفر الضيوف، سوف تقتحم الدبابات الإسرائيلية مدينة رام الله وتدوس مسرح القصبة. سيقتحمه الجنود ويدمرون الديكورات واللوحات والستائر والمقاعد بينما أصداء قراءاتنا وقراءات ضيوفنا ما زالت تتردَّد في هواء المكان، وسيكتب صحافي عن هذه الواقعة بعد ذلك قائلاً:
— «كأنهم كانوا يحاولون تحطيم كل احتمال لاستعادة الكلام»
كما سيقتحمون مبنى وزارة الثقافة الفلسطينية وهو بناية عالية تطل على مقر عرفات ويدمرونه ويتركونه مليئاً بالقاذورات. سيرتكبون نفس الأفعال في كل مدن الضفة (الغربية) وسيتركون قتلانا على أبواب البيوت.

أكثر ما يفزعني أن نعتاد الموت، كأنه حصة وحيدة أو نتيجة محتومة علينا توقعها في كل مواجهة. أريد أن نفكر في روعة الحياة مع كل انتصار مؤقت للموت. أسأل نفسي في قصيدة سأكتبها في المستقبل:

لماذا، كلما رأيت قتيلاً مسجّى

ظننته شخصاً يُفَكِّرْ؟

في ختام الزيارة وفي لقاء الكتاب الضيوف مع كتاب إسرائيليين من مختلف التيارات، ستبدو الكاتبة والناشطة الإسرائيلية المعروفة يهوديت هاريل أكثر جرأة ووضوحاً، إذ تنقل وكالات الأنباء لنا نحن الذين لم نكن هناك، قولها بعد أن دافعت عن ساراماغو وهاجمت منتقديه من المثقفين الإسرائيليين:

— ربما لم يولد أبداً أي معسكر إسرائيلي للسلام. حتى لو افترضنا العكس، يمكننا التأكيد الآن أنه اختفى منذ سنين. على الأرجح بسبب سوء استخدام الكلمات، وبسبب الفكرة المتسلطة علينا، خصوصاً، تلك التي تجعلنا نتكلم عن أنفسنا وعن الفلسطينيين باعتبارنا ندور في حلقة مفرغة من العنف المتبادل، وأن المسؤولية تقع على الطرفين بالتساوي.

وتتابع يهوديت هاريل كلامها، قائلة:

— أريد الاحتجاج على هذا التوازن الكاذب، وهذا الاستخدام المغلوط للكلمات. فلا يوجد طرفان متساويان في دائرة العنف، أحد الطرفين هو المحتل، والطرف الثاني هو ضحية احتلالنا نحن، وما زلنا نطلق صفة العنف على كل طفرة تمرد فلسطينية، وعلى كل نضال تحرري يلجأون إليه، وكل مقاومة للاحتلال الذي نمارسه. هذا ليس عنفاً، إنه ثورة شرعية.

في المستقبل سيوثق لهذه الزيارة بفيلم عنوانه «كُتّاب الحدود» وهو ينتهي بمناشدة يهوديت هاريل وفد الأدباء القادمين من جهات العالم:

— إني أضع ثقتي فيكم عندما تعودون إلى بلادكم كي تساعدونا على التخلّص من هذه الميثولوجيات الكاذبة، التي أصبحنا نحن أيضاً ضحايا لها.

الفصل الثامن الحَمْرا

ما أن فتح صاحب الشقّة بابها ليعرضها عليّ حتى دهمني اللون الأحمر، موكيت من الحائط إلى الحائط لونه أحمر، تجثم فوقه كنبة كبيرة وحولها أربعة مقاعد من النوع الذي يصعب زحزحته، لونها أحمر، أما لون الستائر فهو (من باب التغيير) أحمر فاتح. غرفة النوم بنية اللون ولها شرفة مطلة على حاكورة فيها شجرة توت وشجرة أسكدنيا وشجرة ليمون وبيت قديم واسع من طابق واحد، مطبخ معقول الحجم، وممر واسع يفضي إلى الحمّام الأنيق بشكل مفاجئ. من حاكورة الجيران كان صوت فيروز يصعد:

سَلِّمْ لي عليه
وقول له إني بْسَلِّمْ عليه
إنتَ ياللي بتفهمْ عليه
سَلِّمْ لي عليه.
سَلِّمْ.

بعد ذلك سمعت صوت بيانو يحاول عزف الأغنية محاولة لا بد أنها من تلميذ هاوٍ يتدرب. قررت أن آخذ الشقة. في اليوم التالي أحضرت حقيبتي من شقة الياسمين وأصبحت أسكن هنا في ما سأطلق عليه اسم «الحمرا». ذهبت إلى محل لبيع النباتات المنزلية واخترت شجرة عالية أوراقها غزيرة مستطيلة تشبه أوراق شجر المانجو، سألت عن أصلها فقال لي البائع إنها تايلاندية وذكر لي اسمها الصعب ونسيته رغم كل محاولاتي لعدم نسيانه. وضعتها في ركن الصالة الأقرب إلى النافذه وأصبحت الشيء الوحيد الذي أمتلكه والذي اخترته بنفسي في الشقة المأجورة، وعلى الفور أصبحت تخصني. كانت تنمو بنشاط وتنمو بيني وبينها علاقة من الصداقة والألفة والإيناس.

تسلّمت عملي في المؤسسة.

رأيت «النامق» وأفعاله رأي العين. لا حاجة لي بالخوض في التفاصيل، فالنامق هو التفاصيل. النامق هو الباقي المستمر، لأن النامق صاغ نفسه على هوى السلطة، والسلطة صاغت النامق على هواها. «نوامق» العائدين من تونس فتشوا عن «نوامق» المقيمين ومدوا لهم اليد والفرص والمكاسب فتشكّل الحلف الذي هو آخر ما يلزم وأسوأ ما يلزم لحركة تحرر. قبلتُ أن أكون مديراً لهذه المؤسسة لسنة واحدة ومنذ الأسابيع الأولى تبين أنها منخورة بالفساد المالي. فواتير مزورة ورواتب ومخصصات وبدلات سفر وهمية وسبعون موظفاً لإنجاز عمل يقوم به عشرون على الأكثر. كالعادة انتصر الفساد ولو جزئياً هذه المرة. حاولت ولم أنجح تماماً ولم أفشل تماماً. وهذا في الوضع الفلسطيني الدقيق الراهن يُعَدّ فشلاً كاملاً.

إن الحياة تدرّسنا ما لا يمكن إغفاله: لا يُجدي أن يتقن «بعض» العازفين عمله في الأوركسترا. إما الإتقان الجماعيّ وإما النشاز. هذا في الموسيقى. فما بالك في حياة تخبّئ نفسها عن شعب كامل يريد استردادها من مخابئها ليتعرف إليها ويعيشها؟

وضعت على طاولة المشرف المالي على المشروع كومة الفواتير المزورة أو المشبوهة وطلبت اتخاذ إجراء بحق المستفيدين منها. فجاءتني نصيحته بتوقيعها ليتم صرفها.

قدمت استقالتي فرفضت وطلبت عقد اجتماع قلت فيه:

— أنا أضعف شخص في هذا الاجتماع، أنا بلا حزب وبلا فصيل وبلا يد تحميني في ما تسمونه «الحكومة» وبلا شلة تناصرني في أي مكان لكنني أملك هذا.
ورفعتُ قلمي بيدي اليمنى عالياً أمام عينيّ.
في اليوم التالي دخلت مكتبي فلم أتعرف على شكله الجديد:
طقم مقاعد من الجلد الأسود،
ستائر جديدة،
كمبيوتر جديد،
طابعة ليزر جديدة،
سجادة جديدة.
إنهم يجرّبون. هل يكفيه مكتب فخم ليخرس؟
قدمت استقالتي دون أن أنتظر رداً عليها وغادرت إلى عمان في اليوم نفسه.
بعد وساطات عديدة من أشخاص أحترمهم وعدوا بالضغط من أجل تحسين الأوضاع عدت على مضض بعد خمسة وثلاثين يوماً من الغياب.
تغيرت الأمور إلى الأفضل شهرين أو ثلاثة ثم عاد التواطؤ مع السرقات. كان انتهاء فترة المشروع غوثاً حقيقياً. عندما عدت إلى القاهرة كان أي أمل لي في أن ينعدل الحال في ظل هذه السلطة قد تلاشى.
لكن إقامتي شهوراً متصلة في رام الله، (باستثناء فترة استقالتي الاحتجاجية) سمحت لي أن أرى المطبخ السياسي والاقتصادي من داخله ولم يكن ما رأيته ساراً. قلت لنفسي إن معارضتي المزمنة مبررة تماماً ولست متجنياً على أحد. كنت ألوم نفسي على عزلتي وعلى تفرغي للقراءة والكتابة، والآن وقد منحتها الفرصة مجدداً لتكون داخل المشهد الوظيفي العملي قررت أن أحترم عزلتي الاختيارية وأن أواصلها إلى الأبد.
عدت إلى عزلتي مطمئناً هذه المرة.
النوامق سيظلون سادة المشهد الخفيّ والعلني وسيدوم ذلك طويلاً.
معاركي شبه اليومية من أجل وقف الهدر المالي صنعت لي خصوماً يحاربونني بالملامح أو بالكلام أو بالسلوك المؤذي. من طلبت مؤازرتهم من المعنيين تفننوا في التهرّب والهرب. توقفت عن مطالبتهم بأي شيء.
مرة أخرى أغادر.
مرة أخرى أنسحب.
مرة أخرى أهرب.
مرة أخرى أجبن عن مناطحة الأوغاد.
أقول الشيء وعكسه في آن: أقول لنفسي إنني جبان ولا أقوى على المناطحة، ثم أقول إنني لست ثوراً لأناطح ثيراناً وأرفض أن أتحول إلى ثور. أريد أن أقبل الوضع كإنسان سويّ أو أعارضه كإنسان سويّ.
«النوامق» لا يسمحون لإنسانيتك أن تعمل، هم يريدونك خِرقة خاسرة أو وحشاً خاسراً، لست هذه ولا ذاك. قد أكون خارج الأحداث بانسحابي لكنني متأكد من أن الوطن لن تحرره الخِرقة ولا الوحش.

هذه المرة أنسحب ولا أندم ويدهشني أن إسرائيل لم تتوقف عن اجتياحاتها وعن عمليات القتل العشوائي. كأنها لا تريد تسهيل نجاح حزب «النوامق» في ممارسة السلطة. تضرب «المعتدلين» بالشراسة التي تضرب فيها «المتشددين» ولا تسمح لأي من الطرفين بتحقيق أي إنجاز يقدمه للناس لكي يستمر في الحكم باسمهم.
في تلك الأيام قررت أن أقوم بعملي على أن لا أسمح له بتنغيص يومي كله. جعلت مساءاتي لي. وكذلك صباحات أيام العطلة. كنت أخرج في تلك الصباحات إلى مقهى «أبسايد داون» أمام منتزه رام الله أتناول قهوتي وإفطاري قبل أن أحدد برنامج يومي.
كان يوماً غائماً في فبراير والسماء بلونها العِنَبِيّ، خفيضةٌ، والرذاذ فيه صفة ضيفٍ هادئ المزاج. أنقّل النظر بين الورقة على طاولتي والسروات الثلاث الشاهقات على مدخل منتزه رام الله. كلما شغلت نفسي بأمر ما هرب مني وتلاشى شيئاً قشيئاً وعدت كمن خطفته الجنيّات أنظر إلى السروات كأن أمراً ما يحيّرني.
هكذا تكون الأمور عادة: عندما تحذف عيناك كل الموجودات من مجالك البصري ولا يظل داخله إلا جسم واحد يخطف كل انتباه عينيك، فهذا الجسم الذي لم تعد تبصر سواه، هو عشقك القادم أو هو قصيدتك القادمة.
فجأة
غمرتني تلك الموسيقى التي لا تنبعث من أي مصدر مرئي.
إنها القصيدة إذاً.
إنه الشِّعر.
طلبت من النادل أوراقاً بيضاء، وفنجان قهوة، وأن يخفض صوت أم كلثوم قليلاً ففعل.
أخرجت قلمي ورحت أكتب:
شفيفاً، واهناً، كنعاسِ الحطّابينْ
آمِناً، منذراً بوطأةٍ تليه،
رذاذُ الضحى
لا يحجب هذه السرواتِ الثلاثَ
على المُنْحَدَرْ
تشابُهُها تُكَذِّبُهُ التفاصيلْ
ويؤكِّدُهُ البَهاءْ
قلتُ لن أجروَ على إطالةِ النَّظَرْ
ثمّة حُسْنٌ يودي بالجُرأة
ثمة وقتٌ تتلاشى فيه الشجاعاتْ
الغيومُ السارية في الأعالي
تُغَيِّرُ شَكْلَ السرواتْ
الطيورُ الراحلةُ إلى بدائِلِها
تُغَيِّرُ صَوْتَ السرواتْ
خطُّ القرميدِ الثابتُ وراءَها
يثبّتُ خُضْرَةَ السرواتْ

ثمّة أشجار ثمارُها الوحيدةُ
خُضرتُها
أمس، في سروري المباغت،
رأيتُ خلودَها العالي
اليوم، في حزني المباغت،
رأيتُ الفأس.
كنت أذهب إلى عمّان مرة كل شهر أو شهرين.
أقضي مساء الخميس ويوم الجمعة مع الوالدة، تراني وأراها ونطمئن. وأعود إلى رام الله بعد ظهر السبت وأكون في مكتبي صباح الأحد.
كانت هذه الشهور بين رام الله وعمّان شهوراً من القصائد أو مشاريع القصائد. كنت أعيش حالة حب مع الطقس الخريفي والشتائي في هضاب رام الله ووديانها ومع حديقتيّ المنزل في عمان. أنا أعشق الخريف والمطر والأشجار وأعشق ضوء الدنيا الساعة الحادية عشرة صباحاً تحت الرذاذ وأغنية «سلم لي عليه» ولوتشيانو بافاروتي، وأعشق أن يكون لي، على مكتبي وبين يديّ مسودة قصيدة جديدة أضيف لها سطراً أو أمحو منها سطراً.
أنا من عشاق صوت المطر على المادة الصلبة. عندما تمطر الدنيا مطراً مصحوباً بالبرق والرعد أشعر بالرغبة في فعل شيء ما. أخرج إلى الشارع بدون مظلة، أنط وأهتف وأصرخ كالأبله وأعود ثانية إلى دفء الغرفة بنشوة تفيض عن جسدي ولا أدري ما الذي أفعله بها.
ذات شتاء هبط الثلج كثيفاً فخرجنا نلعب به أنا ومحمد ابن أخي علاء، فوجئت به يصرخ، يركض، يدور حول جسده قي طرب واضح. لم يكن رأى الثلج منذ ولادته لأنه كان يعيش في الخليج مع والديه وجاء مؤخراً للالتحاق بالجامعة الأردنية في عمان. فوجئت به يسألني وهو يقفز ويضحك، أو ربما يسأل نفسه في الحقيقة:
— عمو مريد، الفرحان شو بيسوّي؟
نظرت إليه مندهشاً من سؤاله فأضاف:
— والله بجدّ، أنا فرحان ومش عارف شو أعمل بهالفرح.
الطريق إلى مكتبي الأبيض في منزل الوالدة في عمان محفوف بالخزامى والهيدرا وحصى البان وعصفور الجنة والجيرانيوم والياسمين ونخلة قصيرة واحدة. حديقة عُليا على يسارها درج ينتهي إلى حديقتي الأرضية. وقع الأحذية النازلة على الدرج لزيارتي يدلني على الزائر فأبتهج لهذا وأبتئس لذاك. ووقَعَ على الوالدة عبء إبعاد الزوار عني إن لم أكن راغباً في استقبالهم:
— «إنه يكتب».
كنت أضع العظيم الجسم بافاروتي في جهاز التسجيل وأترك النشوة التي يسببها تلعب لعبة شد الحبل معي ومع عالمي ومع العالم، تسقطنا صدراً وظهراً في اللذة فنتمرغ ثلاثتنا على أرض الأسرار، وإغراء القصيدة. لا العائلة ولا القرّاء ولا الشارع ولا النوافذ المحيطة بالبيت ولا أحد في المدينة كلها يعرف ما يفعله بافاروتي بهذه الغرفة البيضاء. صوته الصلب يد برونزية تدفعني إلى الكتابة، وساقان أركض بهما، مصاباً بخدر أُفيق منه مرتطماً بشجرة عارية إلا من الطير، شجرة لها صوت وحولها أجنحة ضخمة. صوتها يغريني بالإصغاء إلى صوتي، صوتي الكامن في عمقٍ لا أعيه إلا عندما أجعله صوتاً «مكتوباً». صوت يرميني في غابته ويتركني أبحث عن

طريقي بين الظلال والأنوار وما يختبئ فيهما من حيوانات البغتة. أرى غزالة عارية أرى شجرة باذخة أرى حراباً مكسورة أرى فهوداً تعوي على إناثها أرى زهرة ياسمين واحدة على ساتان أسود، أرى لوناً أحمر ساخن الملمس أرى حفراً في التراب تنتظر ساكنيها المحمولين إليها بوقار مخيف.
هنا أفرح وأحزن وأخاف وأكره وحدتي وأحبها وأشتاق للمغادرة وأشتاق للبقاء فلا أغادر حقاً ولا أبقى حقاً وأشعر أنني أصبحت أكثر من جسدي.
أبدأ يومي في الخامسة صباحاً بجولة بين أشجار الحديقة وورودها، المقص في يدي لا لإيذائها بل لمنحها حياة تحتاج لها لتزهر، فالأغصان التي لا نقطف عنها ورودها تتوقف عن العمل الوحيد الذي تتقنه وهو الوردة.
أعود إلى البانيو وهضاب الصابون، بعد أن أضيف إليه أوراق الخزامى أو الغار أو حصى البان وأحياناً أغصان شجر الفلفل والنعناع والعطرية والميرمية وأحياناً كل ذلك معاً، ثم دش الماء الساخن جداً متبوعاً بالماء البارد جداً كما تعودت منذ سنين لا أعرف لها عدداً، حتى لو كان الثلج في الخارج يغمر العالم.
بعدها أصعد لمشاركة الوالدة قهوة الصباح والاستماع لخطة يومها وهي غالباً تبدأ بسؤالها «ماذا أطبخ لكم اليوم». كنت أجيبها على الفور باسم طبخةٍ ما، فتشعر براحة كبيرة. أسوأ ما تتوقعه الأم أن يكون جواب سؤالها عن طبخة اليوم «كما تريدين» أو «مش مهم» أو «نأكل أي شيء» وأنا تعلمت أن أسمّي لها وجبة اليوم بسرعة دون أن أتلعثم. بعد دردشة الصباح أستأذنها في العودة إلى مكتبي تحت، أجلس للتجسس على احتمالات الكتابة.
قد أكتب سطرين أو صفحتين وقد تظل أوراقي بيضاء من غير سوء. الشعر كالحب، كالدنيا، كالمصير الإنساني المجهول: خشن أو ناعم، وأحياناً خشن وناعم معاً وكما تتحاور الطبول مع النايات في الأوركسترا يتحاور الخشن مع الناعم في القصيدة. هكذا تخفي القصيدة ما تريد، ليتّضح أكثر.
رغم صعوبة ما أحاوله، أحب أن أكتب القصائد بأخفض صوت ممكن، حتى لو احتفظَتْ بخشونة التاريخ الذي يملأ أجساد الشعراء وغرفهم وذاكرتهم الحادة كسكّين سويسرية. النبرة البطولية في صوت صاحب الجبروت ساعدتني على التخلص من «بطولية» القصيدة. أنقذني الإيطالي الشرس من شراسة الحبر.
في «الحمرا» أكمل القصائد التي تلد هنا في مكتبي «الأبيض»، وما يلد في الحمرا أو في مقهى «أبسايد داون» أمام المنتزه أكمله في عمّان والقاهرة.
لا أستطيع أن أحصي كم كتبت بالممحاة. فكم مزقت وكم ندمت. كم سررت لقسوة ممحاتي. ألا تساوي متعة الحذف متعة الكتابة؟ وهل تستمد الكتابة قيمتها إلا من «المحذوف» الذي تعمّدنا حذفه... ليتجلى؟
حتى الشجرة التي تحمل آلاف البراعم تتخلّى بحسم وبلا تردد عن كثير من ثمارها وتتركه يسقط ميتاً بجوار جذعها، لتعتني عناية جيدة بالباقي.
تفتنني الأشجار لا لجمالها فقط بل أيضاً لأني أرى فيها رمزاً للمقاومة، دون تبجح. ويفتنني أن الشجر الأعزل يعرف أن كل دائم مؤقت.
تعال إلى هذا الحقل العاري

ها هي الأشجار تُحارِب
تعال وانظر:
عُرْيُها، بصمتٍ، يرجف تحت سياط الريح
لا الطير يجرؤ ولا النحل على زيارتها
في جبهة حربها الصامتة
هي الآن، متمهلةً، تكافح لتستردّ أوصافها
يقول غصن ذكيّ لآخر:
تمهّل.
«ليس هذا وقت الاخضرار يا أرعن»
«ليس هذا وقت الثمر»
يطيع الغصن صاحبه طاعة كاملة،
كاملة
كالفراغ
الأشجار العارية تبدو قرى مقصوفة هجرها سكانها
أخذوا معهم ألوانها ونسيمها وظلالها
وتركوا حولها صعوباتٍ مدوّية:
لا أحد يشاركها الأنين تحت لطمات الرعد
وجلسات كهرباء البرق.
ولأن كثيرين لا ينظرون إلى حقل يكسوه اللاشيء
لأن العظيم لا يفسِّر غموضَه
لأنها مثلنا تحارب تحالفاً من ثلوج الشمال
وضباب الآلهة،
وقلة النصير
ولأن الاحتمالات مفتوحة
تعال الآن:
عَلِّمْ قلبَك كيف يثق بصمتها
الذي يشبهنا
الأشجار التي بدت، مثلنا، موتى
كانت تحارب طوال الوقت!
طوال الوقت!
بلا مزاعم
بلا بلاغة
ودون أن تقرع طبلاً واحداً
وفي يوم معلوم،
في الموعد الذي لا موعد سواه
ولأنه لا شيء يخجل من أَوانِهْ،

يقول غصن لآخر:
الآن أيتها الأغصان التي صبرت طويلاً، الآن!.
الآن أيتها الأغصان التي تحمَّلَت الأقاويل،
والتي اتهمها المتقاعسون بالكسل،
الآن! الآن أيها الرفاق!
الآن!
لنعلن ربيعَنا.
— — —
— — —
ملك الأجار
تفتح أبوابها للطير والنحل والاخضرار والبراعم
ونحن البشر نهيئ السلال.
وفي يوم معلوم
وبعد تأكدها من حسم الجولة
يفتح عامل المسرح الستار:
سلة الفواكه التي تتوسط المشهد المنزليّ
تتوهّج
كالنصر.

الحمرا هي إقامتي الثانية «وحدي» بعد وحدتي في بودابست. أمامي سنة أتعوّد فيها على إتقان وحدتي من جديد. ولم أكن في حاجة إلى تدريب طويل، خبرتي بالوحدة تكفي لفتح معهدٍ للصبر.
كانت قائمة الأصدقاء تطول يوماً بعد يوم، وأيضاً قائمة الأقارب الذين استعذْتُ معرفتهم بعد انقطاع طويل في البلاد البعيدة، لكن المؤكد أنني كنت عاشقاً للمكان الجديد القديم. كان المشي الطويل بين الأشجار وفوق التلال، والانتباه إلى حدائق البيوت المزروعة بأشجار الليمون والبرتقال والمندلينا والأسكدنيا، متعة لا تفوقها إلا متعة سرقة حبة تين أو حبتين مشطّبتين من الأغصان القريبة من الشارع في حدائق البيوت، والإحساس الذي يملأ جسدي كله برائحة الياسمين الصاعدة من الأسوار إلى جهات الدنيا الأربع، وصدري.
كنت فرحاً بذلك.
ومن هذا المزيج الحي تململتْ فيّ الكتابة كأنها ترفسني بقدميها دون أن أعرف لها اسماً أو جنساً لكنها حياة قادمة من المستقبل تريد الخروج إلى الحاضر.
اخترعت لكتابتي مقهى «أبسايد داون» هنا كما اخترعت مقهى «الجولناي» في بودابست. هنا في الحمرا فيروز وبافاروتي، في ال «أبسايد داون» هناك أم كلثوم. في مقهى الجولناي، هناك مدام جابرييلا عازفة البيانو ذات السبعين عاماً، أدخل المكان فتحييني ب «فور إيليز» لبيتهوفن، أرسل لها مع النادلة كأساً من «الريمي مارتان» رداً على تحيتها، تضعه على حافة البيانو فلا يهتز فيه الكونياك مهما تصاعد اللحن في أعلى تحليقات الكريشيندو. تومئ إليّ بانحناءة وابتسامة هادئة وتنتقل إلى رحمانينوف وشوبان وبقية برنامجها اليومي. أجلس، فتأتي النادلة لتضع أمامي قلماً وأوراقاً بيضاء وفنجان القهوة وعلى صحنه الصغير قطعة من الشوكولاته الخاصة بالمقهى تاركة

لي أن أطلب بعد ذلك ما أشاء. أكتب وأمحو وأمزق وأحتفظ بالقليل لكني أعود ومعي مسودة تصلح لاحقاً لسهر الليالي.
حل الصيف. جاء تميم إلى رام الله لقضاء عدة أيام معي قبل التحاقه برضوى في عمان التي ستصلها مع بدء عطلة الجامعة المصرية. جاء وحده هذه المرة. وهذه المرة أيضاً دخل بسهولة.
اصطحبته إلى كل الأماكن التي استعدت معرفتي بها في رام الله والبيرة، وإلى الأماكن الجديدة أيضاً.
نشر بعض قصائده في جريدة «الأيام»، وفي زيارة إلى بيت الشعر عرضوا عليه نشر ديوانه الأول بالعامية الفلسطينية، سلمهم مخطوطة ديوانه «ميجانا» وهو خائف وسعيد.
فجأة تلقيت خبراً ساراً.

الفصل التاسع ما لم يخطر على البال

جاءني أنيس وقال إنه كلف بتنظيم موتمر للمغتربين الفلسطينيين في رام الله وإن من بين المدعوين لهذا المؤتمر أخي مجيد. قلت لأنيس وأنا لا أكاد أصدق:
— لكنه لا يحمل هوية فلسطينية فكيف سيسمح له الإسرائيليون بالدخول؟
— سنستخرج تصاريح زيارة لمدة أسبوع لكل المدعوين.
— وهل وافقوا لكم على هذا؟
— وافقوا.
— متى المؤتمر؟
— الأسبوع القادم.
جاء مجيد من الدوحة إلى عمان. هناك قررت الوالدة أن تصحبه لزيارتي وزيارة رام الله ودير غسانة.
في اليوم الموعود طلبت من تميم السفر إلى عمّان ليصطحب جدته وعمه في طريقهما إلى هنا. أوصلته إلى أريحا وأكمل هو إلى عمان ثم عاد الثلاثة معاً وعمرت «الحمرا».
مجيد الذي لم ير رام الله منذ جاءها تسللاً، سيراً على قدميه بعد الاحتلال سنة ١٩٦٧ كان في عيد حقيقي.
أما الوالدة فقد احتجْت إلى جهد كبير في ثنيها عن الانهماك في إصلاح أمور الشقة وإعادة ترتيبها. لم يعجبها شيء في شقتي المستأجرة. المطبخ «قد الخزق» طبعاً، الصالون «فرشه تجاري» وترتيب المقاعد «غلط» «هيك أحسن». طلبت مني شراء أدوات مطبخ جديدة وهكذا. أما ما علمتْه من أنني أرتاد المطاعم فقد أثار شفقتها عليّ « أكل المطاعم بيمرّض يمّه، هو في بعد أكل البيت؟».
— أنت ضيفتي. أنا الذي سأطبخ وأجلي الصحون وأنظف البيت. اتفقنا؟
— ما بيصير يا بنيي.
— صار وخلص.
ابتسمَتْ كمن لا يريد أن يسمع.
كان عُمر «مجيد» تسعة أشهر فقط عندما وقعت النكبة عام ١٩٤٨ (حتى أخي الأصغر مني سناً هو أكبر من دولة إسرائيل بتسعة أشهر). كنا نعيش في مدينة اللد حيث يعمل والدي، وفي اللد ولد مجيد عام ١٩٤٧ وبمولده أصبحنا ثلاثة أخوة، منيف أكبرنا ولد في أريحا، ثم ولدت أنا في دير غسانة، ثم مجيد. كانت هجمات المسلحين الصهاينة على اللد تبعث الرعب في قلوب سكانها فضلاً عما يصلهم من أنباء القتل والتهجير والتي تعرضت لها المدن والبلدات والقرى الفلسطينية الأخرى على امتداد الساحل. وتوالت أنباء مئات الألوف الذين لجأوا بالقوارب إلى غزة وسيراً على أقدامهم إلى لبنان وسورية والأردن، أما والدي فقد قرر العودة بنا إلى بيتنا في دير غسانة. كان اجتياز الطرق الجبلية أبعد ما يكون عن الأمان لكنه السبيل الوحيد. عادوا بنا وبمجيد الرضيع ملفوفاً بالكوفليّة يطالب برضعته فنتوقف تحت شجرة لتلقمه أمي ثديها لدقائق تبدو أطول من عددها لخوفنا من الكمائن والقذائف ومفاجآت الطريق.

لم أر في حياتي ضبعاً أو ذئباً أو ابن آوى، لكن الرعب من ظهورها في طريق هربنا من اللد إلى دير غسانة جسّدها أمامي. رأيت في حياتي عقارب وأفاعي ولم أخف منها خوفي من حيوانات الوهم. حقائق الطفل هي هواجسه وليست الحقائق الموضوعية. كنت في تلك الرحلة أدرك أننا في وضع غير مفهوم لي كطفل. بل إنني أكتشف الآن في لحظة الكتابة أنني لا أتذكر التفاصيل الحقيقية لتلك الرحلة.

في المستقبل ستصبح للفلسطينيين ذاكرة جماعية دقيقة دقة الذاكرة الفردية. كأن ما مس أحدهم مس الجميع، أسأل أمي فتخبرني أن مرور باص أو سيارة كان طوق نجاة مؤقت نركبه دون أن نسأل عن وجهته ولم يكن مهماً أن يحملنا كيلومتراً واحداً، أو أن يأخذنا إلى قرية لا نعرفها. المهم أن يأخذنا بعيداً، أو حتى أن نظفر بالجلوس على مقاعده بعض الوقت. أُلِحّ على أمي أن تتذكر. لا تسعفها ذاكرتها، لكن كلمة «خانونا» تتكرر بين جملها القليلة تكراراً عجيباً. ألتقط من حديثها المتقطع أجواء ذلك الخروج الكئيب، قلق على ما تركه الناس خلفهم، وقلق على ما ينتظرهم، عالم يتلاشى وعالم سواه يتشكل دون إرادة الراحلين. المعلوم كله يسلم نفسه للمجهول كله. الكرامة تخطو خطوة إلى الوراء لكي تتقدم الضرورة. الضرورة فقط.

أب، وأم تحمل رضيعاً، وطفلان، منيف في السابعة من العمر وأنا في الرابعة، نمشي داخل الخوف ذاته، في طريقنا لجعل القرية حلاًّ. لم نكن نعرف آنذاك أننا مجرد تفصيل بالغ الصغر في مشهد النكبة التي حلت بالشعب الفلسطينيّ كله.

سوف تتنوع هجرات الفلسطينيين بعد ذلك، من الساحل إلى الجبل، من فلسطين إلى خارجها، ومن بلد في الخارج إلى بلد آخر حتى يكتمل التيه. وأسوأ الهجرات كانت هجرة الآباء إلى دول الخليج التي أغدقت المال على كثير منهم فأنتج بعضهم (ولا أقول كلهم) شباب الجيل الضائع الذي تلقى تربية عمادها الرفاهية وشحوب الذاكرة الفلسطينية يوماً يعد يوم وسنة بعد سنة. بعض هذا الجيل تعوّد على أخذ كل شيء فلم يعد قادراً على أن يعطي أي شيء. يتصرف على أساس أن رفاهيته في دول الخليج رفاهية طبيعية ودائمة إلى الأبد، يلتحق بالجامعات لا بفضل تفوقه العلمي ودرجاته العالية بل بنقود أهله. يصر الطالب منذ السنة الأولى على اقتناء سيارة لا يهمه من يدفع ثمنها ويغطي مصاريفها ما دام هذا الشخص شخصاً غيره. ملابسه لامعة ومقتنياته من أشهر الماركات العالمية، يقضي نصف وقته أمام المسلسلات الأميركية وحفلات شلة الأصدقاء بمناسبة وبدون أي مناسبة. لم يشارك طوال حياته في مظاهرة واحدة تحتج على أي واقع، ويسخر ممن يشارك في مظاهرة أو يبدي اهتماماً بأي شأن عام. جيل قد يسمم حياة أهله دفاعاً عن حريته الشخصية لكنه لا يدري ما الذي سيفعله بهذه الحرية ولا لماذا يريدها بالتحديد. توظيف ملايين الفلسطينيين في الخليج يكاد يبدو شكلاً آخر من أشكال تمويل النظام العربيّ للاحتلال وتسديد نفقاته بأموال عربية.

لقد كان فتح أبواب الخليج عوناً للفلسطينيين في سنوات اللجوء والهجرة التي أعقبت النكبة على الصعيد الآنيّ لكنه على الصعيد الاستراتيجي كان أقل نفعاً بالتأكيد. أتوقف وأقول إني لست متأكداً تماماً مما أقول. لم يُدرس هذا حتى الآن بالعناية الكافية. وفر الخليج لكثيرين مظلة أمان نفسي واقتصادي لا يمكن تخيل أوضاع الناس غداة النكبة بدونه. بعض المنظمات والأحزاب الفلسطينية نشأت أو تنامت في بلدان الخليج. صناديق إعانة القرى والتبرعات المالية السخيّة لمساعدة الأهل في فلسطين كان لها دور في تعزيز البقاء في الأرض وتحمّل ضغوط الاحتلال.

في المستقبل، عندما تقع حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ سيكون منيف في الدوحة موظفاً، وأنا في

القاهرة طالباً، ومجيد في الجامعة الأردنية وعلاء في المدرسة الإعدادية مع أمي وأبي في رام الله.
مجيد يقرر أن يتسلل سيراً على الأقدام إلى رام الله، ينفذ قراره بالفعل، ويضطر إلى العودة لدراسته بعد أيام. منذ تلك الزيارة لم ير رام الله. الترابط الأسري الذي يجمعنا يتنافى تماماً مع تبعثرنا الجغرافي قي بلاد العالم. لم نعد نميز من هو أكثرنا عاطفية لكننا ندرك أن الكل بحاجة للكل وأن لا أحد راضٍ عن بعده القسري أياً كانت مسببات هذا البعد، الدراسة أو الوظيفة أو الاحتلال.
في المستقبل عندما نكبر جميعاً ونتشتت في بلدان كثيرة لن أنسى أبداً تعبيراً سوف يقوله علاء الذي اضطره عمله كمهندس إلى الإقامة سنوات طويلة في قَطَر. يعود علاء في إجازة الصيف، التي تقتصر على شهر واحد في السنة، إلى عمان، ويعيش ذروة السعادة بالتئام العائلة، عندما يحل موعد سفره عائداً إلى عمله وأصطحبه إلى المطار لوداعه سوف يفاجئني بقوله:
ـــ صرت أكره الحب.
سيقول كلاماً كثيراً حول قلقه الدائم هناك على الوالدة وبُعده عن الجميع من أجل لقمة العيش وتعليم الأولاد، ويفضفض لي طويلاً، لكني لا أزال مشدوهاً للشعر النائم في عبارته العجيبة «صرت أكره الحب».
مجيد شاعر مخلص لكتابة الشعر وليس ملهوفاً على نشره في كتب، أصدر ديوانه الشعري الأول بعد أن ظل يكتب ويمحو خمسين عاماً أو أقل قليلاً وهو الآن يعد ديوانه الثاني للنشر. غسان الذي أدخلني إلى الجنة الإلكترونية بمواهبه في كل ما يتعلق بالكمبيوتر، بنى له ولي ولرضوى ولتميم مواقع إلكترونية، وعلمني كيف أحرره وكان هذا امتحاناً حقيقياً لقدرته على الصبر وطول البال. أنقذ الموقع مجيد بالتحديد من التردد في الكتابة والنشر، فصار يكتب وينشر إلكترونياً ويقضي الساعات الطوال أمام الكمبيوتر وكأنه يعوض ما فات. علاء علّم نفسه العزف على العود وأصبح يكتب أشعاراً وأغاني يلحنها بنفسه.
بعد أن انتهى مجيد من جلسات «موتمر المغتربين» ذهبنا جميعاً إلى دير غسانة ليراها بعد طول غياب.
استقبلتنا امرأة عمي أحسن استقبال تستطيعه. وكان لا بد أن يكون الغداء الأول وجبة «مسخَّن» محترمة. الغريب أن مروان البرغوثي اتصل بي أيضاً بالصدفة يريد أن نلتقي فاقترحت عليه أن ينضم إلينا في دار رعد وجاء بالفعل، مرة أخرى على «مسخّن» ام طلال. واكتشفت هذه المرة أن بين أسرته وامرأة عمي قرابة عائلية لم أستوعبها بدقّة رغم الشرح الطويل.
عندما غادرنا دار رعد إلى «الحمرا» فوجئت بالوالدة تعلن تصريحها المفاجئ:
ـــ أنا قررت أن أرمم دار خالك عطا وأجددها وسوف أبني بيتاً جديداً لكم في حوش دار رعد. الآن مريد وتميم معهم هوية وإن شاء الله سيلتمّ شمل الباقين ودار رعد لن تتسع للجميع. ثم إنني قررت أن أشترى «الزاوية».
ـــ ما هي «الزاوية»؟
ـــ إنه بيت مهدّم لا يسكنه أحد الآن، لكن أنا وأمي عشنا فيه بعض الوقت، من زمان، وأنا طفلة. وأنا أريده.
عُمَر ذيب، الذي آلت إليه ملكية الزاوية قرر تقديمها هدية للوالدة. سجلتها باسمها فعلاً في دائرة الأراضي الفلسطينية وهي تشعر بأنها أنقذت ذاكرتها وذكرياتها. عادت بعد أسابيع ومعها خريطة

البناء للبيت الجديد في حوش دار رعد.
— من الذي رسم الخارطة يا أمي؟
— أنا رسمتها.
فردت ورقة أخرجتها من حقيبة يدها وإذا بخارطة البيت كاملة بأدق التفاصيل.
أحضرت مهندس البلدية الذي درس الخارطة واعتمدها بتعديلات طفيفة ووقّعها وحصلت من البلدية على الموافقات اللازمة.
أقامت في دار خالي. بدأتْ أولاً بإضافة شرفة جديدة ومطبخ واسع للدار وطلبت مني أن أصورها بعد ترميمها لتريها لخالي وأسرته في عمان. خالي لن يستطيع دخول دير غسانة لكنه أراد ترميم داره لعل أحد أولاده أو بناته أو أحفاده يعود للعيش فيها ذات يوم. بعد ذلك اتفقَتْ مع عمال البناء وبدأوا بحفر الأساسات للبيت الجديد وارتفعت الأعمدة. كنت أزورها كل يوم جمعة وأراها تصدر التعليمات للعمال حيناً وتصنع لهم الغداء حيناً وتقدم لهم الشاي أثناء عملهم في كل الأحيان.
كان المشهد بالنسبة لي ملتبساً أشد الالتباس، فلكي تقام الدار الجديدة في حوش دار رعد كان على أمي أن تأمر العمال باقتلاع شجرتي البرتقال الباقيتين من أشجار الحوش. لا قوة تستطيع ثني أمي عن مشروع بناء البيت:
— يعني شاعر دير غسانة مالوش دار فيها؟
تسكت لحظة وهي تنتظر رد فعلي على ما تقول فلا أقول شيئاً ثم تواصل مرافعتها:
— يعني اخوتك لما يرجعوا ينزلوا ضيوف في البلد؟ وابنك واولادهم وأولاد أولادكم مش لازم يكون لهم بيت في بلدهم؟
كنت أنظر إلى الأرض بعد اختفاء شجرتي البرتقال وبداخلي صوت يلوم أمي وصوت يتفهم إصرارها على أن يكون لنا بيت يخصنا في دير غسانة. تذكرت شجرة التين الخضاري العظيمة التي لُمْتُ امرأة عمي متسرعاً في البداية على قطعها قبل سنوات، ومتفهماً بعد ذلك، وها أنا اليوم أرى بيتنا الجديد يتسبب في غياب اللون الأخضر في دار رعد. امرأة عمي كانت قد وسّعت حصتها من دار رعد بحيث لم تعد حديقة الدار حديقة حقيقية منذ زمن، وهي كانت تظن أن الغائبين لن يعودوا، وها نحن عدنا. وكأن ما فعلَتْه أمي علامة على ارتباط هذه العودة بالألم. أنا الذي زلزلني اجتثاث التينة العظيمة عند عودتي الأولى، هل تواطأت مع أمي وهي تجتث شجرتي البرتقال؟ ولماذا كانت مخالفتي لرأيها همساً وتلميحاً لا معركة؟ هل كان يجب أن أقف بكل قوتي ضد مشروعها؟ أنا لم أفعل. هل ألوم نفسي أم ألوم أمّي أم ألوم جملة ملابسات لم نكن جميعاً لنتعرض لها لولا كفّ التاريخ التي قلبت أوضاع كل فرد وكل عائلة وكل بيت في فلسطين؟ ألا يمكن لفرحة أن تعصف بنا إلا إذا اقترنت بغصة تعصف بها؟
هل كان لزاماً علينا الاختيار بين الشجرة التي تبهج، والسقف الذي يحمي؟
وهل الأمر هكذا: إما الجميل وإما الضروري؟ إما الشجرة وإما السقف؟
هل الجهر بمخالفة الأم حريّة أم عقوق؟
كم مرة قلت إن الحياة تستعصي على التبسيط؟ ها هي الحياة للمرة الألف، تستعصي. أنا معجب بعزم أمي وقدرتها على اتخاذ القرارات والمبادرة، وأنا مرتبك من غياب الشجرتين، وبعد فترة لم يعد هذا الالتباس أساسياً.
في سبعة أشهر كان البناء الجديد قد اكتمل. ذبَحَتْ خروفاً احتفالاً باكتمال الدار. قررت أن تطلق

عليها اسم «برق ورعد». وضعت فيها أثاثاً قليلاً وأعطتني نسخة من مفاتيحها وعادت إلى عمان وفي نيتها العودة لتأثيثها وإعدادها للسكنى بحيث أنتقل إليها بشكل دائم، فأنا الوحيد من بين إخوتي الذي أملك حق القدوم إلى دير غسانة لأنني الوحيد الحاصل على بطاقة الهوية الفلسطينية.
كانت خططها قابلة للنجاح لولا أن تطوراً صغيراً حدث حرمها من رؤية البيت حتى الآن. شارون يعتلي السلطة في إسرائيل بعد زيارته للأقصى. الانتفاضة تندلع ويفرض الحصار على الضفة وغزة وعلى مقر عرفات وتغلق الطرق ويقيم الجيش الإسرائيلي «حاجز سُردا» فيقطع الطريق بين رام الله وثلاثين قرية في الشمال من ضمنها دير غسانة. عندما تنفرج الأمور نسبياً بعد سنوات تكون الوالدة قد فقدت القدرة على المشي والسفر نتيجة لآلام العظام وتضطر لالتزام مقعدها المجاور للشباك في بيت الشميساني طوال ساعات النهار يجوار المدفأة، إلى أن تخلد للنوم في موعد أقصاه التاسعة مساء. ولأن الأصل في الأمور هو الإغلاق والحواجز، والاستثناء لا يعول عليه، أصبح سفرها عبر الجسر وتحمل مفاجآت الطريق أمراً لا يمكن التفكير فيه. دار ام منيف الجديدة الصغيرة عاد مصيرها ليرتبط بحل «أزمة الشرق الأوسط» و«الصراع العربي الإسرائلي» و«الحرب على الإرهاب» لا أقلّ. لا أقلّ!
أفكر أنه لا بد لي ذات يوم من أن أكسو جدرانها كلها بحجارة قديمة تشبه حجارة دار رعد حتى لا أظل حزيناً على الجرح الجمالي الذي سببه الإسمنت. أبلغت أمي بنيّتي هذه فرحبت بها على الفور.
وماذا عن كابوس المؤسسة وسرقاتها و«نوامقها»؟
كان واضحاً أن معركتي خاسرة منذ الأسابيع الأولى. كان لا بد لي أن أنفّذ العقد لسنة كاملة. تشاجرت كثيراً. توسط كثيرون لحل المشاكل. أدركت على مهلي أن كل توسط يهدف أساساً ودائماً إلى ضمان استمرار «النومقة».
الرسالة وصلت تماماً في وقت مبكر.
بقي أن لا أفسد عالمي بسبب فساد هذا العالم.
هربت إلى الأساطير الإغريقية. أقرأ مجلداتها كأنني باحث وأنا لا أريد أن أبحث بل أريد أن أكون في عالم آخر غير عالمي الذي تورطت فيه. بدأت قصيدة طويلة إلى «زيوس» وقصيدة عنوانها «هيرا».
عندما عدت إلى رام الله إثر استقالتي الغاضبة كان الجسر مزدحماً فوصلت ليلاً. صعدت إلى «الحمرا»، أدرت المفتاح في الباب، دخلت. ضغطت مفتاح النور وقبل أن أضع حقيبتي الصغيرة على الأرض رأيت ما آلمني:
الشجرة التايلاندية تساقطت معظم أوراقها على الموكيت الأحمر فصنعَت حول القوار الضخم دائرةً كاملة من الأوراق الميتة. أتيت بالمكنسة الكهربائية، نظفت البيت كله، لكنني تعمدت أن أبقي دائرة الأوراق الجافة مكانها، وعلى حالها. لا أدري لماذا قررت إبقاءها على حالها. كان زوّاري يستغربون المنظر في البداية ثم اعتادوا على معايشة المشهد الغريب. الورق الجاف زمن يعلن تفوّقه. موت يعلن موهبته في الانتصار. رضيت به رضى تاماً من ناحية، ومن ناحية ثانية، كنت ألعب لعبة شخص واقعيٍ يعترف اعترافاً شريفاً بقوة خصمه. لست وحدي في هذه الغرفة إذاً. الحياة ليست وحدها من يقيم هنا. إن نقيضها وشريكها وقاتلها المدعو الموت يشاركها الإقامة لا كضيف مكرّم بل كزميل سكن صامت يمارس وجوده بشكل هادئ إلى حد الخفاء، لا يحس أحد

بوجوده، لكن هذه الأوراق تيبّست تماماً لتدل عليه دون أن يقصد ودون أن يدري.
بجوار دائرة الأوراق الجافة جلست وأخذت أكتب دون توقف حتى انتهيت من قصيدة سميتها «غرفة مؤقّتة».
في المستقبل، من كتابة إلى كتابة ومن حذف إلى حذف، وجدت أن لديّ ديواناً شعرياً جاهزاً للنشر دون أي تخطيط مسبق.
كان الشعر يدهمني كقاطع طريق وأنا أمشي في طرقات العالم.
هكذا ولد ديوان «الناس في ليلهم» وأكثر من نصف ديوان «زهر الرمان» الذي سأنشره بعد ذلك مباشرة.
ما إن ظهر «زهر الرمان» حتى بدأت في كتابة «منتصف الليل» وهو قصيدة واحدة في كتاب كامل عكفت على كتابتها أكثر من سنتين.
ثلاثة دواوين متتابعة ثم توقفت توقفاً تاماً.
توقفت كالعائد من ماراثون للركض، أو كمن يرفع يده وهو على كرسي طبيب الأسنان إشارة إلى نفاد قدرته على تحمّل الأزيز.
هل أنهكتني القصيدة أم أنهكتني أسباب كتابتها الماثلة في الخارج اليومي؟
أم أنني بحاجة الآن إلى جرعة الكسل الضرورية التي آن أوانها؟
المدهش أنه لكي تكون شاعراً لا بد أن تكون في حاجة لأمرين متناقضين: حيوية عظيمة وكسل عظيم. من السهل دائماً الحصول على الحيوية لأنها من مقومات البقاء على قيد الحياة.
أما الكسل فقد أطاح به غزو العراق.
علمنا من أحداث التاريخ أن الكذب السياسي أحد مقدمات الحروب، لكن ما استُخدم من أكاذيب لتبرير غزو العراق فاق كل تصور واستفز ملايين البشر في كل القارات. وعلمنا من التاريخ أن التواطؤ بين أصحاب المصالح شائع في كل حرب لكن غزو العراق شهد تواطؤ حكومات تختلف مع شعوبها ولا تصغي لاحتجاجات الملايين فيها رغم تشدقها بالديموقراطية. غزو العراق أفسد تفاصيل حياتي اليومية كما أفسدها احتلال فلسطين. الغطرسة الأميركية أصبحت موجهة ضد كل فرد منا، وبدأ عصر الأبارثايد الكوني بين الأقوياء والضعفاء.
أسوأ ما في الحروب أنها تلخّص عدوها وتختزله في صفة واحدة. يتوقف البلد عن كونه تاريخاً ولغة وشعراً وعمارة ومسرحاً وحدائق وأساطير، وتراثاً من حكايات العشق والفلسفة والعلم، وسلالات من الأحلام، وأشكالاً لا حصر لها من السعى الإنساني في طرق الكون. وبدلاً من ذلك كله يصبح كل بلد منها مجرد «يافطة»، مجرد «وصمة»، مجرد «ساحة قتال». هذا ما فعلته الحرب بأسماء مثل فلسطين، فيتنام، لبنان، البوسنة، كوسوفو، أفغانستان والعراق. لم تعد هذه البلدان بلداناً متعددة الأوصاف. ولم يعد ذكرها يرد في الأخبار كبلدان بل ك«ميادين». ميادين تُحصى فيها أعداد الجرحى والقتلى يومياً كما تحصى إنتاجية مصنع للمعلّبات. التاريخ كله يصبح اسمه «اليوم». و«اليوم» يصبح اختزالاً لكل «أمس» مر على هذه الأرض، اختزالاً للتاريخ كله.
كأن المتنبّي لم يمش في أسواق الكوفة طَرِباً بأُمَّةٍ تحفظ أشعاره لألف سنة ستأتي، كأنْ لم يبن العباسيون مكتباتهم على ضفاف دجلة، ولم يأخذ أبو نواس ذروة مجونه وفتكه الجنسي المعلن إلى ذروة الصباح، بعد أن أنهك الليلَ شعراً وفسقاً جميلاً لا يوفر ذكراً ولا أنثى. كأن الحَلاّج لم يُصْلَبْ مدافعاً عما رأى بعين البصر وعين العقل، كأن حمورابي لم يكتب شرائعه على ألواح الآجُرّ قبل

أن تتحول الكوكا كولا والماكدونالدز إلى دين للأمم. وجلجامش الذي تخلد فعلاً لأنه لم يحصل على عشبة الخلود في براري أسطورته الباقية على مر الزمن، كأنه ليس من أرض العراق. بوش ورامسفيلد اختصرا هذا كله بكلمة «العدو».
لم يصدق عاقل واحد في هذه الأمة للحظة واحدة أن حزب البعث تلخيصٌ للعراق. كما لم يصدق عاقل واحد أن أسامة بن لادن هو تلخيص للإسلام، لكن الحرب «تريد» أن تلَخِّص وأن تَخْتَزِل. ليس بسبب عجز أميركا عن الفهم، بل بسبب أنها «تريد» أن تعجز عن الفهم. سألني مرة صحافي برازيلي:
— بماذا تفسر «سوء فهم» الغرب للإسلام؟
فكانت إجابتي:
إذا كان «سوء الفهم» يخدم مصالح أناسٍ معينين ويساعدهم في تحقيق أهدافهم فإن هؤلاء الناس سوف «يقررون» أن يسيئوا الفهم. إن سوء الفهم، في مثل هذه الحالة، ليس صدفة مؤسفة يمكن إصلاحها بالمعرفة أو الحوار أو تحسين المعلومات، بل هو «اختيار مقصود».
عندما يقرر سياسيو الغرب أن الإسلام دين قائم على العنف والقتل فإنهم بذلك يتبنون تعريف المتطرفين أنفسهم للإسلام. سياسيو الغرب يساعدون على تعميم التعريف المتطرف بينما يدّعون محاربته، إنهم يشجّعون البسطاء على تصديق نظريات المتطرفين. وفي بلداننا الآن مجموعات عديدة من المسلمين أنفسهم تمارس أيضاً «إساءة فهم» مقصودة للإسلام. الجهل بالحقيقة أو تجاهلها أو تلويثها المقصود ليس صفة من صفات الظالم وحده. يمكن أن يكون المظلوم جاهلاً أيضاً. أليس كذلك؟ في أي بيت للعزاء تفاجأ النساء بامرأة غريبة لا تخص الشخص المتوفى ولا يعرفها أحد من عائلته وأقربائه، تقتحم البيت دون استئذان وتنطلق في شرح درسها «الديني» على الباكيات الحزينات مركّزة على وصف عذاب القبر كأنها كانت فيه وشاهدت بعينها كل التفاصيل كمراسلي وكالات الأنباء وعادت لترويها «بدقة» باثة الرعب في نفوس المستمعات. مئات الفضائيات عيّنت نفسها ناطقة باسم الاسلام، تمنح ساعات بثها لفقهاء الشاشة الصغيرة والمشعوذين أصحاب الفتاوى التي لا يقبلها عاقل يعلنون احتقارهم للطب والعلوم والتاريخ والجغرافيا والفنون جميعاً كالموسيقى والرقص والأغنيات والسينما والمسرح. والحكومات التي تدعي محاربتهم هي في حقيقة الأمر تنافسهم في محاولة إثبات أنها ليست أقل تَدَيُّناً وإيماناً منهم.
ليس الورع أشهر ما يميز البراغثة لكن معظم نساء العائلة الآن يرتدين الحجاب بما في ذلك اثنتان من زوجات أشقائي الثلاثة. وهن بنات خالي عطا بالإضافة إلى بعض بناتهن أيضاً. أنا لا أدين ارتداء الحجاب ولا أدين من تقرر أن ترتديه. ما أدينه هو اعتبار الحجاب ماركة مسجلة للإيمان وبرهاناً على التقوى والصلاح وحسن الأخلاق. الحجاب زي، والزيّ لا يبرهن شيئاً ولا ينفي شيئاً. أما النقاب فهو مخالفة جنائية. لماذا؟ لأن المرأة المنقبة التي لا تظهر ملامح وجهها أشبه بسيارة تسير في الشوارع بدون لوحة أرقام.
في المستقبل، عندما أصابته الجلطة في جذع الدماغ، وقبل يومين من وفاة خالي عطا سيقرر الأطباء أنه يعيش ساعاته الأخيرة. جاء ابنه وبناته من الخليج ورأوه مشدوداً للحياة بجهاز دعم من الأسلاك والأنابيب، فاقداً للوعي في كوما النهاية، أفاجأ ببناته الست وزوجة ابنه يُدخِلن إلى غرفة العناية المركزة جهاز تسجيل أسود ضخماً ماركة توشيبا، وبصعوبة شديدة يقمن بمحاولات متكررة وصعبة لدسّ سماعاته في أذنيه لكي يسمع تسجيلاً لآيات من القرآن لعله يشفى. الأهم أن

الأطباء والممرضين وإدارة مستشفى الشميساني في عمان لن يجرؤوا على إخراج «التوشيبا» من غرفة العناية المركزة لئلا يُتهموا بالكفر.
قلت للبنات بصوت هادئ يكاد يخنقني:
— أنتن على حق. بهذه التوشيبا سيفيق خالي من الكوما وسيخرج من غرفة العناية المركزة مباشرة ليلعب في كأس العالم (كنا في عام ٢٠٠٦ عام المونديال).
أجابتني إحداهن وهي أمل، المرحة الضحوك الخفيفة الظل والطيبة القلب التي تعيش في الخليج:
— رجاءً مريد، أنت لا تؤمن بهذه الأشياء، نحن نؤمن بها. رجاءً رجاءً لا تتدخل.
خرجت من الغرفة مذهولاً.
بعد يومين يفارق خالي عطا الحياة وينتقل الجميع من المستشفى لإعداد ترتيبات الجنازة، وتفتح رابطة آل البرغوثي أبوابها لتقبل العزاء.
بنات خالي تعلّمن في الجامعات وسافرن وعملن في التدريس واختلطن بالمجتمع فما الذي جعل انقلابهن على نمط حياتهن موحداً وجماعياً وفي نفس الاتجاه؟
لم يعد الكتاب مصدراً للمعرفة عند كثير من الناس في عصر الفضائيات، والفضائيات العربية محتلة بالوعاظ والدعاة ومحترفي الفتوى والتلفزيون أصبح عنوان الحقيقة، لكن هذا وحده لا يفسر الظاهرة. المؤكد أن الانقلاب الاجتماعي أصبح جماعياً في كل بلاد العرب. فما حدث لرضوى في مستشفى بالقاهرة لا يقل غرابة.
كانت في حاجة إلى إجراء عملية جراحية بسيطة جداً من العمليات التي يسمونها جراحات اليوم الواحد. اقترح الطبيب أن يجريها في مستشفى خاص يتعامل معها.
خرجت من غرفة العمليات في بداية إفاقتها من البنج.
كانت الممرضة تدفع عربتها في الممر متجهة بها إلى الغرفة، وقرب العتبة سعلت رضوى سعلة خفيفة.
فجأة بدأ وجهها ينتفخ.
كنا تميم وأنا نرى وجهها يزداد انتفاخاً أمام أعيننا. كان الطبيب قد غادر فاستدعيناه ثانية. عندما وصل كان انتفاخ الوجه قد ازداد إلى حد أن أجفانها انطبقت تماماً وأصبح وجهها كرة مستديرة ملساء وتضاعف حجمه فأصبحت رضوى شخصاً آخر تماماً. كان الأمر مروّعاً لأن خطر الاختناق يتهددها، فقد أطبقت شفتاها تماماً ولاحظ الطبيب حالتنا فحاول طمأنتنا وكان علينا أن نبدو مطمئنين أمامها كي نخفف خوفها هي. قدم لها الطبيب العلاج اللازم وتوقف الانتفاخ ثم بدأ ينحسر تدريجياً ونجت من آثاره بشكل تام بعد أيام من عودتنا بها إلى البيت.
هذا التعقيد المفاجئ أدى إلى بقائنا في المستشفى أربعة أيام كانت كافية لأكتشف أننا في «مسجد» لا في مستشفى. أفتح باب الغرفة لأبحث عن ممرضة لمساعدتنا في أمر طارئ، فأجد عشرات من الناس يصلّون في الممر بحيث لا يمكنني المرور إلى أي مكان فأضطر للعودة إلى داخل الغرفة انتظاراً لانتهاء الصلاة. اكتشفت بعد يوم أو يومين أن هؤلاء المصلين ليسوا من أطباء المستشفى والعاملين فيه فقط بل هم أيضاً حراس البنايات المجاورة وأصحاب الدكاكين وأفراد من رجال المرور في المنطقة، وبعض سائقي حافلات «المدرسة الألمانية» القريبة من المستشفى، وبعض زوار المرضى وأفراد عائلاتهم، وقفوا جميعاً للصلاة، وقد تجمعت أحذيتهم بجوارهم بكل ما هو عالق بها من غرائب الشوارع والطرقات في الخارج. قلت هل هم في هذا الممر يستعرضون

«إيمانهم» أمام بعضهم البعض وهذا ما لا توفره صلاة المرء في بيته؟
في تلك الظروف كان المفترض أن لا يشغلنا أمر سوى سلامة رضوى، لكن تحول المستشفى الجراحي إلى مسجد تسد فيه الأجساد والحصر أبواب غرفتها وتعذر الوصول إلى مسعف طارئ واستحالة طلب أي معونة طبية أو تمريضية طارئة من طاقم المستشفى كان أمراً إضافياً يزيد من خوفنا ومخاوفنا، تميم وأنا. وما زلت أتأمل تلك الواقعة الناتئة المستفزة بكثير من الحيرة والغضب لما أصاب مجتمعاتنا.
إنها أوجاع الذبول الاجتماعي وزمن الجفون المفتوحة إلا قليلاً، أو المغلقة إلا قليلاً، ولا خصم للكائن الحي أخطر من الذبول، ذبول الجسد، العقل، الفكرة، الشجرة، والرغبة. أتحدث عن تفاقم «الوجع التاريخي» في بلادنا. وجع طارد لهدوء البال، للمنطق، للمسؤولية للطمأنينة للخيال، للحقيقة و... للشعر.
يقولون إن الوجع الدائم يشكّل باعثاً على الكتابة، ولا أصدق هذا الهراء. الوجع يشكل عائقاً للكتابة أحياناً. أعدّ نفسي شاعراً مُقِلاً في نهاية المطاف وأعجب لأولئك الذين ينشرون أربعين أو خمسين ديواناً بحجة أن «معاناتهم» مستمرة. الوجع التاريخيّ عبء على القصيدة، لأن تاريخيته تعني أنه مزمن، وكلُّ مُزْمِنٍ مُمِلّ، من التهاب الرئة إلى التهاب القوافي. وصل الوجع الفلسطيني من الاحتلال، والوجع العربي من الدكتاتورية، حداً معطلاً للشعر. ما يسمّى بالشعر «الوطني» يتكئ في معظمه على البلاغة والفصاحة. والفصاحة قد تهزّ التاريخ لكنها لا تحمي الجغرافيا.
الوجع الحقيقي لا يحتاج إلى بلاغتنا. في ديوان «منطق الكائنات» كتبتُ هذه القصيدة القصيرة جداً لأؤكد ذلك لنفسي أولاً:
الحقائقُ الأكيدة
لا تَحتاجُ إلى البَلاغَة،
الحِصانُ العائِدُ بَعْدَ مَصْرَعِ فارِسِه
يقولُ لنا كُلَّ شَيءْ،
دونَ أنْ يقولَ أَيَّ شَيءْ!
نحن نعيش «وجعاً مزمِناً» و«مقاومة مزمنة» منذ أكثر من قرن. شعراء العالم كتبوا شعراً مقاوماً لسنة أو سنتين ثم عادوا لشعر الحياة العادية. كم سنة يقاوم الناس وكم سنة يكتب شعراؤهم شعراً مقاوِماً؟ المقاومة الفرنسية لم تزد على أربع أو خمس سنوات عاد بعدها أراجون وإيلوار وسواهم إلى تجريبهم الشعري ولعبهم الجمالي على هواهم. نادرة هي الحالات التي قاوم فيها شعب مائة سنة كاملة. ومنذ نقرت أظافر الحركة الصهيونية زجاج نوافذنا إلى أن هدمت وطننا فوق رؤوسنا مَرَّ بنا كل ما يتخيله شاعر أو ناثر إلى حد التشبع والإملال. كل أصناف الموت. كل أصناف الصبر، كل أصناف المحاولات، كل أصناف القادة (ما عدا الناجح منهم فهذا ما نزال بانتظاره لكننا انتظرناه حتى الملل أيضاً) مر بنا اليأس ومر بنا الأمل إلى حد فقداننا لتعريفٍ دقيقٍ يليق بأي منهما. مر بنا التشاؤم ومر بنا التفاؤل ومر بنا التشاؤل ومر بنا طابور من رؤساء الولايات المتحدة، فما الذي لم يمرَّ بنا بعد؟
مر بنا بائع الخرز الملوَّن وبائع السم وبائع الحلم وبائع الوهم وبائع الحِزب وبائع النفس. مر بنا الجبان الهارب من الميدان، والشجاع الذي يهرب منه الميدان. مر بنا الحَنون والقاسي والصادق والكاذب والفاهم والأطرم. مر بنا الذي يميز خمسين صنفاً من النبيذ، ومرّ بنا الذي ينظف أنفه

بِكُمِّه، فما الذي لم يمرَّ بنا بعد؟
مرّت بنا القنابل الذكية والغبية والعنقودية والفوسفورية والانشطارية والدبابات والمدرعات والجرافات والعملاء وكواتم الصوت فما الذي لم يمرَّ بنا بعد؟
مرت بنا معتقلات عشرين دولة عربية، فما الذي لم يمر بنا بعد؟
أنا لم أكتب منذ ثلاث سنوات قصيدة واحدة لأنني لا أريد أن أضع خوذةً على قصيدتي، لا أريد أن أشتغل مراسلاً حربياً، لا أريد أن أشتغل إطفائياً، لا أريد أن أشتغل عربة إسعاف، لا أريد لشعري أن يعتاد الإقامة في المقابر. في قصيدة «منتصف الليل» يأتي المقطع التالي مفتتحاً النص كله:

ها هو المَوْتْ،
مُرْتَدياً قَلائِدَ مِن أَقْفالْ،
تَصْحَبُهُ سلوقيّاتُهُ المُدَرَّبَة،
يُحيطُ خَصْرَهُ بِحِزامٍ أبَديٍّ
يدسُّ فيه العَناوينْ/
لَمْلَمَكَ مع ملابسهِ الغامِقة
ومَناديلِهِ وأمشاطِه
وفُرشاةِ أسنانهِ الضَّخْمَة
وَسَّدَكَ في حقيبتهِ الأَبَنوسْ
وسافَرَ بِك إلى حيثُ يَعْلَمُ ولا تَعْلَمْ/
لِتَكْتَشِفَ، بَعد انقِطاعِ المَطَر
أنه نَسِيَكَ في اللحظةِ الأخيرة،
ودون أدنى إحساسٍ بالمسؤوليّة،
تَرَكَكَ لهذه الحياة!
وأنّ الذي مات أناسٌ غَيْرُك،
ذَهَبوا لأَسبابٍ غامِضَةٍ
كَغُموضِ مَنابِعِ الرِّياحْ،
أو ذَهَبوا مَلْفوفينَ بِراياتٍ
نامَ فيها الرَّفيفْ.
...
ودون أن تَسْتَدْعيَ مَلامِحَها
ها هي تُعاوِدُكْ
بَهْجَتُك الباذخة،
بَهْجَتُكَ المُعَتَّقَة
التي، بِتَمَهّلٍ ومَكْر، خَبَّأَتْ مَفاتِنَها
لأَجْلِكَ أنتْ،
كأنّها صاعِقَةٌ تَخَمَّرَتْ سَبْعَ سَنواتٍ
في الأَعالي ثم ضَرَبَتْكَ بقُوَّة
ضَرَبَتْكَ بالطولِ وبالعرضِ وبالوَرْبْ،

وخطَفَتْ صَوْلجانَكْ
وقد تَجَنَّبْتَها كَثيراً، دون جَدوى،
لأنك، في الأَصْلْ،
(ولولا مِئةُ وَجَعٍ تُلِحُّ على زُجاجِكَ
كشحّاذي إشارةِ المُرورْ)
أنتَ خُلِقْتَ لِلْبَهْجَة.

نعم، خلقنا للبهجة، خلقنا لتقليل الألم وتكثير اللذة. أليس صراع الإنسان مع الطبيعة والطغاة والغزاة علامة على هذا المرام؟ أليس انسحارنا بالحب والرأفة والعدل والانسجام والحرية علامة أخرى؟

تعودنا مواجهة ما ينبغي أن نواجهه كأن الدنيا لن تضيف على التعب تعباً آخر.

لكن ذات ربيع قاهري مألوف لا يخلو من التوجس والغبار الذي تثيره رياح الخماسين اللاهبة، سيقع ما لم يخطر ببال أحد منا.

الفصل العاشر زائر الفجر

عندما تم ترحيلي من مصر عام ١٩٧٧ قلت هذه آخر لطمة أتلقاها من ذلك النظام. اندفعت أحاول إعادة ترتيب حياتنا الأسرية بالمتاح لي من اجتهادات في ظروف المنفى.
تعلمت أن «أبدو قوياً» وهشاشتي ظاهرة لكل عين ذكية.
أن «أبدو مستغنياً» بينما احتياجي للسند يتزايد مع مرور السنوات.
أن «أبدو هادئاً» كموقد مهذّب.
قلت هل أصابني انفصام يحجب حقيقتي عنّي قبل أن يحجبها عن العالم المحيط بي؟
هل أنا الآن مريد الذي أعهده أم أن مريداً آخر يتشكل داخلي، وأتجنب التحديق في ملامحه الجديدة؟
أمر واحد كنت متأكداً منه، هو أنه عليّ أن أتحمّل.
أنا لست قطعة موسيقية، ولست مسرحية تتأمل المصائر على خشبة معتمة. أنا أب وزوج وشخص ذو قضية وأنا شاعر، وإبنٌ، وعَمّ، وأنا راشد، وعَلَيَّ أن أقدّم الإجابات لا الأسئلة فقط. تعودت على طردي من مصر لأجعله خبراً من الماضي، مضيت في سبل الدنيا طاوياً تلك الصفحة محاولاً نسيانها بكل قوة. لكن الحياة درّستني أنه يجب أن تكون حراً لكي تختار، أو تحتار، أو تقرر، أو تهدم أو تبني، أو تغفر، أو تعتذر، أو تقبل، أو ترفض، وأيضاً، وهذا هو الفادح، يجب أن تكون حراً لكي... «تنسى».
الدنيا لم تتركني حراً لأنسى.
عندما توهمت أنني نسيت، أو أنني تعايشت مع نسياني تكفَّل البوليس المصري مرة أخرى بتذكيري بذلك الوهم:
سافر تميم من القاهرة إلى بوسطن يوم ٢٠ آب/أغسطس ٢٠٠١. بعد ذلك بواحد وعشرين يوماً فقط تم نسف البرجين في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. كان عليه أن يتعايش مع أجواء ملاحقة العرب والمسلمين في الولايات المتحدة بدلاً من أن يعيش أجواءها الاجتماعية والعلمية والثقافية والأدبية. لكن ما ساعده على ذلك الرحابة السياسية في بوسطن وفي نيو إنغلاند عموماً. تظل الحقيقة التي يجب الاعتراف بها أنه لم يتعرض لأي مضايقات هناك طوال فترة إقامته وأنها كانت بالنسبة له فترة طبيعية مع مقدار من التوتر غير مبالغ به، تفرغ فيها للدراسة ولتدريس طلابه ولقراءاته استعداداً للامتحان الشامل الذي يسبق انهماكه في جمع المادة العلمية وكتابة الأطروحة.
قدم الامتحان الشامل، اجتازه بنجاح وعاد إلى القاهرة لجمع المادة. كان يأخذ الكمبيوتر المحمول صباحاً ويذهب إلى مكتبة الجامعة الأميركية بالقاهرة التي تقع على بعد خطوات من بيتنا في شارع الفلكي ويقضي معظم الوقت هناك في سباق مع الزمن حتى يحقق أكبر استفادة علمية في أقصر وقت ممكن.
كان هذا في أوائل عام ٢٠٠٣ والاستعدادات الأميركية لغزو العراق تتصاعد على مدار الساعة.
بدا مؤكداً أن بوش سيهاجم العراق خلال يومين أو ثلاثة.
اتفق نشطاء المعارضة المصرية عن طريق الإنترنت والهواتف النقالة على التوجه في الساعة الواحدة ظهراً في أي يوم يبدأ فيه الغزو إلى ميدان التحرير في قلب العاصمة للتظاهر ضد

الحرب.
على بعد أمتار قليلة من ميدان التحرير تقع السفارتان الأميركية والبريطانية، وأيضاً الجامعة الأميركية.
في الجامعة الأميركية، صباح يوم الخميس ٢٠ آذار/مارس كان عدد محدود من الطلاب يفكرون باختراع طريقة لإخبار الطلبة بأن قصف بغداد قد ابتدأ في ساعات الفجر فعلاً، ليخرجوهم إلى التظاهر دون انتظار للموعد المتفق عليه.
اهتدوا إلى قرع جرس الحريق.
اندفع الطلبة والأساتذة راكضين من الغرف لمعرفة ما جرى. انتشر بينهم خبر الحرب. انطلقوا بشكل تلقائي إلى ميدان التحرير. احتلوه قبل اكتمال تحصيناته. بعد قليل تدفق طلاب جامعة القاهرة وموجات من الأهالي والمواطنين. أفلت الأمر من يد الحكومة.
تنفق الحكومة المصرية ملايين الجنيهات لحماية هذا الميدان بالتحديد، ولم يستطع طلاب جامعة القاهرة الوصول إليه إلا مرات قليلة جداً في التاريخ القريب لأن الأمن يغلق بوابات الجامعة على المتظاهرين فيحبسهم داخل الحرم الجامعي لا يغادرونه مهما كلف الأمر.
وجدت الحكومة أن الميدان سقط مبكراً من حيث لم تحتسب. فطلاب الجامعة الأميركية هم في معظمهم أبناء الطبقة الحاكمة أو النخبة الاجتماعية القادرة على دفع أقساطها، وهؤلاء لا خوف منهم في ما قدرت الأجهزة الأمنية. وجن جنون الدولة.
عاد تميم ليلاً من المظاهرات وقال إنه يتوقع أن يتم اعتقاله. قضى الليلة في بيت آخر، ومرت الأمور بسلام.
عاد في اليوم التالي.
تخلينا جميعاً عن حذرنا ونام في البيت.
عند الفجر دهم بيتنا في القاهرة خمسة من رجال الأمن المصريين.
من فتحة الباب ظهرت قامة رجل بملابس مدنية:
— نريد تميم البرغوثي ونريد تفتيش البيت.
— من أنتم؟
— مباحث أمن الدولة.
— أين الإذن؟
— افتحوا الباب فوراً.
— أريد أن أرى الإذن المكتوب، هذه عملية اختطاف.
عند سماع أولهم سؤالنا عن الإذن تنحى خطوة واحدة إلى اليمين بحيث يقع في نطاق نظرنا الرجل الواقف خلفه مباشرةً، جندي مصفّح في زي أسود يلمع كأنه سبيكة معدنية اللون طولها متران، كأنه ذاهب إلى جبهة قتال، سبابته على زناد سلاحه، لا ينطق. أزاح جسمه خطوة واحدة إلى اليسار، فظهر خلفه زميله الآخر. توأم رصاصي ضخم، لا ينطق أيضاً ويده، مثل يد زميله، مستعدّة لكل احتمال.
— مافيش داعي للقلق، همّ كام سؤال ونرجعه لكم بعد ساعة أو ساعتين.
قلت في نفسي هاهم يدعونه إلى فنجان قهوتهم.
هم دائماً ومهما اختلفت المصطلحات والأساليب من بلد عربي إلى آخر كرماء في استضافة

فريستهم، وهم دائماً سيعيدونها بعد ساعة أو ساعتين لا أكثر. لقد قضى رجال ونساء عشرات السنين في زنازين الأنظمة العربية دون أن يكملوا شرب فنجان القهوة اللعين.
الرسالة وصلت.
رسالة الخوف. أقصد رسالة التخويف.
في الدكتاتوريات، أفضل الصناعات الوطنية وأكثرها إتقاناً ومتانةً وتغليفاً وسرعةً في التوصيل إلى المنازل، هي صناعة الخوف.
سوف نراهم، رضوى وأنا، بعجز، يهبطون بتميم درج العمارة، وسلاحهم مصوَّب إلى ظهره.
السلطة الباطشة هي ذاتها عربية كانت أو إسرائيلية. القسوة هي القسوة والانتهاك هو الانتهاك أياً كان الفاعل.
المؤلم هو غياب آلية قانونية واضحة لما بعد الاعتقال.
هم لا يقولون لك إلى أي جهة أخذوه، يظل مكان احتجازه مجهولاً لك، أماكن الاحتجاز كثيرة ومتناثرة على اتساع القاهرة كلها. ليس أمامك إلا البحث في دفتر هاتفك عن اسم شخص متنفذ يمكنه أن يدلك على المكان.
أما ما يحدث له هناك فلا فرق بينه وبين ما يفعله أي احتلال أجنبي بمواطن أتعسه الحظ فوقع بين أيدي رجال الأمن. الإهانة والصفع والتعذيب بالماء الساخن والبارد والشبح واللدغ الكهربائي والحرمان من النوم. قد لا يحدث له شيء من كل هذا، لكن يراد لخشيته من وقوع كل هذا أن تحقق الأثر المطلوب ذاته.
ليلة اعتقاله، كنا مع إدوارد سعيد وزوجته مريم في بيت الصديقة هدى جندي بالزمالك، كان إدوارد يتحدث مع تميم حول أطروحته، يسأله عن أساتذته في جامعة بوسطن ويخبره عما يعرفه عن كل منهم.
في الصباح التالي كان إدوارد ومريم في طريقهما إلى منتجع على البحر الأحمر لقضاء إجازتهما عندما علم إدوارد، عن طريق مكالمة هاتفية من بعض أصدقائه بما حدث. اتصل بي هاتفياً وهو في قمة الغضب.
— ماذا بوسعي أن أفعل؟ قل لي كيف أساعد؟
— لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً يا إدوارد. الأمور ستأخذ مجراها.
تميم وقد امتلك حقه في فلسطين التي لم يكن يعرفها، سيفقد حقه في مصر التي لم يعرف سواها.
هو ولد في مصر لأم مصرية وتعلم في مدارسها من حضانة «هابي هوم» إلى «مدرسة الحرية» إلى جامعة القاهرة إلى الجامعة الأميركية بالقاهرة التي نال منها درجة الماجستير. حين يعتقلونه مع مئات الطلاب ستعامله سلطات الأمن المصرية كأجنبي و«تنصحه» بمغادرة البلاد، خلافاً لكل الطلاب المصريين الذين يقضون في العادة أسابيع أو أشهراً قليلة في المعتقلات ثم يتم الإفراج عنهم بعد ذلك. الذكر المصري يتزوج امرأة من أقصى جهات الأسكيمو فيمنحها القانون المصري هي وأولادها الجنسية المصرية بشكل تلقائي. بينما هذا الحق لا يعطى للأنثى المصرية إذا تزوجت من غير المصري.
يضطر تميم إلى مغادرة مصر.
ما ترسخ لديّ من تلك الواقعة هو عجزي عن حماية ابني.
في مراكش بالمغرب، سأرى بعينيّ النموذج الأكثر إيلاماً للأب إذ يعجز عن حماية الابن، عندما

تتم دعوتي إلى قراءات شعرية في عدة مدن مغربية يرافقني فيها جمال الدرّة والد الطفل الشهيد محمد الدرّة. وصلت إلى فندقي بمراكش في موعدي لكن جمال الدرة لم يصل. وليومين بعد ذلك لم يصل. منعت السلطات المصرية شقيقه القادم براً من غزة لمرافقته من الدخول إلى مصر للحاق بالطائرة المغربية المغادرة من القاهرة. جمال لا يستطيع التحرك بمفرده لأن جانبه الأيمن مدروز بطلقات رصاص استخرج الجراحون بعضها وبقي بعضها في مكانه. بعد اتصالات متكررة سمحت له السلطات المصرية بالسفر وحده، ورحّلوا شقيقه ترحيلاً من نقطة الحدود في قطاع غزة إلى مطار القاهرة مباشرة حتى يضمنوا أنه لن يتوقف في الأراضي المصرية ساعة واحدة. الفلسطيني عند الأنظمة العربية مجرد ملف أمنيّ. وزارات الداخلية العربية هي التي تتعامل معه لا وزارات الخارجية. كأنّ الأمر ترجمة لشعار سرّي تعتنقه الدول العربية، من المحيط إلى الخليج، «نحب فلسطين ونكره الفلسطينيين». لكن معبر رفح على حدود غزة مع مصر هو أبشع تجسيد لغلظة السياسة الرسمية المصرية وقسوة النظام ضد المواطن الفلسطيني البسيط.

الدول العربية تعيش الآن المرحلة الثالثة من مراحل الاحتلال:

كان المواطن العربي في المرحلة الأولى محتلاً بالاستعمار الأجنبي،

وفي الثانية صار محتلاً بحكامه المحليين نيابة عن الأجنبي،

والآن نعيش مرحلة الاحتلال المزدوج، المحلي والأجنبي معاً.

ما قاله لي جمال الدرّة عن جريمة قتل ابنه محمد وهو في حضنه لم يزد من ذهولي عند رؤيتي المشهد في الفضائيات، لكن عضلات وجهه ونظرة عينيه وهو يتحدث عن عجزه عن حماية ابنه الطفل ستسكن خيالي طويلاً.

جمال الدرّة أضاف لي خبراً جعل الأسبوع الذي قضيته برفقته في المغرب محتملاً عندما قال لي إن زوجته حامل وإنه سيسمي المولود القادم «محمد» لكي تظل إسرائيل تعيش مع «محمد الدرة» حتى بعد قتله.

بدا لي جمال الدرة ساعتها قوياً، لكن عندما ساعده شقيقه الأصغر على خلع قميصه ذات صباح، وكنت معهما في غرفته، أنتظر اصطحابهما إلى موعد مشترك، رأيت ذراعه الأيمن معلقاً بكتفه ببقية رفيعة من الجلد. كانت على وجهه هجمة خجل عابرة لأنه رأى أنني رأيت. أما أنا فخجلي من نفسي سيدوم طويلاً.

المفارقة العجيبة أن الأمن المصري سيسجن تميم ثلاثة أيام في ثلاثة سجون أحدها سجن «ترحيلات الخليفة»، نفس السجن الذي سجنوني فيه عام ١٩٧٧.

تميم ينام مكاني في العنبر المكتظ ذاته، يأكل مثلث الجبنة «النستو» وكسرة الخبز البائت التي كانوا يقدمونها لي غذاء ليوم كامل، ينام على الأرض الإسمنتية بلا سرير كما نمت وقد يتبرع له قاتل أو مهرّب أو لص يجاوره، ببطانية كما تبرع لي أحدهم ببطانيته يوماً. يجعل حذاءه مخدة تحت رأسه كما فعلت.

أنا الطليق اليوم، أتأكد أنهم يسجنونني للمرة الثانية.

كأنني لم أغادر سجنهم الأول.

كأنني في سجن ممتد يرفض أن يعترف بأي فصل أخير.

كأن السجن مدينتي الشخصية. هذه المرة نعيش ونكبر فيها معاً، إبني وأنا.

دخلت العقد السابع من عمري ولم أسجن في حياتي إلا لأيام قليلة في بلد عربي يحكمه دكتاتور

عربي وليس في سجن إسرائيلي. لكن فكرة السجن ما زالت تحيّرني. السجن في عقل الدكتاتور تجريد لا تفاصيل، فكرة لا حيثيات، فكرة لا تتطلب برهاناً ولا دليلاً. فكرة شخصية، كالمزاج أو الذوق، لا يمكن مناقشتها. هذا مصدر راحته الأكيدة. ولأن إصدار الأمر بوضع الناس في السجن هو الحل الوحيد الذي لا يحتاج إلى ذكاء فإن السجن في خيارات الدكتاتور هو أول الحلول، أسهلها، وأضمنها. والدكتاتور لا يغير رأيه ما دام في كرسيّه، إنه يغير رأيه في مكان آخر. في العالَم الآخر مثلاً، لا أقل. عرش الدكتاتور رأيه. الدكتاتور يجلس القرفصاء على رأيه كما ترقد الدجاجة على بيضتها، هو ورأيه يمارسان كل طقوس يومه معاً، يستحمان ويمارسان الرياضة الصباحية ويتناولان الطعام ويعملان ويلهوان ويتناكحان معاً. هو يأخذ رأيه معه إلى النوم، كما يأخذ كلبه. الدكتاتور وفيّ لرأيه، ورأيه وفيّ له. يستيقظ هو ورأيه في نفس اللحظة (شوف الصُّدَفْ!) ولا يفارقه طوال ساعات اليوم، لا يفارقه طوال ساعات الحكم، التي هي ساعات العمر كله. وإذا مرض الدكتاتور، أو سافر في إجازة أو أصابه خَرَفُ الشيخوخة، فهو يترك رأيه في رعاية أتباعه المخلصين، من شرطة ومستشارين ورؤساء تحرير ووزراء إعلام ويساريين سابقين هداهم الله بعد تردد وأدوات الكيّ والصعق والشبح، ويستحسن أن يكون إلى جانب هؤلاء شعراء وروائيون ونقّاد، ممن ناضلوا طويلاً بكل شجاعة، دفاعاً عن حقهم الأصيل في امتلاك عمودٍ فقريٍّ لَيِّن، يمكّنهم من الانحناء بسهولة باهرة بين يدي حاجب قصره، فأضربوا واعتصموا ليُسمح لهم بالالتحاق بوظيفةٍ في حكومته، حكومته المعروف عنها تفانيها في رعاية الثقافة والمثقفين، (هكذا لوجه الله!). والدكتاتور يعشق الطاعة عشقاً سادياً، يكافئ المطيع بمضاعفة إذلاله إلى حد التسلّي به كلما رآه. لكن أفظع ما في الدكتاتور أعوانه الصغار.

ضابط الترحيلات، عندما يحين أوان ترحيل تميم، سيسمح لي باصطحابه. يركب معنا رجلا الأمن المكلفان بحراسته حتى آخر دقيقة. قرب نهاية الطريق الطويل، المزدحم، الخانق، إلى مطار القاهرة، يقول لي السائق عبد العال ناصحاً:

— لا تنس البقشيش يا أستاذ مريد.

— بقشيش؟

— أيوه يافندم. البقشيش.

— لمن؟

— لهم.

— معقول؟ بقشيش لمن يرحّلون ابني يا عبد العال؟

همس في أذني:

— حتى تمر الأمور على خير في المطار يا أستاذ. بلاش يعقدوها.

— كم؟

— انت وتقديرك.

— خمسين جنيه؟ مئة حنيه؟

— بحبحها أكتر يا أستاذ.

أدفع البقشيش للرجلين.

سأرافق تميم بالطائرة إلى عمّان. هذه المرة سيسمحون لرضوى أن تودعنا فتأتي في سيارة أخرى ومعها صديقتنا حسناء مكداشي.

ترتفع العجلات الأمامية للطائرة وتقلع بنا. أشعر أنني أيضاً مرحّل ومطرود، للمرة الثانية. أعيش يوم طردي من مصر عام ١٩٧٧ كأنه لم يتحول بعد إلى ماضٍ. كل من هم في قاعات المطار، المئات المتزاحمون في قاعته الأمامية لوداع أقربائهم المغادرين، والعشرات الواقفون أمام حاجز التذاكر ووزن الحقائب، الصفوف المتجاورة أمام شبابيك ختم جوازات السفر، رواد المقهى أمام البوابات المؤدية لركوب الطائرات، هؤلاء جميعاً متواجدون في المطار لا لكي يودعوا أو يسافروا أو يشربوا القهوة والشاي ولا لكي يصعدوا على سلالم الطائرات المغادرة، بل هم هنا ليتفرجوا على القيد الحديدي الذي يشد معصمي إلى معصم الشرطي المرافق وهو يجرني بين تلك القاعات، وأمام تلك الأعين، كما يجر حقيبة ثقيلة.
ستظن تلك العجوز البدينة أنني لص. تلك المراهقة ستظنني اغتصبت فتاة في مثل سنها. ذلك الجمركيّ ذو الشعر المصبوغ سيظن أني مهرّب أموال سقط بعد تخطيط عبقري، أو أنني مجرم دولي نجح الإنتربول في الإمساك به بعد سنوات من الملاحقة وأنني أساق مخفوراً الآن لنيل عقابي. سيظن مسافر مستعجل داس على قدمي خطأ دون أن يعتذر، أني أمثل خطراً ما وأن التخلص مني يهمه شخصياً. من المستحيل أن يخطر ببال أحدهم أنني شاعر تخشاه السلطة أو النظام لأن كثيراً من مثقفي البلاد وكتّابها الكبار، خذلوا البلاد عندما خذلوا الناس ولم تعد تخشاهم السلطة. الناس توقفت عن قراءة الشعر منذ توهم الشعراء أن الحداثة هي الهذيان، ومنذ أن شاهدت كثيراً من الرموز الأدبية تتواطأ مع الحاكم في ثلاث: تلهث لنيل رضاه، فإن فشلَتْ، لهثت لتتجنب غضبه، فإن فشلَتْ، هجّت وهاجرت إما إلى داخلها الذي أعطبته الكآبة أو إلى خارجها بين فكّي الغياب والنسيان.
نعم. سيظن جميع من في المطار هذا اليوم أنني مجرم. لن يظن أحد أنني شاعرٌ أكتب القصيدة وأعيد كتابتها مرة بعد مرة حتى ترضى القصيدة بشكلها فأرضى. لست بطلاً حتى أشعر بالزهو ولست مجرماً حتى أشعر بالعار.
إنني شخص لا شعور له في هذه اللحظات.
كأنني أحلم أنني أحلم.
كأنني لست هنا، لست معهم، لست مع أحد، لست قادماً من أي مكان، لست ذاهباً إلى أي مكان.
كأنهم يقتادون غيري.
تلك كانت حالتي بالضبط، وأنا أغلي، بل أكاد أنفجر، بينما أبدو أمام هؤلاء الناس هادئاً كقميص مطويّ في خزانة ملابس.
تلك كانت حالتي بالضبط بينما أتمنى لو كنت إلهاً إغريقياً حتى أركل جدران المطار الكالحة بحذاء من القنّب المقدس، وأترك سقفه العالي مرفوعاً على أعمدة اللعنة.
يومها، والماضي لم يصبح ماضياً بعد، صعد معي الشرطي حتى مقعد الطائرة وهناك فقط فكّ القيد المشترك بين معصمه ومعصمي، وغادر.
أعرف ما الذي ظنه الركاب الآخرون وأنا أدخل من باب الطائرة مقيداً. أعرف لماذا استبدلت المضيفة بابتسامتها التى تدربت عليها شهوراً طويلة نظرة ارتياب خائفة، فأشاحت بوجهها عني، أعرف لماذا عندما وضعتْ أمامي وجبة الطعام وضعَتْها كأنها سجّان بلا وجه يدسّ لسجينه رغيفاً من كوّة زنزانة. أعرف أنه مريح للناس أن يحترموك إن رأوا أحدهم يحترمك وأن يهينوك إن رأوا أحدهم يهينك. ألا يكوّن امرؤ رأيه الخاص؟ ألا يفحص أسباب احترامك أو إهانتك؟ أقول

لنفسي: بعض الأحيان، وبالتحديد عندما تلتبس الأمور قليلاً، يكون العقل أكسل أعضاء الجسم وأكثرها بلادة.
وحدي بين السماء والأرض، أفكّر في رضوى.
رضوى ستدفع ثمن سياسات السادات وخَلَفِهِ مبارك من حياتها الشخصية. ستعيش طرد زوجها وتكرس وقتها للعناية بابنها دون وجود أبيه، إلا لفترات متقطعة، على امتداد سبعة عشر عاماً.
عندما تضطر إلى إجراء عملية جراحية خطيرة مهددة للحياة، تكون وحدها مع تميم الذي لم يكن قد بلغ الثالثة من عمره، وأكون أنا في بودابست ممنوعاً من الاطمئنان عليها والوجود بجانبها، طارت أمي إلى القاهرة فور علمها بنبأ المرض فخفف ذلك قليلاً من وطأة الأمر عليّ. مرة أخرى أفشل في أن أكون حيث يجب أن أكون.
أفشل في أن أحب أو أحنّ أو أساند أو أساعد أو أرعى أو أكون ذا نفع لمن أحب.
كنت سافرت من بودابست إلى الدوحة لزيارة منيف ومجيد وعلاء، هناك جاءني اتصال من رضوى تخبرني بأنها مضطرة لإجراء عملية جراحية كبيرة لا تحتمل الانتظار.
ماذا يفعل المطرود لكي يتغلب على دولة بجيشها وشرطتها وسجونها وحدودها وأختامها و«سيادتها» ضد جسده المفرد؟ عندما كان البعض يحاول التوسط لدى أي مسؤول مصري كبير ليسمح لي بزيارة أو رفع اسمي من القائمة السوداء في المطار، كان يقال له «هذه مسألة سيادية» تحيا السيادة!
لو كان الجنون قراراً يُتَّخَذ لقررتُ أن أُجنّ.
فكرت أن العربيّ المحظوظ هو الذي يصحو من نومه ذات صباح فيجد نفسه مجنوناً وينتهي الأمر.
لم أُجَنّ.
أم أن خيطاً خفياً من الجنون يرافقني حتى الآن دون أن أعيه؟
عدت من الدوحة إلى بودابست مصاباً بالسكوت. أدرت المفتاح في الباب، جلست على الكرسي لأرتاح بضع دقائق قبل أن أفتح حقيبة سفري فاستيقظت في اليوم التالي بكامل ملابسي. ذهبت إلى عملي فاكتشفت أنني لا أحتمل أصوات الزملاء. كلما تحدث أحدهم في موضوع تمنيت أن يسكت. استأذنت في الانصراف.
لم تطل حالتي هذه أكثر من يوم واحد.
لم أدرك وقتها أنني قطعت شوطاً كبيراً في تربية تعوّدي على اختلال الأمور. التعود على أن الأمور في الأصل مختلة. بدأ التعود بعسر وبطء من حزيران ١٩٦٧ وظل يترسخ تدريجياً مع كل المباغتات الشخصية السيئة التي لم تعد تباغتني. أقصد أنني أصبحت أكثر بلادة من أن أنهار أو أتأفف من أوجاعي. كنت أمازح أصدقائي قائلاً لهم:
ـــ اطمئنوا أيها الأصدقاء، أنا لن أتعب كلما اقتضى الأمر أن أتعب. لن أمرض بين فترة وأخرى. أنا سأموت دفعة واحدة.
تمّت العملية الجراحية بنجاح، لكن رضوى لا تزال تعاني إلى اليوم من هشاشة صحية عامة تجعلها سهلة التعرض لأوجاع تعلمَتْ أن تحتملها بشجاعة تبهرني ولا أستطيع أن أتعلم منها. فأنا أفزع وأملأ الدنيا بالشكوى والتوجع لو أصابني زكام عابر، أما إذا ارتفعت حرارتي درجة واحدة فأنا ميت لا محالة، (أمر مثير للسخرية، يقال إنه آفة ذكورية) ومن منا يزعم أنه تخلّص تماماً من

عيوب الذكورية الممتدة عبر الأجيال.
هل قلت إنني أملأ الدنيا بالشكوى من زكام عابر؟ ألم أقل في الفقرة السابقة إنني لا أتعب ولا أشكو؟ هل أنا متناقض هنا؟ نعم. أنا متناقض هنا ويدهشني أن يفزع الناس من افتضاح تناقضاتهم أو أن يهبّوا مستنكرين اتهاماً «بشعاً» كهذا، أو أن ينبروا مدافعين كأنهم طُعِنوا في شرفهم. لا يفزعني أن يصرخ في وجهي أحدهم أثناء نقاش ما «ولكنك تناقض نفسك يا سيد مريد» وإن فعل فإنني أجيبه «طبعاً أناقض نفسي، عندك حق، هذا تناقض بالفعل». أحياناً أعتذر عن تناقضي وأحياناً لا أعتذر. الإنسان مليء بالتناقضات مهما أنكر ذلك، إن بداخله أصواتاً متضادة وهو يصغي لها جميعاً في أوقات مختلفة فيبدو تناقضه واضحاً للجميع. ولا يفزعني من يصرخ بي «أنت غلطان يا سيد مريد». طبعاً من الوارد أن أقع في الغلط. هل هذا غريب؟ وهل أنا أبله حتى أكون على حق دائماً؟
ستعاني رضوى لسنوات طويلة من التهاب القولون العصبي وستصاب في بودابست بالانسكاب البللوري الحاد مما يهدد حياتها. يعالجها طبيب مجري عجوز، مجرب وحنون، وتنجو مرة أخرى. في مرضها، وفي رقتها الدائمة، تبدو لي كأنها من زجاج قابل للكسر بلمسة عابرة، ويفزعني ذلك، لكنها تخوض مواجهاتها في الحياة بصلابة الماس. سوف تكيّف مواعيدها الجامعية والسياسية والاجتماعية والثقافية بحيث لا تغادر البيت بعد الساعة السابعة مساء طوال سنوات طفولة تميم. لم أكن في حاجة لأن تخبرني أنها كانت مهددة ليس فقط باحتمال أن يلحق به الأذى وهما وحدهما، بل أيضاً بالاعتقال بسبب مواقفها السياسية، وهذا أكثر ما كانت تخشاه ولا تستطيع التكهن بكيفية التعامل السليم مع عواقبه. لم يكن الاتصال الهاتفي في ذلك الوقت سهلاً، كانت الرسائل البريدية تستغرق شهراً أو أقل قليلاً. (البريد الإلكتروني والتشات والميسنجر كانت آنذاك جزءاً من الخيال العلمي). في الماضي الأبعد قليلاً عندما سافرت رضوى إلى أمهرست في الولايات المتحدة عام ١٩٧٣ لنيل شهادة الدكتوراه انتظرنا أكثر من شهر تقريباً لنتمكن من تدبير أول مكالمة هاتفية بيننا.
بين عمان والقاهرة استمرت اتصالاتنا (الحديثة)، لتأمين عودة تميم إلى مصر. بينما احتل هو مكتبي الأبيض الواسع المطل على حديقة البيت في عمان وجلس ليكتب قصيدته الشهيرة «قالوا لي بتحب مصر قلت مش عارف». أدهشتنا كثافة حملات التضامن مع تميم من مصر والعالم العربي والعالم. أساتذته في بوسطن أرسلوا رسائل استنكار إلى الحكومة المصرية، سبقهم إلى ذلك عدد من الكتّاب العرب، أما في مصر فقد شمل التضامن معه شرائح أوسع بكثير. بعد أربعة وثلاثين يوماً من الترحيل تلقينا تأكيداً من رضوى أن المساعي نجحت وأن بإمكان تميم العودة إلى مصر. وكان.
كم سفرٍ وكم عودةٍ أيها الوقت؟ كأننا نغرق ونطفو بتكرار ممل. كأنّ اليابسة موجٌ يموجُ بنا إذ نَخْطو.

الفصل الحادي عشر نهاية تفضي إلى البداية؟

في زيارتي قبل الأخيرة لرام الله وجدتُ الأصدقاء يتناقلون خبر ما حدث في مطعم «دارنا» الفخم، ولما سألت صديقي زياد عن الأمر دعاني إلى العشاء في المطعم لأستمع إلى التفاصيل الدقيقة من صاحب المكان. عانقني وقال لزياد أتركه لي بعض الوقت. اقتادني إلى الطابق العلوي، طلب من النادل أن يحضر له الصور. جاء النادل، أخذ صديقي يعرضها عليّ واحدة واحدة. كلها تصور مطعمه الأنيق وقد تحطمت طاولاته وكراسيه وأطباقه ورسومه وزجاجه وظهرت آثار الطلقات النارية على أعمدته وجدرانه وعلى السقف والدرج والباب والأرض. وحكى لي الحكاية بالتفصيل:

عدد من المسلّحين المنتمين إلى حركة فتح بلغ بهم الاستياء والسخط حداً لا يطاق، من فساد رجال السلطة الذائع الصيت فقرروا مهاجمة مقر السلطة بالسلاح تعبيراً عن هذا السخط. على باب مقر الرئيس في «المقاطعة» كان لا بد لهم أن يصطدموا برفاق سلاحهم من الحراس المناوبين، وهؤلاء كانوا لا يقلون سخطاً عن المهاجمين فقالوا لهم:

— من تبحثون عنهم لن تجدوهم هنا، اذهبوا وفتشوا عنهم في أفخم الفنادق وأفخم المطاعم حيث يسهرون كل ليلة.

استدار غاضبو فتح بأسلحتهم وابتدأوا بمطعم «دارنا».

اقتحموا المطعم من بابه الرئيسي وبادروا بإطلاق بعض الطلقات دون تسديد على أحد.

لم يكن هدفهم القتل بل الصراخ بالرصاص كاحتجاج أخير. كان هدفهم إعلان سخطهم على القيادة ونفاد صبرهم ويأسهم من كل وعود الإصلاح التي لم يتحقق منها شيء طوال سنوات.

اختبأ رواد المطعم تحت طاولاتهم طبعاً. رأيت صورة لأحدهم يحاول من تحت الطاولة أن يصل بيده إلى سطحها ليعثر على كأسه التي لم تزل فيها بقية من البيرة، رغم كل ذلك الرصاص، وضحِكْت.

الفساد يتفاقم، عنف الاحتلال يتزايد. فتح تتداعى، حماس تصعد. ثبت أن الحفرة تتسع لضحيتين في سقطة واحدة، عندما تنزلق العقول.

السلطة قررت أن تجلس على كرسيها في انتظار ابتسامة الدبابة الإسرائيلية.

الدبابة لا تبتسم.

الحكام العرب يتصرفون وكأن أوطانهم هي التي في مأزق لا يحله إلا التنازل لعدوها من أجل اتقاء شرّه. لا يخطر ببالهم أن المشروع الصهيوني هو المأزوم وهو الذي يعاني اليوم من مأزق حقيقي لا يعرف طريقاً للخروج منه.

الشعب الفلسطيني الذي حسبوا كل حساباتهم على اختفائه لم يختف، وهو باق في جهنمه الوحيدة التي اسمها الوطن المحتل. ثم إن إسرائيل لم تنتصر انتصاراً واضحاً في أي مواجهة مع العرب إلا عام ١٩٦٧. لكن القادة العرب لم يتخلوا عن ذعرهم من النصر بل أنكروه عندما حصلوا عليه واضحاً عام ٢٠٠٦ في جنوب لبنان وادّعوا الهزيمة من فرط تعلقهم بها. «عملية السلام» التى ناموا على مخدتها طويلاً انفجرت تحت رؤوسهم جميعاً. المسألة مش ماشية يا عمّي! عملية السلام العبثية قتلت من العرب أكثر مما قتلت منهم حروب إسرائيل مجتمعة. لكن الأخطر من ذلك كله

هو أنها أدت إلى إغراء القيادة باختطاف معنى القضية الفلسطينية ذاتها وتحويلها من قضية تحرر وطني إلى NGO ومن برنامج مقاومة إلى برنامج مُقاوَلَة، متجاهلة بذلك الحقيقة التي بات يدركها أي مواطن، وهي أن شكل المقاومة الوحيد الذي تسمح به إسرائيل هو أن يقدّم الفلسطينيون باقات الزهور لجنود الاحتلال! لكن لا زهور في فلسطين تكفي لجيشٍ لا يكفّ عن العمل بنشاط عظيم وشهوة شبه يوميّة. في الحصار الطويل الذي فرضته حكومة إسرائيل على غزة ذبلت أطنان الزهور الغزاوية المعدة للتصدير إلى أوروبا فأصبحت طعاماً مجانياً للخراف والأغنام تلوكها بتلذذ في عيد «الفالنتاين». لم يسمع أحد عن «مناورات» حربية منتظمة يجريها الجيش الإسرائيلي كما تفعل جيوش العالم، فهو ليس في حاجة للمناورات الافتراضية. إنه يمارس مناوراته (فعلاً) وبالذخيرة الحية في أجسادنا. وهو في كل مرة كما قال راكب تكسي سفريات درويش «يُجَرِّبُ المُجَرَّبْ»، لا يهدأ ولا يستريح ولا يحل مشكلته الأمنيّة. إسرائيل جربت كل أنواع الهجمات العسكرية ضد الفلسطينيين، والولايات المتحدة ومعها حكومات أوروبا دخلوا كل الأبواب إلا الباب الوحيد المفضي إلى فرصة حقيقية للحل، وهو باب «العدالة».

لكن التفكك الرسمي الفلسطيني ليس كلمتنا الأخيرة. هنا شعب لم يتوقف عن ابتكاراته المدهشة لمواصلة العيش. لكن الجديد أنه بات متأكداً الآن من أن هؤلاء «النوامق» لن يحرروا الأرض، وأن عليه أن يفعل شيئاً لاسترداد قضيته التي اختطفها الفساد السياسي. عليه أن يسترد المغزى الأخلاقي لمقاومة الاحتلال والتشبث بمشروعيتها وتخليصها من آفة الارتجال والعشوائية والقبح، فالمظلوم يخسرُ إن لم يكُنْ في جَوْهَرِهِ أجْمَلَ من الظالِمْ.

كم ضاع من العمر؟

القضية الفلسطينية الآن تبدأ من البداية مجدداً: ألم تكن البداية أن أرضاً تم احتلالها ويجب أن تُسْتَرَدّ؟ وأن شعباً طرد من أرضه ويجب أن يعود؟ هل النهاية التى وصلنا إليها اليوم إلا تلك البداية؟

صدر للشاعر

شعر:
منتصف الليل، دار رياض الريس، بيروت، ٢٠٠٥.
زهر الرمان، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٤.
الناس في ليلهم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩.
مجلّد الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٧.
منطق الكائنات، عمان، ١٩٩٦.
ليلة مجنونة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦.
رنة الإبرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩.
طال الشتات، دار الكلمة، بيروت، نيقوسيا، ١٩٨٧.
قصائد الرصيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
الأرض تنشر أسرارها، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٨.
نشيد للفقر المسلّح، الإعلام الموحد، بيروت، ١٩٧٧.
فلسطيني في الشمس، دار العودة، بيروت، ١٩٧٤.
الطوفان وإعادة التكوين، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢.
مختارات شعرية:
عندما نلتقي، دار الكرمل، عمان، ١٩٩٣.
القصائد المختارة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
قصائد مختارة، دار الفاروق، نابلس، ١٩٩٧.
أحدث الترجمات الشعرية:
Medianoche, Fundaction Antonio Peres, Spain ٢٠٠٦.
A Small Sun, Aldeburgh Trust ٢٠٠٣.
Midnight And Other Poems, ARC Publication, UK.
نثر:
رأيت رام الله، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٧، والمركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٨، و٢٠٠٣، و٢٠٠٨

فهرس الأعلام

أ
آل البرغوثي
آل الحسيني
إبراهيم جورج
أبو تمام
أبو حازم
أبو ساجي
أبو اللطف
أبو مازن
أبو ماضي إيليا
أم كلثوم
أمرؤ القيسب
بافاروتي
برايتنباخبرايتن
براينربول
البرغوثي أنيس
البرغوثي تميم
البرغوثي حسين
البرغوثي رفيق
البرغوثي عبد اللطيف
البرغوثي علاء
البرغوثي عمر الصالح
البرغوثيمجيد
البرغوثيمروان
البرغوثي مريد
البرغوثي منيف
بركات محمد
بن لادنأسامة
بوشجورج و.
بيتهوفنت
التفكجي خليل
توما إميل
التيجانينامقج

الجواهريمحمد مهديح
حسام
الحسينيفيصلخ
خوريإلياس
خورييباسمد
داوبي
الدرةجمال
الدرةمحمد
درويشمحمود
دنقلأملذ
ذيبعمرر
رامسفيلد
الرصافيمعروفز
زيادتوفيقس
الساداتأنور
سالمونكريستيان
ساراماغوخوسيه
السعداوينوال
سعيدإدوارد
سعيدمريم
شارونأرييل
شاميرإسحق
شحمة عبد المعطي
الشقيري أحمد
شوينكاوليص
الصوص أبو شريفط
طنوسفؤاد
طوبيجورجع
عاشوررضوى
عبد الله (الملك)
عبد السلام موسى
عبد الناصرجمال
عدوان ممدوح
عرفات ياسر
العلي ناجي
عمارةلميعة عباس

عوز عاموسف
فيروزك
كاستروفيدال
كونسولول
لومومبام
مایاکوفسکي
مباركحسني
المتنبي أبو الطيب
محمود (السائق)
مكداشيحسناء
منههو شين
نتنياهو
النجار عادل
النشاشيبيرامي
النميريجعفره
هريليهوديتي
يخلفيحيى
يوسفسعدي

فهرس الأماكن

أ
إثيوبيا
إربد
الأردن
أريحا
إسرائيل
أفغانستان
أميركا انظر الولايات المتحدة الأميركية
إنكلترا
أوروباب
البحر الأبيض المتوسط
البحر الأحمر
بودابست
بوسطن
البوسنةالبيرة
بيروتت
تركيا
التلّج
جبل الكرمل
الجزائر
جنوب أفريقيا
جنينح
حمص
حيفاخ
الخليلد
دمشق
الدوحة
دير غسانةر
رام الله
رفحز
الزرقا
السودان
سوريةض

الضفة الغربيةط
الطفيلةع
عدن
العراق
عسقلان
عكا
عمّانف
فلسطين ،
فيتنامق
القاهرة
القدس
قطاع غزة
قطرك
كندا
كوسوفو
الكوفة
الكويتل
لبنان
اللّد
لندن
ليبيام
مراكش
مصر
المغرب
موسكون
الناصرة
نهر الأردن
نهر النيل
نيو إنغلاندو
الولايات المتحدة الأميركيةي
يافا
اليمن